Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجموعة الببليوجرافيا التاريخية

الكتب والمكتبات في العصور الوسطى

الشرق المسلم ■ الشرق الأقصى

دكتور شعبان عبد العزيز خليفة

الدار المصرية اللبنانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتب والمكتبات
في
العصور الوسطى

الشرق المسلم ■ الشرق الأقصى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت. ص. ب 2022 برقيا دار شادو. القاهرة. ت : 3923525 - 3936743. فاكس : 3909618

رقم الإيداع : 3692 / 1997 الترقيم الدولي : 7 - 329 - 270 - 977

تجهيزات فنية : الإسراء ت : 3143632 طبع: الهدى ت : 4827851

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : محرم 1418 هـ مايو 1997 م الطبعة الثانية : شوال 1421 هـ يناير 2001 م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجموعة الببليوجرافيا التاريخية

الكتب والمكتبات في العصور الوسطى

الشرق المسلم ■ الشرق الأقصى

تأليف

الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

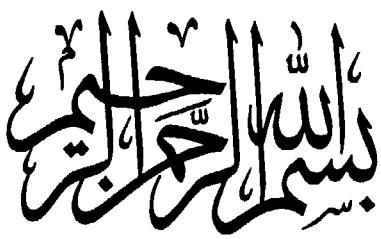

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهـــداء

* إلى الزهرة التـى تفتحـت فـى حياتـى

فعطرتها بأريجهـا الفـــواح.

* إلى الشعـــلة التـى أضـــاءت حياتـى

بنـــــورهـــــا الوهـــــاج.

* إلى ولدى شريف شعبان خليفة

الذى عشق الكتب والقراءة منذ نعومة أظفاره.

* لقد آثرت أن أقدم لك باقة مـن الورد

فـــى ســـلة قديـــمة.

علـى أن أقدم لك باقـــة من العشـب

فـــى ســـلة جديـدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والله. والله. والله. لن
يفهم الحاسب الإلكتروني
وملفاته الآلية، ولن تفهم
أقراص الليزر إلا على
ضوء لفافة البردي
وكراس الرق.

شعبان خليفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

إنتهينا فى كتابنا الأول: الكتب والمكتبات فى العصور القديمة إلى اعتناق التقسيم العام للعصور إلى قديمة ووسطى وحديثة، أساساً لمعالجة موضوعنا الكتب والمكتبات. والعصور القديمة كما حددناها هناك تبدأ منذ ظهور الإنسان العاقل على الأرض ولأغراض الببليوجرافيا التاريخية تبدأ العصور القديمة منذ إختراع الكتابة حيث أنها الأصل فى ظهور الكتاب ومن ثم المكتبات، وتنتهى مع القرن الخامس الميلادى، حين سقطت الامبراطورية الرومانية ودخلت فى ظلام العصور الوسطى الأوربية. وقلنا فى تبرير ذلك أن البشرية لا تنتقل من عصر إلى عصر بين يوم وليلة أو بين سنة وأخرى بل يكون الانتقال تدريجياً يحتاج على الأقل إلى ربع قرن.

ومن هذا المنطلق فإن العصور الوسطى تبدأ مع القرن السادس الميلادى وتنتهى كما ذهبنا هناك مع القرن الخامس عشر الميلادى؛ ومن ثم فإنها تشغل تسعة قرون كاملة. والأوربيون يقسمون عصورهم الوسطىَ إلى عصور وسطى باكرة وعصور وسطى متأخرة: الوسطى الباكرة تمتد من القرن السادس حتى القرن الثانى عشر، وتتسم تلك الفترة فى أوربا بالتخلف العام فى جميع نواحى الحياة حتى أنها وصفت بالعصور الوسطى المظلمة، ومن هنا لم يكن فيها نهضة فكرية أو إنسانية عامة. أما العصور الوسطى المتأخرة فإنها تمتد من القرن الثالث عشر وحتى نهاية الخامس عشر على مدى ثلاثة قرون كاملة. وتعتبر هذه القرون الثلاثة برمتها بمثابة مقدمة للنهضة الأوربية الشاملة وإرهاصات لها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما بالنسبة للمسلمين فإن العصور الوسطى يجب أن تنقسم إلى عصور وسطى إسلامية وعصور وسطى مسيحية؛ وحيث يعتبر القرن السابع الميلادى كله إرهاصاً للنهضة الاسلامية الشاملة التى يمكن اعتبارها قد تبلورت فى القرن الثامن الميلادى، وامتدت على مدى سبعة قرون ولفظت أنفاسها وبثت روحها فى النهضة الأوربية فى نهاية العصور الوسطى الأوربية المتأخرة.

ونظرا لأن الشرق الأقصى (الصين واليابان وكوريا) له تقسيماته التاريخية الخاصة فإننا لا نستطيع أن ندخله فى الإطار العام للعصور التاريخية حسب تقسيمنا لها حتى يمكن معالجة الكتب والمكتبات فى تلك المنطقة التى غالبا ما تفلت من شبكة التأريخ الببليوجرافى رغم دورها الفعال فى هذا المضمار. كما أن تلك المنطقة لم تخرج عن عزلتها التى فرضتها على نفسها إلا فى نهاية القرن التاسع عشر بالنسبة لليابان وكوريا، والنصف الثانى من القرن العشرين بالنسبة للصين. ولذلك سوف نعالج الكتب والمكتبات فى الشرق الأقصى على مدى التاريخ هنا فى هذه الحلقة.

وسوف نعالج فى هذه الحلقة الثانية الكتب والمكتبات عند المسلمين ثم فى الشرق الأقصى ثم أوربا ثم عند البيزنطيين فى العصور الوسطى. ونظراً لضخامة المادة العلمية فسوف نوزعها على مجلدين. يدور أولهما حول الكتب والمكتبات عند المسلمين، والكتب والمكتبات فى الشرق الأقصى. ويدور الثانى حول الكتب والمكتبات فى أوربا والدولة البيزنطية.

والله من وراء القصد،

شعبان عبد العزيز خليفة

الجيـــزة فـــى ١٩٩٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

الكتاب الإسلامى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدرس الأول

الأرض التى نبت فيها الكتاب الإسلامى

كلمة عربى هى كلمة آرامية (آرابى) معناها ساكن الصحراء. وقد أطلقها الآراميون على سكان الصحراء الذين عاشوا فى الجنوب منهم. ومن ثم نسب المكان واللغة والكتابة وغير ذلك إلى هذه الكلمة فقيل جزيرة العرب واللغة العربية والخط العربى وما إلى ذلك. إذن فالتسمية أتتهم من الخارج، من شمالهم وليس من داخلهم.

وينتمى عرب الشمال إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقد انحدرت منه القبائل العربية الشمالية على النحو الآتى:

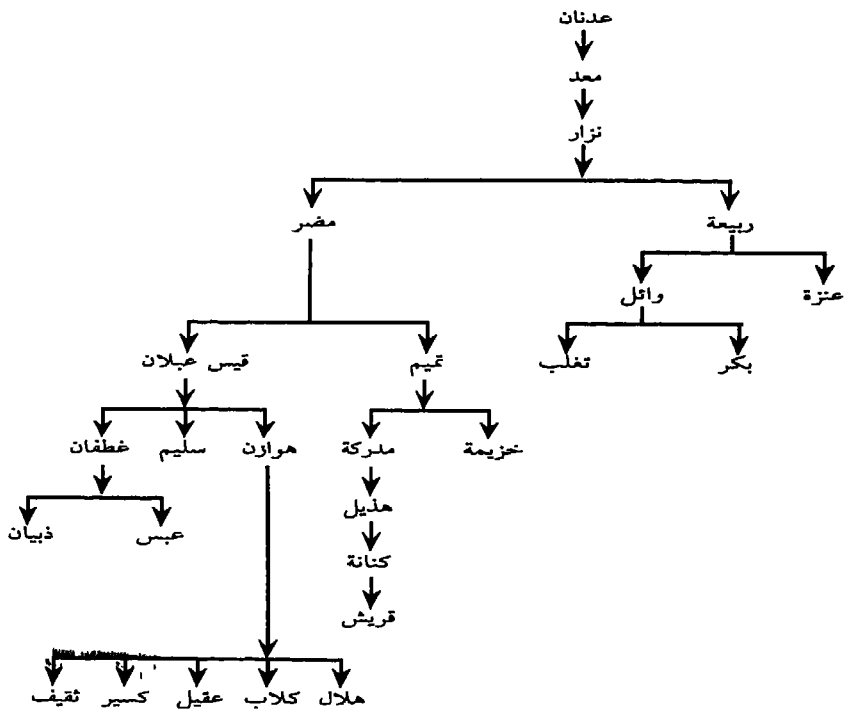

العرب المستعربة (عرب الشمال)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أطلق على الفترة التى عاشها عرب الشمال قبل الإسلام إسم «الجاهلية». ذلك أنه لم يكن للعرب فى تلك الفترة علم ولا أدب ولا فن مكتوب، وكانت الأشعار والأخبار يتم تداولها وتناقلها شفاهة عن طريق التواتر رغم أنهم قد عرفوا الكتابة - كما سنرى تفصيلا فيما بعد - بفترة طويلة قبل الإسلام. وكانت حضارتهم بدوية وعيشتهم بسيطة تتسم أساساً بالترحل وراء الكلأ. وكان ارتباط العربى بالقبيلة هو أساس تكوينه النفسى والعاطفى. وكان الصبر والحزم وحب الحرية والكرم وحسن الضيافة والشجاعة والثأر من أهم صفات العربى فى تلك الفترة.

ورغم أنهم كما رأينا كانوا من سلالة سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلا أن ديانتهم على وجه العموم كانت الشرك وعبادة الأصنام ولهم الكهنة والكاهنات والسدنة خدمة الهيكل وكانوا يعتقدون فى القيافة والعرافة والعرافين ويعتقدون فى الجن. وقد دان بعضهم باليهودية فى الحجاز خاصة. كما كان للنصرانية نوع من الإنتشار سواء بين البدو أو الحضر وخاصة فى جنوبى الجزيرة وعلى حدود العراق والشام (الغساسنة). وينتمى هؤلاء النصارى إلى الكنيسة السريانية المونوفيزية فى الشمال، وإلى النسطورية فى الشمال الشرقى وإلى نصرانية الحبشة المشوبة باليهودية فى الجنوب والغرب.

ولم تكن هناك فى الشمال دول بل كان عرب الجاهلية عبارة عن قبائل متحالفة أحيانا، ويغير بعضها على بعض أحيانا أخرى وتتحارب لأتفه الأسباب. وقد تكوَّن فى الشمال دولتان حضريتان إستقرت إحداهما على حدود الفرس (المناذرة) وكانوا حلفاء لهم. واستقرت الثانية على حدود البيزنطيين (الغساسنة) وكانوا حلفاء لهم.

كان الشعر أهم مظاهر الفكر عندهم. وقد انقسم الشعراء إلى فئات منهم **الشعراء الصعاليك**. وكان من بينهم الشنفرى؛ تأبط شراً؛ عروة بن الورد؛ ومنهم **شعراء المعلقات** وعلى رأسهم إمرؤ القيس؛ طرفة بن العبد؛ زهير بن أبى سلمى؛ لبيد بن ربيعة؛ عمرو بن كلثوم؛ الحارث بن حلزة؛ عنترة بن شداد. وكان هناك **شعراء البلاط**: علقمة الفحل؛ المتلمس؛ المثقب العبدى؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النابغة الذبيانى؛ الأعشى الأكبر؛ عدى بن زيد؛ أبو أذينة. وكان هناك كذلك **الشعراء الفرسان**: المهلهل؛ عبد يغوث؛ الحصين بن الحُمام؛ عامر بن الطفيل؛ حاتم الطائى؛ عمرو بن معدى كرب؛ دريد بن الصمة؛ عبيد بن الأبرص؛ السموأل؛ الأسود بن يعفر؛ كعب بن سعد؛ أمية بن أبى الصلت.

وقد ولد رسول الله ﷺ ٥٧٠/٥٧١م فى عام الفيل. وتوفى ٦٣٢م وجاء بعده الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى (١١هـ - ٤٠هـ/ ٦٣٢ - ٦٦١)، رضى الله عنهم.

ويمثل الجدول الآتى فترة الدولة الأموية (٤٠هـ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠م).

الأمويون فى الشام والأندلس

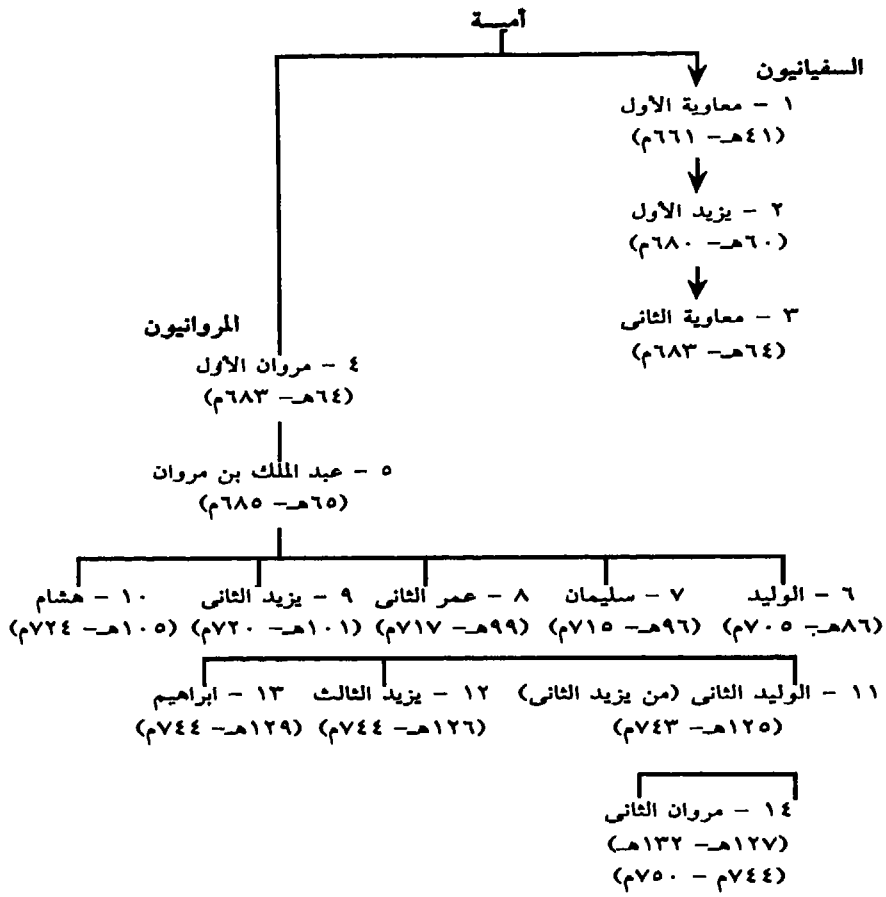

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمويون فى الأندلس

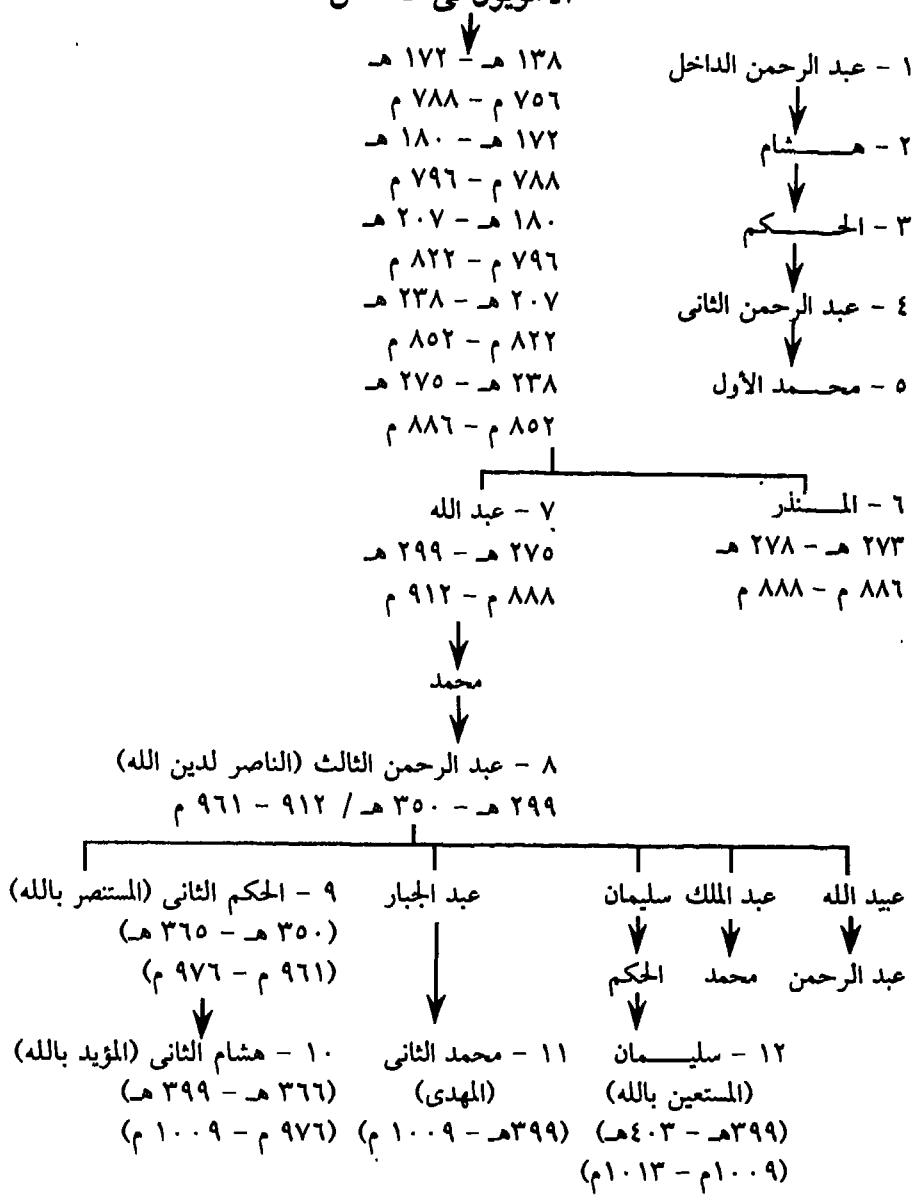

١٣ - عبد الرحمن الرابع (المرتضى) بن محمد عبد الملك (٤٠٨ هـ - ١٠١٨م)

١٤ - عبد الرحمن الخامس (المستظهر بالله) بن هشام (٤١٤هـ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤م)

١٥ - محمد الثالث (المستكفى بالله) بن عبد الرحمن بن عبيد الله (٤١٤هـ - ٤١٦هـ) / ١٠٢٣م - ١٠٢٥م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٦ - هشام الثالث (المعتد بالله) بن عبد الرحمن الرابع بن محمد بن عبد الملك (٤٢٠هـ - ٤٢٢هـ) / ١٠٢٩م - ١٠٣١م.

وبعد ذلك جاء ملوك الطوائف (١٠٣١ - ١٠٨٦) ثم المرابطون (١٠٨٦ - ١١٤٧م) ثم الموحدون (١١٤٧ - ١٢٣٥) ثم بنو نصر ١٢٣٥ - ١٤٩٢م.

أما الدولة العباسية التى قامت على أنقاض الدولة الأموية فى المشرق فإن خلفاءها يمكن تسجيلهم على النحو الآتى:-

١ - السفاح	١٣٢ هـ / ٧٥٠ م	٢ - المنصور	١٣٦ هـ / ٧٥٤ م
٣ - المهدى	١٥٨ هـ / ٧٧٥ م	٤ - الهادى	١٦٩ هـ / ٧٨٥ م
٥ - هارون الرشيد	١٧٠ هـ / ٧٨٦ م	٦ - الأمين	١٩٣ هـ / ٨٠٩ م
٧ - المأمون	١٩٨ هـ / ٨١٣ م	٨ - المعتصم	٢١٨ هـ / ٨٣٣ م
٩ - الواثق	٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م	١٠ المتوكل	٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م
١١ - المنتصر	٢٤٧ هـ / ٨٦١ م	١٢ - المستعين	٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م
١٣ - المعتز	٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م	١٤ - المهتدى	٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م
١٥ - المعتمد	٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م	١٦ - المعتضد	٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م
١٧ - المكتفى	٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م	١٨ - المقتدر	٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م
١٩ - القاهر	٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م	٢٠ - الراضى	٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م
٢١ - المتقى	٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م	٢٢ - المستكفى	٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م
٢٣ - المطيع	٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م	٢٤ - الطائع	٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م
٢٥ - القادر	٣٨١ هـ / ٩٩١ م	٢٦ - القائم	٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م
٢٧ - المقتدى	٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م	٢٨ - المستظهر	٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م
٢٩ - المسترشد	٥١٢ هـ / ١١١٨ م	٣٠ - الراشد	٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م
٣١ - المقتفى	٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م	٣٢ - المستنجد	٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م
٣٣ - المستضئ	٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م	٣٤ - الناصر	٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م
٣٥ - الظاهر	٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م	٣٦ - المستنصر	٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م
٣٧ - المستعصم	٦٤٠ - ٦٥٦ هـ		
	١٢٤٢ - ١٢٥٨ م		

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولتركيز الخلفية التى عملت فيها الكتب والمكتبات الإسلامية يصور الجدول الآتى أهم الخطوط التاريخية:

١ - النبى والدعوة

مولد النبى فى مكة ٥٧٠ / ٥٧١ م

زواج النبى من خديجة ٥٩٥ م

بدء الدعوة ٦١٢ م

معركة بدر ٢ هـ / ٦٢٤ م

معركة أحد ٣ هـ / ٦٢٥ م

معركة الخندق ٥ هـ / ٦٢٧ م

معركة مؤتة ٧ هـ / ٦٢٩ م

فتح مكة - معركة حنين ٨ هـ / ٦٣٠ م

حجة الوداع. وفاة النبى ١١ هـ / ٦٣٢ م

٢ - الدولة الإسلامية

أ - الخلفاء الراشدون ١١ - ٤٠ هـ (٦٣٢ - ٦٦١ م)

ب - الخلفاء الأمويون ٤٠ - ١٣٢ هـ (٦٦١ - ٧٥٠ م)

جـ - الخلفاء العباسيون ١٣٢ - ٦٥٦ هـ (٧٥٠ - ١٢٥٨م)

- العصر الذهبى ١٣٢ - ٢٣٢ هـ (٧٥٠ - ٨٤٧م)

- الانحطاط ونشأة الدويلات ٢٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ

والسقوط (٨٤٧ م - ١٢٥٨ م)

٣ - الأسر الحاكمة فى الدويلات الإسلامية

(عربية - تركية - فارسية - هندية) القرن ١٣ - ١٦م

*** سوريا ومصر**

الحمدانيون (حلب)	القرن العاشر الميلادى
الطولونيون (مصر)	٨٦٨ - ٩٠٥ م
الإخشيديون (مصر)	٩٣٥ - ٩٦٩ م
الفاطميون (مصر وسوريا)	٩١٠ - ١١٧١ م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأيوبيون (مصر وسوريا)	١١٧١ - ١٢٥٠ م
المماليك البحرية	١٢٥٤ - ١٣٨٢ م
المماليك البرجية	١٣٨٢ - ١٥١٧ م

*** الأمويون فى الأندلس**

الإمارة	٧٥٦ - ٩٢٩
الخلافة	٩٢٩ - ١٠٣١
ملوك الطوائف	١٠٣١ - ١٠٨٦
المرابطون	١٠٨٦ - ١١٤٧
الموجدون	١١٤٧ - ١٢٣٥
بنو نصر	١٢٣٥ - ١٤٩٢

*** المغرب**

الأدارسة (فاس)	٧٨٨ - ٩٧٤
الرستميون (تاهرت)	٧٦١ - ٩١١
الأغالبة (القيروان)	٨٠٠ - ٩٠٩
الزيريون	القرون ١٠ - ١٢
المرابطـون	القرون ١١ - ١٢
بنو حماد	١٠١٤ - ١١٥٢
الموحدون	١١٤٧ - ١٢٦٩
المرينيون	١٢٤٨ - ١٤٦٥
بنو عبد الواد	١٢٣٥ - ١٥٥٤
الوطاسيون	١٤٦٥ - ١٥٥٣

*** العراق - إيران - آسيا الوسطى**

بنو طاهر (خراسان)	٨٢٠ - ٨٧٣
الصفاريون (العراق - خراسان)	٨٧٣ - ٩٠٢
البويهيون الفرس (العراق - ايران)	٩٣٢ - ١٠٥٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السامانيون الفرس (ما وراء النهر - تركستان - خراسان)	٩٠٢ - ١٠٠٤
الغزنويون الأتراك (أفغانستان - الهند)	٩٧٨ - ١١٨٧
الغوريون الفرس (أفغانستان - الهند)	١١٤٨ - ١٢١٥
السلاجقة الأتراك (العراق -	
آسيا الصغرى - كرمان - سوريا)	١٠٣٧ - ١٣٠٠
المغول فى آسيا الوسطى.	القرن ١٣ - ١٤٠٥
إيلخانية المغول (ايران).	١٢٥٦ - ١٣٣٦
جلائر - مغول (العراق - اذربيجان)	١٣٣٩ - ١٤١١
قرة قوبونلو الترك (العراق - اذربيجان).	١٣٧٥ - ١٤٦٨
آق قوبونلو (دياربكر - تبريز).	القرن ١٤ - ١٥٠٢

* الهـــند

الغزنويون الأتراك (لاهور).	حوالى ١٠٠٠ - ١١٨٧م
الغوريون الفرس.	١١٤٨ - ١٢١٥
خلجى الأتراك (دهلى).	١٢٩٠ - ١٣٢٠
تغلق الأتراك (دهلى).	١٣٢١ - ١٤١٢
البهمانيون (الدكن).	١٣٧٤ - ١٥٢٧
خلجى (مالوه).	١٤٣٦ - ١٥٣١.

الكتابة العربية

عرف العرب قبل الإسلام الكتابة ومن الثابت تاريخياً أن ما يعرف بالكتابة العربية قد اشتقت من الكتابة النبطية خارج شبه جزيرة العرب فى القرن الثالث الميلادى ثم دخلت الكتابة إلى جزيرة العرب. وكان الأنباط عربا من قريش رحلوا إلى الشمال واستقروا وكونوا دويلة لهم فى جنوبى الشام (الأردن الآن) وكانت عاصمتهم البتراء وقد ازدهرت هذه الدويلة بحكم موقعها الجغرافى كمركز هام تلتقى فيه القوافل للتجارة، تلك القوافل الآتية من الشرق للغرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب. هؤلاء الأنباط تحضروا وتمثلوا الحضارات الأخرى التى سبقتهم وعاصرتهم فاشتقوا لأنفسهم خطاً عرف بالخط النبطى، إشتقوه من الخط الآرامى الذى كان موجوداً فى تلك المنطقة، واشتقت منه خطوط عديدة من بينها الخط النبطى. وبحكم احتكاك عرب الحجاز بالأنباط سواء بسبب صلة الرحم أو التجارة، إشتق العرب الخط الذى أطلقنا عليه بعد ذلك اسم الخط العربى من هذا الخط النبطى. ولكن بقى الخط الجديد خارج حدود جزيرة العرب يستخدم فقط هناك فى الشام. وبصرف النظر عن الأساطير التى حاقت بانتقال ذلك الخط من الشام إلى الحجاز فإن البحث المتأنى يكشف عن أن ذلك الخط قد اتخذ سبيلين أو أحدهما إلى جزيرة العرب فى الشمال:

الأول: البتراء ← الحيرة والأنبار ← دومة الجندل ← المدينة ← مكة.

الثانى: البتراء ← العلا ← مكة ← المدينة ← الطائف.

والمشكلة فى تحديد الطريق الذى سلكه الخط إلى الحجاز تتأتى من أن الكتابات بهذا الخط قبل الإسلام نادرة جدا بحيث يجعل متابعة انتقال هذا الخط مسألة صعبة فأقدم نقش يدلنا على خروج الحرف العربى من بطن الحرف النبطى هو نقش أم الجمال الأول وهو شاهد قبر مكتوب باللغتين اليونانية والآرامية ويعود تاريخه إلى ٢٥٠م أو ٢٧٠م فى قول آخر. والجزء النبطى الآرامى منه يمثل آخر صورة للخط النبطى عند انتقاله لتدوين العربية. وهذا النقش عثر عليه فى موضع يعرف بأم الجمال من أعمال حوران.

ويأتى بعد هذا النقش نقش آخر هو نقش النمارة، وهو الآخر شاهد قبر عثر عليه على قبر أحد ملوك الحيرة، وقد وجد فى جنوب شرقى دمشق واسم هذا الملك إمرؤ القيس وقد كتب هذا النقش بحروف مربوطة وبلغة عربية سليمة ويعود تاريخه إلى سنة ٣٢٨م، ويعد هذا العمل حتى الآن أقدم نص مكتوب باللغة العربية الشمالية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يحالفنا الحظ مرة ثالثة فنعثر على نقش زبد الذى وجد فى جنوب شرقى حلب وقد كتب بثلاث لغات: اليونانية - السريانية - العربية، ويرجع تاريخه إلى ٥١٢م. وبعده يأتى نقش أسيس (عُزَيز) الذى وجد جنوبى دمشق فى جبل يقال له الآن عُزيز ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٢٨م وقد خلفه لنا أحد أتباع الملك الغسانى الحارث بن جبلة وهذا التابع اسمه إبراهيم بن المغيرة الأوسى. وهذان النقشان أيضا بلغة عربية سليمة.

يأتى بعد ذلك نقش حران ذو اللغتين اليونانية والعربية والذى يعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨م وقد عثر عليه أيضا فى جبل الدروز جنوبى دمشق، وكان منقوشاً على حجر يعلو باب كنيسة حران اللجا. وخطه أقرب إلى الخط العربى من أى نقش آخر.

وأخيرا نقش أم الجمال الثانى الذى يرجع إلى القرن السادس الميلادى. وهو آخر النقوش التى عثرنا عليها وتؤكد خروج الخط العربى من بطن الخط النبطى، خارج شبه جزيرة العرب. وأن هذا الإشتقاق قد بدأ منذ منتصف القرن الثالث الميلادى واكتمل مع السادس الميلادى. ولكن دخول هذا الخط إلى الحجاز لابد وأن يكون قد تم فى القرن الخامس الميلادى أو على الأكثر بداية السادس؛ لأن الرسول الكريم عندما بعث، كان فى مكة والمدينة من يكتب بهذا الخط ويقرأ به.

وبينما عرب الشمال دخل إليهم هذا الخط فى نحو القرن الخامس أو السادس الميلادى كان عرب الجنوب قد عرفوا خطاً آخر فى وقت مبكر فى القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد أطلق عليه اسم خط المسند أو الكتابة العربية الجنوبية تمييزا لها عن الكتابة العربية الشمالية التى أتينا عليها. وأصل خط المسند هو اليمن وما حولها ولكنه عرف فى شمالى شبه الجزيرة العربية وغربيها وجنوبى سوريا؛ ذلك أن أهل اليمن (معين وسبأ وحمير) كانوا أهل هجرة وارتحال ومن ثم هاجر خط المسند معهم. ونستطيع أن نميز من خط المسند ثلاث مجموعات خطية: ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ - مجموعة خطوط المسند الجنوبية وهى الأصل والأساس.

ب - مجموعة خطوط المسند الشمالية وهى التى هاجرت مع اليمنيين إلى الشمال.

جـ - مجموعة خطوط المسند الحبشية (الاثيوبية) وهى مشتقة من اليمن بحكم الصلات العميقة التى كانت قائمة بين اليمن واثيوبيا.

أ - وتضم مجموعة الخطوط الجنوبية: الخطوط المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية والحضرمية والأوسانية. وقد حفلت شبه جزيرة العرب بآلاف النقوش والآثار التى تحمل تلك الخطوط التى تتميز إلى حد ما عن خطوط المسند الشمالية. ورغم أن تلك النقوش تمتد من القرن التاسع قبل الميلاد إلى السابع الميلادى، إلا أن نشأة الخط المسند نفسه كما أشرت ترجع إلى عدة قرون قبل ذلك التاريخ وهى أقدم بعشرين قرنا تقريباً من الخط العربى الشمالى.

وتتميز خطوط المسند الجنوبية بشكلها العمودى المنتصب والمحدد. وتبدو للناظر متوازنة منمقة ومزخرفة والكلمات تكتب بحروف منفصلة متفرقة وتتجه من اليمين إلى اليسار فى أغلب الأحوال وتعتمد على الصوامت ولم تعرف الحركات والحروف اللينة. وقد جرت عادة الكتاب أن يفصلوا بين الكلمات بخطوط عمودية.

ومما لا شك فيه أن مجموعة خطوط المسند الشمالية قد خرجت من بطن تلك الجنوبية ويميل الباحثون إلى الإعتقاد بأنها قد اشتقت أو تطورت من المسند الحميرى دون سائر الخطوط الجنوبية، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما حتى الآن فقط إلى أن تأتى أدلة جديدة.

ب - وتضم مجموعة خطوط المسند الشمالية: الخط اللحيانى والخط الثمودي والخط الصفوى -وقد انتشر الخط اللحيانى فى منطقة العلا وما حولها فى شمالى الحجاز وقد انبثق هذا الخط من المسند الحميرى بفعل الهجرات التى حدثت من جنوبى الجزيرة إلى شمالها الغربى فى القرن التاسع قبل الميلاد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كشف عن نقوش كثيرة كتبت بهذا الخط، ويرجع قسم كبير منها إلى الفترة من ٧٠٠ ق.م - ٤٠٠ ق.م. وتعرف تلك الكتابات بالنقوش الديدانية لأن قسما كبيرا منها يرجع إلى عهد ديدان. بيد أن أغلب نقوش هذا الخط ترجع إلى الفترة من ٤٠٠ ق.م - ٢٠٠ ق.م. وقد سمى هذا الخط باللحيانى نسبة إلى إحدى القبائل العربية البائدة التى جاورت المعينيين فى شمال غربى الجزيرة وورثتهم ووقفت فى وجه التوسع النبطى. وقد بدأت عملية كشف هذه النقوش سنة ١٨٨٩م.

أما الخط الثمودى. فينسب إلى قبيلة ثمود البائدة لورود إسمها وتكراره فى تلك الكتابة. وقد كشف عن ألفى نقش بهذا الخط فى مناطق مختلفة متفرقة تغطى رقعة جغرافية واسعة ما بين نجد والحجاز وسيناء وحوران والصفاة (إلى الشرق من دمشق). وهذه النقوش غير محددة التواريخ على وجه اليقين ولكن منها ما كتب بخط ثمودى قديم ومنها ما كتب بخط ثمودى جديد وهى جميعا تغطى نحو عشرة قرون: من القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادى. ومن المحتمل جدا أن يكون هذا الخط قد ولّد من المسند فى القرن السادس قبل الميلاد.

والخط الصفوى ينسب إلى منطقة الصفاة فى حوران أيضا وقد اكتشف بهذا الخط ما يزيد على ألفين وخمسمائة نقش فى الصفاة وبادية الشام والفرات وترجع إلى الفترة من القرن الأول الميلادى وحتى الرابع الميلادى. وهذا الخط شديد الشبه بالثمودى، ويرجح بعض علماء الكتابة أنه قد تحدَّر من الثمودى وليس من المسند مباشرة.

جـ - والخط الاثيوبى أو الذى يسمى أحيانا الجعزى فقد اشتق من المسند بحكم الصلات العميقة والتأثير الإيجابى من جانب اليمن العربى على ذلك الجزء من إفريقيا. وترجع الكتابة الاثيوبية إلى القرن الثالث الميلادى وقد ازدهرت أيما ازدهار فى فترة مملكة اكسوم. ولقد وصلتنا آثار كثيرة تحمل تلك الكتابة. والخط الاثيوبى القديم يشبه إلى أبعد حد المسند اليمنى من حيث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل كأنه هو هو، كما كان يركز على الصوامت دون حركات. إلا أنه مع القرن الخامس الميلادى تطورت الكتابة الاثيوبية فدخلتها الحركات والتشكيل واستمر الأمر كذلك حتى الآن مع بقاء الشكل العام للحروف كما هو. ويطلق على هذه الكتابة اليوم إسم الكتابة الأمهرية بعد إضافة حروف جديدة. لقد أضافت الكتابة الحبشية المطورة، الحركات إلى الحروف فصارت كما لو كانت كتابة مقطعية، وربما يرجع ذلك إلى تأثر الكتابة الحبشية بالكتابة اليونانية إبان التبشير المسيحى فى اثيوبيا.

تعايش الخطان العربى الشمالى والعربى الجنوبى فترة محدودة من الزمن لا أعتقد أنها تزيد على ثلاثة قرون وربما تقل، وذلك أن الاسلام عندما انتشر فى شبه جزيرة العرب حمل معه بالضرورة الخط العربى الشمالى الذى كتب به القرآن وكتبت به رسائل الرسول الكريم وكان من الضرورى أن ينتشر هذا الخط وأن يختفى ولو بالتدريج الخط العربى الجنوبى وهو ما حدث بالفعل حيث لا نعثر على أثار بالخط المسند بعد القرن السابع الميلادى.

* * *

ويمكننا الآن أن نؤكد مطمئنين على أن الخط العربى الشمالى قد تكون فى الفترة ما بين القرنين الثالث والسادس للميلاد. وأنه دخل الحيرة والحجاز فى نهاية الخامس أو أوائل السادس لأنه كان معروفا فى منتصف السادس، ذلك أنه الرسول الكريم عندما بعث كان هناك فى مكة والمدينة بل والطائف أيضا من يكتب بهذا الخط. وقد استخدم الرسول ﷺ بعضهم فى كتابة القرآن الكريم ممن عرفوا بكتاب الوحى.

إذن عرفت الكتابة فى الحجاز قبل الإسلام يدلنا على ذلك استخدام الرسول لها فى كتابة الوحى كما يدلنا على ذلك قرائن أخرى عقلية ونقلية.

فقد كان أهل الحجاز، أصحاب تجارة وكان التجار يحتاجون إلى الكتابة لتقييد معاملاتهم التجارية وحساباتهم، كما كانت الكتابة ضرورية لتقييد العهود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمواثيق الخاصة بتأمين طرق القوافل التجارية وحمايتها والجبايات التى تجبى مقابل ذلك. كما أن الحجازيين كانوا أهل حروب وكانت نتائج تلك الحروب عادة ما تتمخض عن اتفاقيات وتحالفات وكان من المهم تسجيل تلك الإتفاقيات والتحالفات.

كذلك حرص العرب الحجازيون أيضا على تسجيل الأحداث الهامة التى كان لها تأثير فى حياة الناس وحتى لا تتعرض للنسيان فى زحمة الحياة. كما عرف العرب نوعا من الرسائل المتبادلة بينهم، ولما كانت تجارة الرقيق شائعة بينهم فإن نوعاً من تسجيل تلك المعاملات عرف عندهم باسم «مكاتبات العبيد». وكانت مكاتبة العبيد تتضمن تحرير سند ملكية العبد كما كانت تتضمن صكوك إعطائهم حريتهم وعتقهم بعد تسديدهم ثمن حريتهم على أقساط من قبلهم.

وعرف العرب الشماليون تدوين بعض الأشعار والأخبار قبل الإسلام يدلنا على ذلك ما تواتر من أنهم كتبوا أشهر القصائد الشعرية على القباطى المصرية بماء الذهب وعلقوها على أستار الكعبة فيما عرف بالمعلقات. والأغلب أنها سبع قصائد من أشهر وأثمن الشعر الجاهلى، جعلت فى الطبقة الأولى من جمهرة أشعار العرب؛ وأصحابها فى الأعم الأغلب هم: إمرؤ القيس؛ طرفة بن العبد؛ زهير بن أبى سلمى؛ لبيد بن ربيعة؛ عمرو بن كلثوم؛ الحارث بن حلزة؛ عنترة بن شداد. وقد قيل فى أسباب تسميتها بالمعلقات آراء كثيرة لعل أقواها أنها كانت معلقة على ستر الكعبة أو أن النساء كن يعلقنها على صدورهن، وأيا كان سبب التسمية فقد كانت مكتوبة على رق أو قباطى بالخط الذى عرف فيما بعد بالخط العربى.

لم تقتصر معرفة الكتابة قبل الإسلام على الحواضر فى شبه جزيرة العرب الشمالية وانما عرفت أيضا فى البادية فتذكر لنا المصادر العربية القديمة أسماء بعض البدو الذين عرفوا الكتابة بالخط العربى قبيل الإسلام ومن بينهم: اكثم بن صيفى، حكيم تميم وخطيبها المفوه وابن أخيه حنظلة بن الربيع، والمرقش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأكبر ولبيد بن ربيعة. وكثيرا ما كشف شعر العرب الجاهلى عن معرفتهم الكتابة فيقول المرقش الأكبر:

الدار قفر والرسوم كما ** رقش فى ظهر الأديم القلم

ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى:

لابنة حطان بن عوف منازل ** كما رقش العنوان فى الرق كاتب

كذلك وردت نصوص متفرقة فى المصادر العربية القديمة تدل عرضا على معرفة العرب فى الجاهلية للخط العربى الشمالى. ورغم أن بعض الروايات التى كتبت عن انتقال الخط من الشام إلى جزيرة العرب قد شابها الخلط والخيال أحيانا إلا أنها تنطوى على حقيقة أن العرب قد عرفوا الخط قبل الإسلام أيا كان الذى نقله من الشام وأدخله إلى جزيرة العرب.

* * *

إذن بعث الرسول الكريم ﷺ فى مكة والكتابة العربية معروفة فيها. وقد حددت المصادر عدد من يعرفون الكتابة والقراءة قبيل البعثة المحمدية بأنهم سبعة عشر شخصا فى مكة وعشر أشخاص فى المدينة. وفى قناعتى أن الأرقام فى هذا الصدد لا معنى لها بل المهم كل المهم هو الدلالة، هو المؤشر فربما كانت الأرقام أعلى أو أقل ولكنها على أية حال تكشف عن وجود الكتابة قبيل الإسلام. والبلاذرى يترجم لسبعة عشر شخصاً من قريش يعرفون الكتابة والقراءة العربية من بينهم عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفّان ويزيد بن أبى سفيان وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة عامر بن الجراح وغيرهم من الرجال. كذلك كان هناك نساء تجدن الكتابة والقراءة العربية من بينهن الشفاء بنت عبد الله العدوية التى علمت السيدة حفصة أم المؤمنين الكتابة والقراءة بعد البعثة المحمدية؛ وعائشة بنت سعد التى تعلمت الكتابة عن أبيها. وقيل أن أم سلمة وعائشة زوجتا الرسول كانتا تقرآن ولا تكتبان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قيل أن الكتابة العربية دخلت يثرب (المدينة) قبل أن تدخل مكة، وكان عدد من يكتبون ويقرأون فيها أكثر من عددهم فى مكة وقدِّر ببضعة عشرات ولهذا قلت من قبل أن العدد لايهم إنما المهم هو المؤشر. وكانت قبائل الأوس والخزرج من أشهر القبائل فى يثرب فى مجال الكتابة والقراءة. وقد ورد فى الأثر أن بعض اليهود كانوا قد افتتحوا الكتاتيب فى المدينة لتعليم الصبية الكتابة. ودخلت الكتابة أيضا إلى الطائف قبيل الإسلام وكانت قبيلة ثقيف من أشهر القبائل العربية هناك فى مجال الكتابة.

والحقيقة التى لا مراء فيها ولا جدال أن الكتابة العربية كانت من دعائم نشر الاسلام وحفظ مبادئه. كما كان الإسلام فى نفس الوقت من أخطر دعائم نشر الكتابة واللغة العربية خارج وداخل جزيرة العرب ولولاه لاندثرت الكتابة العربية واللغة العربية كما اندثرت لغات سامية وخطوط سامية كثيرة.

ولقد وجد فى عهد الرسول الكريم أسباب أخرى لدعم دور الكتابة العربية والعمل على نشرها فقد نص القرآن الكريم على ضرورة الكتابة فى حالة التداين فقال عز من قائل **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين لأجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾**. كذلك كان لابد من تسجيل وإثبات الزكاة التى تجمع والمغانم التى يغنمها المسلمون من الكفار.

وقد ألمح الإخباريون العرب إلى عدد من الكتاب الذين كتبوا للرسول الكريم ﷺ، سواء كتاب الوحى أو غيره ومن بينهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم.

فى عهد الرسول ﷺ قام بإرسال عدد من الرسائل إلى ملوك وأباطرة وأمراء الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام. من بين تلك الرسائل التى وصلنا خبرها.

١ - رسالته إلى قيصر ملك الروم.

٢ - رسالته إلى كسرى ملك الفرس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ - رسالته إلى النجاشى ملك الحبشة.

٤ - رسالته إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر.

٥ - رسالته إلى جيفر وعبد إبنى الجلندى ملكى عمان.

٦ - رسالته إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.

٧ - رسالته إلى الحارث بن أبى شمَّر الغسانى ملك تخوم الشام.

٨ - رسالته إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن.

٩ - رسالته إلى ثمامة بن أثال وهوذا بن على ملكى اليمامة.

هذه الرسائل وصلتنا نصاً ولم تصلنا أى منها خطاً. ولكنها جميعا ترجع إلى عصر النبوة. إلى جانب تلك الرسائل النبوية وصلتنا بعض النقوش التى يمكن أن تعود أيضا إلى العصر النبوى ويؤرخها البعض بسنة خمس للهجرة. هذه النقوش محفورة على الصخر فى جزء من جبل سلع بالقرب من المدينة المنورة. وقد قرئ منها ثلاثة نصوص بينما كثير منها لم يقرأ بسبب عوامل التعرية التى أصابت حروفها وطمست معالمها حيث أن هذه العوامل قد فعلت فعلها فى السفح الغربى للجبل مكان النقوش.

وقد وصلتنا من عصر الخلافة الراشدة آثار مكتوبة يقينية بإجماع الآراء، أقدمها يرجع إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ (٦٤٠م) وآخرها يرجع إلى زمن على بن أبى طالب سنة ٤٠هـ (٦٦٠م) وهذه الآثار متنوعة: برديات، نقوش ، مسكوكات. والنقوش العائدة إلى فترة الخلافة الراشدة هى أساساً شواهد قبور. إلى جانب تلك النقوش وصلتنا من العهد الراشدى برديات عربية. وقد وصلنا من مصر برديتان كلتاهما مؤرخة بسنة ٢٢هـ أى بعد فتح مصر بسنة واحدة أولاهما محدودة الأهمية فهى قصيرة النص وحتى هذا النص القصير مشوه وناقص والكلمات القليلة المقروءة فردية لا تشكل جملة مفهومة. وأهم الكلمات المقروءة تاريخ الكتابة وهو سنة ٢٢هـ. والبردية الثانية طويلة وكاملة وهى مكتوبة باللغتين العربية واليونانية والنص اليونانى ترجمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للنص العربى. والبردية عبارة عن إيصال بتسلم خمس وستين شاة. وإلى جانب البرديات وصلتنا مسكوكات كثيرة مكتوبة بالعربية.

لقد استخدم العرب فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول نوعين من الخطوط: **الخط الكوفى** نسبة إلى مدينة الكوفة. وقد استخدم هذا الخط فى الآثار وفى الأغراض التذكارية وفى سك النقود ونقوش الحجارة والمعادن. وفى المصاحف الكبيرة حتى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). **والخط النسخى الحجازى** وهو أقدم من الكوفى. ويشير كامل البابا إلى خط ثالث أطلق عليه اسم خط التحرير وقال بأن هذا الخط هو خط لين مدور أطلق عليه إبن النديم الخط المدنى ثم سمى بعد ذلك بالخط الدارج وقد استخدم فى تحرير العقود والمراسلات وكل ما يقضى السرعة فى التدوين واليد المسرعة لا تستطيع الحفاظ على الخطوط والزوايا كما حال الكوفى. ويبدو أنه الخط المستخدم فى برديتى سنة ٢٢هـ؛ وبردية أخرى وصلتنا وترجع إلى سنة ٩٠هـ.

ويبدو أنه طوال القرن الأول الهجرى وربما ردحاً طويلاً من القرن الثانى الهجرى لم يكن هناك فى العربية كتاب كامل بالمعنى المفهوم للكتب سوى **القرآن الكريم** مدون فى صحائف عملاً بقول رسول الله ﷺ «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ومن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه» ويبدو أن ذلك قد انسحب إلى الكتب الأخرى فلم يدون منها شئ لفترة طويلة واقتصر الأمر على النقوش والبرديات والمسكوكات.

ولما كانت الكتابة العربية قد اشتقت أساساً من كتابة لا إعجام فيها فقد كان من الطبيعى أن تأتى هى الأخرى خلوا من الإعجام - أى النقط والشكل - وقد استمرت الكتابة العربية منذ اشتقت فى منتصف القرن الثالث الميلادى وحتى القرن السابع الميلادى فى غير حاجة إلى إعجام، وذلك لأن الكتابات كانت قليلة عموماً وكان عدد القراء محدوداً وكانوا يعتمدون على السياق فى فهم ما يقرأون ولأن العرب كانوا يسيطرون على اللغة العربية سيطرة تامة فإنهم لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكونوا يلحنون فيها. وكان بإمكانهم تمييز الحروف ونطقها النطق الصحيح وإعراب الكلمات الإعراب السليم. إلا أن الوضع قد انقلب تماما بعد الثورة العارمة التى جاء بها الإسلام وانتشاره شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً فى نهاية القرن السابع الميلادى. دخل الموالى فى الاسلام وأخذوا يتعلمون اللغة العربية وبدأ خطر حقيقى على اللغة العربية والكتابة العربية. وأخذ هذا الخطر يهدد القرآن الكريم نفسه إذ كان طبيعياً أن يلحنوا فى لغة غير لغتهم تعلموها لغرض محدد هو قراءة القرآن والتفقه فيه وليس لاستخدامها فى الحياة اليومية. ولقد أدرك العرب المسلمون فداحة ذلك الخطر وكان لابد من إدخال إصلاحات على الخط الذى يكتبون به لغتهم المعرضة للخطر.

وبدأ الاصلاح بالشكل أولاً ثم تبعه النقط. أما علامات الترقيم فقد جاءت متأخرة جدا فى مرحلة تالية. والمقصود بالشكل وضع علامات على الحروف لنطقها النطق السليم بالفتح أو الكسر أو الضم أو التنوين ومن ثم فهمها الفهم السليم، كما أن هذه العلامات تساعد على الإعراب السليم للكلمات. وقد بدأ الشكل بالنقط أولاً ثم تحول فيما بعد إلى الحركات المألوفة لنا الآن. ويقال أن أول من وضع الشكل هو أبو الأسود الدؤلى (توفى سنة ٦٧هـ) وأخذ عنه يحيى بن يعمر العدوانى (المتوفى ١٢٩هـ)، ونصر بن عاصم الليثى (المتوفى سنة ٨٩ أو ٩٠هـ).

ولما كانت قوالب الحروف تتشابه رسماً وتختلف نطقا كما هو الحال فى الباء والتاء والثاء والدال والذال... فالحروف (ب) قد تقرأ بنت، ثبت، نبت، بيت، لذا كان من السهل على غير العربى أن يقرأها قراءة خاطئة ولذلك كان من الضرورى إدخال اصلاح آخر على الخط العربى وذلك بتمييز الحروف المتشابهة قالباً المختلفة صوتاً عن طريق ما عرف بالنقط. وحتى لا يختلط النقط للشكل والنقط لتمييز الحروف استبدلت نقط الشكل بالحركات (الألف، الواو، الياء وتضعيفها للتنوين) واستقرت النقط لتمييز الحروف. وكان لابد بعد ذلك من إعادة ترتيب الحروف بدلاً من الترتيب الأبجدى إلى الترتيب الهجائى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقال أن النقط بدأ على استحياء شديد فى القرن الأول الهجرى ثم توسع فى القرن الثانى وأصبح ظاهرة ملازمة للكتابة العربية فى القرن الثالث الهجرى. وكانت مسألة الإعجام برمتها تتوقف على الكاتب نفسه ووجهة نظره فيمن يكتب لهم أو إليهم. ومن اليقينى أن القرآن الكريم كان أول كتاب يدخله الشكل والنقط لأسباب جوهرية.

ولم تعرف الكتابة العربية من علامات الترقيم طوال عصر الخطاطة سوى النقطة للفصل بين الجمل وكان القرآن هو أول كتاب تستخدم فيه النقطة للفصل بين الآيات. وعنه أخذت الكتب العادية. وكانت النقطة فى بداية الأمر عبارة عن معين أو دائرة أو دائرتين متماستين. أما نظام الترقيم الكامل فلم يعرف إلا فى بداية القرن العشرين عندما أدخله العلامة أحمد زكى شيخ العروبة سنة ١٩١٢ وأقرته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٢م وعممته فى الكتب الدراسية وعنها أخذته كل الدول العربية الأخرى.

لم تعرف الكتابة العربية كما رأينا سوى ثلاثة خطوط أو أقلام أو أشكال - كما ألمحنا سابقا - فى القرن الأول الهجرى؛ إلا أنه اعتباراً من القرن الثانى الهجرى ومع تعدد أغراض الكتابة والتدوين واتخاذ الخط العربى عنصراً زخرفيا جماليا تفرعت الكتابة العربية إلى خطوط وأقلام وصلتنا تسميات نحو مائة منها، بل إنه داخل الخط الواحد نصادف عدة أشكال فالكوفى مثلاً نجد منه الكوفى الهندسى والكوفى المورق والكوفى المزهر...

وفى نهاية القرن العشرين استجابت الكتابة العربية بعد تردد بسيط لمطالب الحاسب الآلى، كما استجاب الحاسب الآلى لخصائصها وأقلامها المتعددة. ولم يقف عند حد الخط النسخى المستخدم فى المطابع بل تخطاه إلى عدة خطوط وأقلام حسب الحاجة وحسب البرنامج المعد.

الأرقام عند العرب

على الرغم من أن العرب قد عرفوا الكتابة كما رأينا قبل الإسلام فى شمالى الجزيرة العربية فى مكة والمدينة والطائف، وأن الإسلام حمل هذه الكتابة معه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما انتشر فى سائر أنحاء شبه الجزيرة وحملها معه إلى الشام والعراق ومصر وشمالى إفريقيا، رغم هذا فإن العرب لم يعرفوا الأرقام بأسلوبها الرمزى إلا فى القرن الثالث الهجرى، أى بعد انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية بقرنين على الأقل، مما يوحى بأنهم قد أخذوها من أحد الشعوب التى فتحوها بعد الاسلام؛ ولم يخترعوها اختراعاً وربما يكونون قد طوروها أو أدخلوا عليها نوعاً من التعديلات أو التحويرات.

وفى العصر الجاهلى كان العرب يعبرون عن الأرقام بكلماتها مثل واحد، اثنان وعشرون، ثلاثة وسبعون، مائة، خمس وعشرون وثلاثمائة، ألف، ألف ألف (للمليون) وربما استمر ذلك خلال القرن الأول للهجرة، وقد ظهر إلى جانب التعبير اللفظى عن الأرقام، التعبير عن الأرقام بالحروف، حيث أعطى لكل حرف قيمة عددية معينة على النحو الآتى بالترتيب الأبجدى للحروف وليس الترتيب الهجائى الذى لم يظهر إلا فى القرن الثانى الهجرى على النحو الذى أتينا عليه فيما سبق:ـ

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩

ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠

ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠

غ
١٠٠٠

وعندما كانوا يريدون كتابة رقم كبير كانوا يرصون الحروف الدالة على كل رقم بجوار بعضها البعض مثلا رقم: ثلاث وخمسون وسبعمائة يكتب على النحو الآتى:

(جنذ) حيث ٣ هى ج، ٥٠ هى ن، ٧٠٠ هى ذ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما استخدم الشعراء والمؤرخون هذه الطريقة فى كتابة الأرقام لتأريخ الأحداث والميلاد والوفاة وبناء المنشآت والمساجد والقصور والقبور وأطلق على هذا الأسلوب فى كتابة الأرقام اصطلاح (حساب الجمَّل) وعلى سبيل المثال نذكر بيت الشعر الآتى الذى قاله أحد الشعراء تأريخاً لحرق حاكم ظالم عاش فى عصر المماليك، أمعن فى ظلمه واستبداده فأقدم الشعب على حرقه حياً:

حَرْقُه بالنار نور ** وهو فى التاريخ: ظلمة

ويكون التاريخ الذى وقع فيه الحادث هو ٩٧٥هـ (٩٠٠ظ + ٣٠ل + ٤٠م + ٥هـ) مع ملاحظة أن التاء المربوطة تحسب هاءً.

ومن الواضح أن حساب الجمَّل هذا لم يكن يصلح إلا فى الأحوال التى تتطلب تسجيل الأرقام فقط بينما لا يصلح أبدا فى العمليات الحسابية مثل الجمع أو الطرح أو القسمة أو الضرب وبالتالى كان على العرب بعد الثورة الاسلامية العلمية العظيمة التى جاء بها الإسلام أن يجدوا طريقة أخرى فى الأرقام تستخدم فى العمليات المختلفة الحسابية. وفعلاً وجدنا فى القرن الثالث الهجرى - وربما كان ذلك دون أن يصلنا، فى نهاية القرن الثانى - عند العرب نوعين من الرموز للتعبير عن الأرقام ولم يقل لنا العرب أنفسهم من أين أتوا بهما هل اخترعوهما، هل اقتبسوهما، هل اخترعوا أحدهما وطوروا واحداً من الآخر؟ وهذان الرمزان ربما نجدهما مستخدمين فى الكتاب الواحد فى آن واحد. وهذان الرمزان هما:

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	٠
1	2	3	4	5	6	7	8	9	0

وقد أطلق العرب على الثانى اسم أرقام الغبار أو أرقام التخت، ربما لتمييزه عن الأول ودلالة على أنه جاء بعده. وربما يكون العرب قد قالوا لنا من أين أتوا بهذه الرموز الرقمية ولكن احترقت أقوالهم مع احتراق الكتب الإسلامية فى القرون المتعاقبة ومن ثم فإننا إزاء هذه الأرقام أمام ثلاثة إحتمالات لا رابع لها:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ - أن كلا الترقيمين غير عربى وأن العرب أخذوهما من الشعوب التى فتحوها أو اختلطوا بها بعد الإسلام كما أخذوا علوماً كثيرة بعد الفتح ويعضد ذلك أن الأرقام بهذه الكيفية لم تظهر عندهم كما ظهرت الكتابة قبل الإسلام بل تأخرت إلى القرن الثالث الإسلامى. ويميل الباحثون إلى الهند كمصدر لتلك الأرقام.

ب - أن كلا الترقيمين عربى، إخترعهما العرب وأن أحدهما تطور عن الآخر وكانت لكل منهما استخداماته الخاصة بنفس الأسلوب الذى تعددت به الخطوط المشتقة من الكتابة العربية.

ج - أن أحد الترقيمين وهو الأول أجنبى صرف دخل إلى العالم العربى بعد الفتح وأن الآخر وهو الثانى (الغبار - التخت) قد تطور عنه أو اخترعه العرب اختراعا وارادوا تمييزه عن المستورد فسموه بهذا الاسم.

وسوف أحاول اختبار كل احتمال من هذه الاحتمالات الثلاثة.

ذهب بعض الباحثين إلى إمكانية أن يكون العرب قد أخذوا الترقيم بشكليه السابقين عن الهنود. وتقول المصادر فى هذا الصدد أن أول اتصال للعرب مع الأرقام الهندية كان سنة ٧٧٣م (١٥٦هـ) وكان ذلك فى بغداد زمن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور حين حضر إليها فلكى هندى يدعى كانكا ومعه كتاب (سند هند) وهو يبحث فى الرياضيات والفلك وكانت تلك الأرقام مستخدمة فيه. وكان الفلكى العربى محمد بن إبراهيم الفزارى قد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ومن ثم اضطر إلى استخدام تلك الرموز الرقمية بشكليها. ثم قام بوضع كتاب آخر فى الموضوع عرف بعنوان (سند هند كبير) إذ يبدو أنه قد توسع فيه توسعاً عظيماً. ويستنتج الباحثون من ذلك أن يكون الفزارى من هذا المنطلق هو أول من أدخل الأرقام الهندية إلى العالم العربى. ويبدو إن كانت هذه الرواية صحيحة أنه لم يستخدمها بقية القرن الثانى الهجرى سواه ولم تنتشر انتشاراً يجعل منها ظاهرة وقد ساعد على عدم انتشارها أن التدوين كان فى خطواته الأولى أنذاك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقال أن أقدم إشارة لأرقام الهند جاءت فى نص لراهب سريانى كان فى دير قنسرين يدعى ساويرس سيبخت ففى كتاب له وضعه سنة ٦٢٢م. يبدى الكاتب عجبه لأن الناس يحفلون ويهللون فقط لكل ما هو رومى كأن ليس من شئ حسن عند غير الروم «مع أن الهنود على سبيل المثال يستطيعون بتسعة رموز فقط أن يكتبوا أى عدد كان» بيد أن هذا الراهب لا يسجل تلك الإشارات أو الرموز كأنها كانت شيئاً معتاداً فى ذلك القرن بدليل أنها وصلت إليه فى تلك المنطقة البعيدة عن الهند.

ويبدو أن تلك الآراء كانت مجرد إرهاصات لدخول الأرقام الهندية إلى العالم العربى إذ يعتقد رغم ذلك أن الخوارزمى هو أول من وضع كتابا فى الحساب الهندى ولعله أول كتاب بالعربية على الاطلاق فى هذا العلم؛ إلا أن هذا الكتاب لم يصلنا. وتوالت من بعد الخوارزمى الكتب العربية فى الحساب الهندى. وأول ما وصلنا منها كتاب (الفصول فى الحساب الهندى لأحمد بن إبراهيم الإقليدسى وقد ألفه سنة ٣٤١هـ. فى دمشق أى فى القرن العاشر الميلادى. ومن بين تلك الكتب أيضا (كتاب أصول حساب الهند) لمؤلفه كوشيار بن لبان الجيلى، وكتاب (التكملة فى الحساب) لعبد القاهر بن طاهر البغدادى.

والبيرونى نفسه يذكر أنه كان فى الهند عدة أشكال للأرقام «وأننا أخذنا عن الهنود أحسن ما عندهم».

ويشير الإقليدسى إلى الشكل الثانى للأرقام الذى أخذه العرب أيضا عن الهنود وهو ما أطلق عليه أرقام الغبار أو التخت. فيذكر أن الحساب الهندى عرف فى العالم الإسلامى ومعه التخت (اللوح) والرمل. ويقال أن هذا الشكل شاع بين التجار فى الأسواق حيث ينثر الرمل على التخت ثم تتم العمليات الحسابية على الرُقم بالاصبع أو بقلم من بوص. كما يقال أنه شاع بين الطبقات الدنيا لارتفاع أسعار الورق والحبر والأقلام. ويتذكر الكبار منا الذين تعلموا فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاتيب لوح الإردوار الذى كان يكتب عليه بنوع من الطباشير وهو امتداد لتخت الغبار هذا. والسبورة الموجودة فى أيامنا هذه ما هى إلا شكل موسع لهذا اللوح.

ومن واقع تلك النصوص فقط يمكن القول بأن الشكلين من أشكال الأرقام هذه عرفت فى الهند وأن العرب أخذوهما فى وقت ما من الهنود بين النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة.

أما أصحاب الإحتمال الثانى الذى يقول بأن كلا الترقيمين عربى فإنهم يبنون رأيهم على أساس أن الهند عندما فتحها العرب واتصلوا بأهلها كانت تعيش فى الألف المظلمة ولم يكن لديها علم ولا فن ولا أدب تعطيه للعرب على عكس ما كان لدى اليونان والرومان والمصريين وبالتالى لا يمكن أن يكون العرب قد أخذوا تلك الأرقام من الهند. يؤكد ذلك أيضا أننا لا نجد فى الكتابات السنسكريتية السابقة على الكتب العربية شيئاً من تلك الأرقام الهندية أو الغبارية. وأن أقدم كتاب هندى يحتوى على تلك الأرقام يرجع إلى سنة ٨٧٣م، وهو معاصر أو لاحق لأقدم الكتب العربية التى تشتمل على تلك الأرقام.

وبعض الحجج يأتى من مؤلفين غربيين ولا يمكن إتهامهم بموالاة العرب ومعاداة الهند، ومن بينهم البارون كرادى فو مؤلف كتاب (مفكرو الإسلام) الذى وقف على نص بعنوان (الحساب الهندى بالطريق الهندسى) وقال بأن الهندسى هنا نسبة إلى الهندسة ثم وضع نظريته الشهيرة بأن العرب هم أصحاب هذا الابتكار وأنهم بنوا أرقامهم على أساس الزوايا: فالواحد زاوية واحدة؛ والاثنان زاويتان والثلاثة ثلاث زوايا وهكذا حتى التسعة. وأنه مع السرعة فى الكتابة والتقدم فى الزمن خرج الشكل المبسط (الذى نسميه الآن بالهندى) من بطن هذا الشكل المربع المضلع الهندسى واختفت الزوايا. وإن كان هناك من يقول بأن كرادى فو قد أخطأ وأن الهندسى هو نسبة إلى الهندوس وليس إلى الهندسة ومن ثم يكون الهندوس هم أصحاب هذا الشكل من الأرقام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة رأى آخر فى نفس هذا الاتجاه للعالم (فوبكى) يؤكد أن العرب هم أصحاب الشكلين وهو يؤيده بحصى بوثيوس التى كانت تتخذ شكل الأرقام الهندسية (الغبار). وبوثيوس هذا قسيس بيزنطى عاش فى القرن التاسع الميلادى، عمل فى روما وفى القسطنطينية. وقد وضع للمدارس كتابين أحدهما فى الحساب والآخر فى الهندسة اعتمد عليهما رجال الكنيسة فى تدريس الرياضيات طوال العصور الوسطى وفى كتاب الهندسة وصف للحصى (المكعبات) - التى كان يستعملها بوثيوس ومن ثم رجال الكنيسة المدرسون - التى نقش على كل منها شكل من أشكال الأرقام التى تستخدم فى تدريس الحساب، وهى نفس الأرقام العربية. وقد نسبها فوبكى إلى العرب. وحصى بوثيوس هذه هى ما نصادفه اليوم فى مكعبات البلاستيك التى تكتب عليها الأرقام أو الحروف لتعليم الصبية المبادئ الأولية فى العد والأبجدية.

كذلك فإن زيجريد هونكه المستشرقة الألمانية الشهيرة التى وضعت كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» تنسب الأرقام إلى العرب وتقول بأن أعظم هدية قدمها العرب إلى الغربيين هو الصفر.

أما أرباب الإحتمال الثالث فإنهم يقسمون البلد إلى بلدين فينسبون الشكل الأول من الأرقام للهنود والثانى للعرب. ويقولون بأن الهنود كانت لديهم عدة أشكال للأرقام، أكثرها قرباً من العرب ما شاع فى منطقة السند (الباكستان الآن) أخذها العرب وحوَّروا فيها وإن بقيت فى الباكستان حتى اليوم على أصولها لم تتحوَّر وهذا وحده دليل على أنها هندية.

ولحاجة التجار فى الأسواق كان من الضرورى تطوير نظام يفى بحاجتهم إلى التسجيل والمحو الآنى السريع. فجاء نظام أرقام الغبار الذى يكتب بالحجر الجيرى على اللوح أو بقلم من غاب على الرمل المنثور فوق التخت والتى بنيت على فكرة الزاويا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك من يلح فى التأكيد على عروبة هذا الشكل تماماً دون تأثر خارجى، ولكى يبعدها تماماً عن الهند، قال بأن أهل المغرب هم الذين اخترعوا هذا الشكل ولقربهم من أوربا أخذته عنهم وسمَّاها الأوربيون بالأرقام العربية، ولم تأخذ الشكل الهندى من المشرق العربى لبعدها عنه وما يزال هذا الشكل موجوداً فى المغرب العربى مستخدما لديهم حتى الآن دون الشكل الهندى ويُستدل فى هذا الصدد بقول البيرونى من «أن الغربيين اقتبسوا الطريقة المغربية عن طريق عرب الأندلس».

وقد ذكر أبو الريحان البيرونى (توفى ٤٤٠هـ) أيضا أنه ألف عدة كتب من بينها: «كيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب»؛ «تذكرة فى الحساب والعدد بأرقام السند والهند»؛ «تذكرة فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند». ونستشف من قوله فى هذه الكتب أنه كان للعرب إسهامهم الخاص وتفكيرهم الخاص الذى أنتج شكلاً مختلفاً للأرقام عن الشكل الهندى، وهو رأى كونه البيرونى بعد الإطلاع على فكر الأمتين الهندية والعربية فى هذا الصدد.

ومن الطريف جداً أننا قد عثرنا فى شيراز على نقش يرجع إلى القرن العاشر الميلادى يمزج بين الشكلين فى واحد مما يدل دلالة قاطعة على أن كلا الشكلين كان مستخدماً فى المشرق العربى ولم تكن أرقام الغبار وقفاً على المغاربة، بل وكانت الأرقام الهندية مستخدمة فى الجزائر وليبيا إلى بداية الستينات مما يكشف عن أن الأرقام الهندية لم تكن بمنأى عن عرب المغرب العربى أيضاً.

وربما يكشف الزمن القادم عن قرائن جديدة تدحض أحد تلك الإحتمالات أو هى جميعاً وتقيم احتمالاً جديداً أو تقوى أحد تلك الاحتمالات وتغلبه على ما عداها.

وأيا كان الإحتمال فإن الأرقام العربية بشكليها - أيا كان أصلها - تقوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على تسعة رموز أو علامات أساسية والصفر الذى يعنى الفراغ من جهة ويعطى الرمز الواحد قيمة عددية متغيرة بحسب المنزلة التى ينزل فيها. ومن هنا فإن نظام الأرقام العربية هو نظام عشرى.

ولما كان الصفر هو أعظم هدية قدمها العرب للعالم وليس الرموز التسعة فقط فإن لنا معه وقفة نتأمله فيها ونتتبع تطوره.

تكشف بعض النصوص الأثرية عن أن أول من استعمل الصفر هم البابليون وكان له نفس الوظيفة فى رياضيات اليوم وإن لم يكن له نفس شكل اليوم إذ كان عبارة عن هرمين صغيرين متجهين لليسار على قاعدة واحدة. وقد استخدمت هذه العلامة فى البداية لدى البابليين للفصل بين الكلمات والجمل. وبعد ذلك استخدمت لسد الفراغات بين الأرقام وكانوا فى بعض الأحيان يتركون الفراغات بدون هذه العلامة.

وقد ورد الصفر فى النصوص الفلكية من العهد السلوقى واستخدمت لحفظ المنازل الخالية من الأرقام للإبقاء على القيمة العددية.

كذلك استخدم الصينيون الصفر فقد عثرنا عليه على بعض قطع النقود التى كانت مستعملة عندهم فى العصور القديمة ولكن تاريخ البدء بالعمل به فى الحساب البحت غير معروف على وجه اليقين.

وعرف الصفر أيضا لدى الهنود الحمر، إذ عثر على تقويم يعرف بتقويم مايا يرجع إلى ما قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا، استخدم فيه الصفر على شكل صدفة مجوفة.

وفى الهند عثر على نصوص ترجع إلى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد وكانت هذه النصوص تعالج مسائل حسابية ورياضية رسم فيها الصفر.

كذلك عرف البيزنطيون الصفر حيث نجده فى جداول بطليموس الفلكية التى ترجع إلى القرن الثانى الميلادى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيد أنه يبدو أن هذه الأصفار جميعا لم تكن تستخدم لملء المنازل أو الخانات الخالية بين الأرقام وإنما فقط لتعنى العدمية أو اللاشئ فى حاصل الطرح وربما الضرب.

أما عند العرب فقد عرف الصفر قبل الإسلام وقبل الأرقام الهندية والغبارية على السواء كلفظ للدلالة على «لا شئ» مثل صفر اليدين. أما للدلالة الحسابية فلم يستخدم إلا مع ظهور الأرقام. وكل الكتب العربية القديمة مثل فصول الإقليدسى وأصول كوشيار وتاريخ اليعقوبى وتكملة ابن طاهر البغدادى وفهرست ابن النديم كلها تذكر الأرقام التسعة والصفر وهو «دارة صغيرة» ولكنه عند الكتابة يوضع فوقه خط صغير $\bar{0}$ وربما يلتصق الخط برأس الدائرة مع السرعة δ. وكان يستخدم للدلالة على الناتج اللاشئ فى حاصل الضرب أو الطرح أو القسمة، كما يستخدم فى ملء المنازل الخالية من الأرقام ومن ثم يعطى الرقم الواحد قيمة عددية متغيرة بحسب المنزلة التى ينزلها.

وربما يكون للعرب الفضل فى تغيير شكل الصفر ولكن ليس لهم فضل فكرته أو ابتكاره.

* * *

وبينما كان العرب فى العصور الوسطى يستخدمون الأرقام العشرية أيا كان شكلها أو تسميتها، وما أدخلوه عليها من تعديلات وتطويرات فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى كانت أوربا تستخدم الأرقام الرومانية التى تخلو من الصفر ولكل رمز قيمة عددية ثابتة مهما كانت المنزلة التى ينزلها الرقم. ولما بدأت أوربا يقظتها فى العصور الوسطى المتأخرة (من القرن الثانى عشر إلى القرن الخامس عشر) إنفتحوا على العرب والعلوم العربية وبالتالى إنفتحوا على الأرقام العربية ضمن ما انفتحوا من العلوم وكان ذلك عن أكثر من طريق:

١ - عندما فتح العرب الأندلس فى أوائل القرن الثامن الميلادى واستقروا فيها نحو ثمانية قرون أنشأوا خلالها المدارس والأكاديميات والمكتبات وحلقات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدرس ومصانع الورق وملأوا الدنيا تأليفاً وترجمة وتدريساً، كانت الأندلس محط أنظار الدارسين من أوربا وقبلة للمتعلمين. ومن بين هؤلاء الدارسين تتوقف المصادر أمام إسمين لهما باع طويل فى نقل الأرقام العربية من الأندلس إلى أوربا: الاسم الأول هو (هاتو) الذى كان يتردد على بلاط الحكم الثانى أمير قرطبة الذى كان يجمع حوله العلماء والباحثين؛ وقد اطلع هاتو هذا على الأرقام العربية والحساب العربى وأعجب بهما أيما اعجاب، وبعد عودته إلى برشلونة أغرى تلميذه (جربرت) بالارتحال إلى قرطبة لتعلم العلوم هناك فأمضى عدة سنوات يدرس ويتعلم على أيدى الأساتذة العرب وكان من بين ما تعلم الأرقام العربية والحساب. وعندما عاد إلى بلده أخذ يعلم قومه هذه العلوم.

فى سنة ٩٧١م رحل جربرت هذا إلى روما حيث اشتغل معلماً ومستشاراً للقيصر (اوتو الأكبر) ثم عُيِّن كبيرا للأساقفة ثم أصبح بابا روما سنة ٩٩٩م تحت الاسم البابوى (سلفستر الثانى). وكان هذا الرجل كما رأينا من أوائل من تعلموا الأرقام العربية وعلمّوها واستخدموها وطالبوا باستخدامها. ومما يذكر عن سلفستر الثانى هذا اعجابه الشديد بمكتبة دار العلم التى أنشأها الحاكم بأمر الله وكانت أحسن مكتبة فى زمانها وقال عنها قولته الشهيرة التى تناقلتها المصادر «إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس هناك أحد فى روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة وأنىّ لنا أن نعلم الناس ونحن فى حاجة لمن يعلمنا؛ إن فاقد الشئ لا يعطيه».

وقد ألّف جربرت فى ذلك الوقت كتابا فى الحساب ووضع طريقة سهلة لتعليم الأرقام العربية، إلا أن الوقت فيما يبدو لم يكن قد حان لانتشار تلك الأرقام فى ختام القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر الميلادى.

٢ - عندما فتح العرب قبرص وصقلية وجنوب إيطاليا فى أوائل القرن التاسع الميلادى أى بعد الأندلس بقرن من الزمان تقريباً، حدث أيضا ما حدث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الأندلس من إنشاء المدارس والمكتبات وحلقات الدرس والبحث ونشر العلم، كما نقلوا الأرقام العربية إلى تلك المناطق وكذلك صناعة الورق وأدوات الكتابة أيضاً. وهنا كما حدث فى قرطبة يبرز اسم (ليوناردو البيزى) وكان والده رئيساً للمركز التجارى فى بجاية العربية الجزائرية وقد توسعت تجارته توسعا عظيما فاستدعى إبنه لمساعدته ولكى يسيطر على اللغة العربية والحساب العربى عهد به أبوه إلى معلم عربى يدعى (سيدى عمر) قام بتعليمه العربية وفروع الحساب من جمع وطرح وقسمة وضرب وكسور. كذلك ارتحل ليوناردو إلى القاهرة والإسكندرية ودمشق لاستكمال دراساته والاطلاع على ما فى مكتباتها من كنوز. وقد ألف كتابا فى الحساب كان أول فصوله كما تذكر زيجريد هونكه عن الأرقام العربية والصفر الذى يمكن بمساعدته كتابة أى رقم مهما كان.

ولما عاد ليوناردو إلى إيطاليا حاملاً علوم العرب وعلى رأسها علوم الحساب التى أجادها وبرع فيها قابل القيصر فردريك الثانى وقد حضر المقابلة لفيف من العلماء نقل إليهم ما تعلمه من العرب. ويعتبر ليوناردو من العلماء الذين ساهموا بطريق مباشر فى نقل الأرقام العربية إلى إيطاليا ومنها إلى أنحاء متفرقة من أوربا.

٣ - عندما تفتح الأوربيون على العلم العربى وأفاقوا من ظلام العصور الوسطى الباكرة، أخذوا فى ترجمة أمهات الكتب العربية فى مجالات عديدة وكان من بينها بطبيعة الحال مجال الرياضيات والفلك وخاصة كتب الخوارزمى الذى كان له باع طويل فيهما وكانت مؤلفاته عظيمة القيمة. ومن المعروف أنه واضع علم الجبر وهو الذى أعطاه اسمه، كما أنه مطور علم الحساب والأرقام الهندية وكتابه الأول فى علم الحساب ضاع ولم يصل إلينا إلا أن ترجمته اللاتينية هى التى بقيت لنا وهى التى توفر عليها المستشرق الإنجليزى (اديلار من باث)؛ وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى. كما ترجمت له كتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الجبر والمقابلة والحساب وقد درست تلك الكتب ومن ثم وجدت لها أنصاراً وأتباعاً عرفوا بالخوارزميين وإلى جانب كتب الخوارزمى ترجمت كتب أخرى فى قرون تالية كان لها جميعا فضل انتشار الأرقام العربية فى أوربا؛ ومن أوربا انتشرت فى جميع أنحاء العالم باسم (الأرقام العربية).

بذلك الخط الذى سمى العربى وبتلك الأرقام التى سميت العربية كتب الكتاب الذى سمى أيضاً بالكتاب العربى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

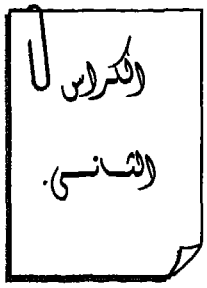

التدوين وطرق التأليف عند العرب

كان العرب فى جاهليتهم أهل ثقافة شفوية وعلم شفوى شأنهم فى ذلك شأن اليونان فى القرون الأولى للتاريخ. وكانت المعلومات تنتقل من مكان إلى مكان فى جزيرة العرب ومن جيل إلى جيل عن طريق التواتر رغم أنهم كما رأينا عرفوا الكتابة قبل الإسلام ومن ثم لم يخلفوا لنا كتبا مكتوبة بالمعنى المألوف للكتاب. وكان النقل الشفوى للمعلومات عندهم يعرف باسم الرواية والشخص الذى ينقل المعلومات يعرف باسم الراوية.

ولما جاء الإسلام كان أول كتاب بالمعنى الإصطلاحى يكتب ويدون هو القرآن الكريم ويبدو أنه استمر الكتاب الوحيد المدون طوال القرن الأول الهجرى وردحاً طويلاً من القرن الثانى، ربما حتى سقوط الدولة الأموية. قد يكون عدم وجود كُتب مدونة طوال تلك الفترة راجعا إلى حديث رسول الله ﷺ الذى نهى فيه عن كتابة أى شئ عدا القرآن الكريم حين قال «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ومن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحه»؛ وواضح من نص الحديث أن النهى كان عن المعلومات التى تصدر عن الرسول خلاف القرآن ولم يكن على إطلاقه، أى لم يكن لينسحب على المعلومات والعلوم الأخرى، أى أنه انصرف إلى الحديث النبوى. وقد يكون القوم قد فهموه على إطلاقه ومن ثم لم يدونوا كتبا فى أى موضوع. رغم تواتر كتب الموضوعات الأخرى طوال تلك الفترة شفاهة. وقد يكون عدم وجود كتب مدونة فى تلك الفترة التى امتدت لنحو قرن ونصف راجعاً إلى أنها كانت امتداداً للعصر الجاهلى فلم ينتقل القوم بين يوم وليلة من الثقافة الشفوية إلى الثقافة المكتوبة واحتاجوا إلى فترة طويلة للتعود على مسألة تدوين المعلومات، إذ كانوا يعتبرون التدوين إهانة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للذاكرة القوية وملكة الحفظ التى جبلوا عليها وساعد على ذلك أن المعلومات التى كانوا يتداولونها كانت ما تزال محدودة لا تحتاج إلى تقييد ولم يكونوا قد انفتحوا تماماً على الأمم الأخرى وتشربوا علومها وتشبعوا بها ومن ثم يحتاجون إلى تدوينها.

وأضيف سبب آخرلعدم وجود كتب مدونة فى تلك الفترة الطويلة وهو أن الدولة الإسلامية سواء فى العصر الراشدى أو فى العصر الأموى قد انصرفت إلى توطيد أركان الإسلام والتوسع فى الفتوحات والحروب ولم يكن لدى الحكام وقت لتشجيع العلم والتأليف ولم يكن لدى المحكومين حافز على تحصيل العلم ونشره حتى لقد وصف العصر الأموى بالجدب الفكرى والإمحال الثقافى. وفى ظل هذا الجدب الفكرى والإمحال الثقافى لم يكن هناك ما يبرر التدوين وكتابة الكتب وتقييد العلم.

ولكن فى ظل الاسترخاء والرفاهية التى صاحبت الدولة العباسية، وكذلك حالة الازدهار فى الأندلس، وانتشار العلوم والمعارف وظهور منهج البحث العلمى لدى المسلمين كان لابد من التدوين وتقييد العلم الذى أصبح ظاهرة فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى وبدأ التدوين بالتأليف الجديد ثم قفل راجعا إلى الخلف لتدوين الروايات التى لم تكن قد دونت من قبل والتى ظلت فترة طويلة تنتقل شفاهة وليس معنى أن يصبح التدوين ظاهرة أن تختفى الرواية والتواتر ولكنهما ظلا جنباً إلى جنب فترة أخرى طويلة من الزمن؛ حتى اختفى التواتر وساد التدوين.

ويجب ألا ننكر كلية وجود بعض الكتب المدونة لدى العرب على الأقل فى نهاية القرن الأول الهجرى فهناك من الشواهد العقلية ما يؤكدها وإن كان عددها قليلاً محدوداً ولم تكن كتباً بالمعنى الدقيق وإنما أقرب للرسائل صغيرة الحجم أو المقالات كما كان العرب يحبون أن يطلقوا عليها كما سنرى فيما بعد.

القرآن الكريم أول كتاب مدون فى الإسلام

نزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى وقد أشار القرآن نفسه فى العديد من المواضع على تلك الحقيقة وأكد عليها فى سورة يوسف، الآية الثانية؛ سورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرعد الآية السابعة والثلاثون؛ وفى سورة طه الآية الثالثة عشرة وسورة فصلت الآية الثالثة وسورة الزخرف الآية الثالثة كذلك وفى سورة الشورى، الآية السابعة، وسورة الأحقاف الآية الثانية عشرة. كما أكد القرآن نفسه على أن لغته سليمة أصيلة على نحو ما ورد فى سورة الزمر فى الآية الثامنة والعشرين ﴿قرآنا عربياً غير ذى عوج﴾ وأنه بلسان عربى مبين كما ورد فى سورة النحل الآية الثانية بعد المائة والشعراء الآية الخامسة والتسعون بعد المائة أيضاً. وقد جاء أنه كتاب مبين فى أربعة عشر موضعا وأنه البلاغ المبين فى سبعة مواضع.

وأن ينزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى يعنى أنها كانت اللغة السائدة بين أهل الجزيرة وأنها عامة عندهم، وهى الأداة التى تجمعهم وتوحدهم فكريا وهى اللغة التى نظم فيها الشعراء شعرهم والخطباء خطبهم والبلغاء أمثالهم وحكمهم وأقوالهم المأثورة ومن جهة ثانية فإنها لغة القوم الذين توجه إليهم القرآن بما فيه من معلومات وتشريع، ومن جهة ثالثة يؤكد القرآن كفاءة اللغة العربية وقدرتها على الوفاء بالتعبير عن أى موضوع واستيعاب مفردات أى تقدم علمى وذلك لكثرة مفرداتها ومرونتها وقابليتها للإشتقاق والتصريف وتفاعلها مع اللغات الأخرى أخذاً وعطاء.

وسيادة اللغة العربية الفصحى لم تمنع من وجود اختلافات فى لغة القبائل العربية سواء فى نطق حروف الإمالة أو تبديل حروف بعض الألفاظ أو استعمال كلمات محلية تناسب البيئة الاجتماعية أو الطبيعية أو الثقافية، بيد أن هذا الاختلاف الذى نسميه لهجات كان محليا جدا محدوداً فى نطاقه ضعيفا فى أثره لا يمنع الفهم الكامل الصحيح للمتحدثين والمتخاطبين، وظلت اللغة العامة الفصحى هى السائدة، وساعد القرآن الكريم على تثبيت مكانتها ونشرها فعمت بعد تعريب الدواوين واستخدمت فى سجلات المالية والخراج وأصبحت لغة العلم والتجارة والحياة واستعملها الأعاجم من غير العرب ومن ثم أصبحت هى لغة التأليف والإنتاج الفكرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كانت لغة القرآن الكريم هى العربية فقد كتب القرآن الكريم بالخط الذى كان موجودا فى مكة والمدينة خلال فترة الوحى وهو الخط العربى. ويذكر العلماء والثقاة أن عدد كتاب الوحى بلغ تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم الخلفاء الراشدون ومعاوية بن أبى سفيان والزبير بن العوام وسعيد بن العاص وعمرو ابن العاص وأُبىّ بن كعب وزيد بن ثابت، إلا أن المصادر تؤكد على أن أكثر الكتّاب إرتباطاً بكتابة القرآن كان معاوية بن أبى سفيان وزيد بن ثابت. ويبدو أنه منذ المرحلة الأولى لنزول الوحى بدئ فى تدوين القرآن وكان من المؤكد أن المؤمنين لم يتوانوا منذ البداية ومن خلال المحن والاضطهادات التى تعرضوا لها عن تسجيل الآيات القرآنية التى وصلتهم. وإسلام عمر بن الخطاب يعود كما نعلم إلى قراءته لآيات مكتوبة من أول سورة طه وجدها مدونة عند أخته.

كان تدوين القرآن العظيم يتم على مواد طبيعية موجودة فى البيئة التى عاش فيها المؤمنون الأوائل مثل سعف النخيل ورقاق الحجارة والعظام ولحاء الشجر العريض وغير ذلك من المواد. ومن هنا فإن القرآن المدون لم يكن فى بادئ الأمر مجموعاً فى مجلد واحد على الهيئة التى نراه عليها اليوم، فقد نزل القرآن على دفعات منجماً، وكانت الدفعات تتفاوت حجومها بين سورة كاملة أحيانا وآية واحدة أحيانا أخرى وربما إلى جزء من الآية. وكان الرسول ﷺ يتلو ما ينزل عليه فى المرة الواحدة ويعلمه للسامعين ليروه عنه وينشروه ويدونه من يدون منهم فقد حرص الرسول ﷺ كلما جاءه الوحى وتلاه على الحاضرين أن يمليه فوراً على كتبة الوحى ليدونوه على أى شئ كان فى متناول أيديهم كالرق أو الخشب أو صفائح الحجارة والعظام.

ولم تكن تلك المخطوطات القرآنية فى هيئتها الأولى تشكل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة ومتتابعة بل ولم يكن لدى النبى الكريم نفسه نسخة كاملة مكتوبة من القرآن، بل ولم يكن لدى أى مؤمن ممن تحلقوا الرسول نسخة كاملة منه، وإنما كانت قطع القرآن الكريم متفرقة ومبعثرة بين العديد من بيوت المؤمنين والمؤمنات ولم يكن هناك فى بداية الأمر ترتيب محدد للقرآن. وإنما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت بعض الآيات تضاف هنا أو تجمع إلى جانب آيات هناك حسب أوامر الرسول الكريم. ويجب التأكيد على أن غياب التتابع بين الآيات المكتوبة فى تلك المرحلة لم يحل دون معرفة المؤمنين الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه القطع واليقين وفى كل مرحلة من مراحل الوحى. وكان لابد من انتظار إكتمال الوحى كله لترتيب القرآن كاملاً وإخراجه وحدة واحدة وهو ما لم يتم إلا قبيل وفاة الرسول حين اتخذ القرآن شكله النهائى فى صدور الحفاظ وإن لم يتم كذلك فى المخطوطات الأولى، على عهد الرسول الكريم.

ولقد كان حول الرسول مئات من الصحابة كان حولهم مئات من التابعين يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويعرفون تمام المعرفة كل سورة فى هيئتها المؤقتة والنهائية. وكان «حفظة القرآن» يدركون المهمة العظيمة التى يقومون بها فقاموا بها خير قيام. والرسول ﷺ أكدَّ أنه فى شهر رمضان من كل عام كان يقوم بمراجعة عامة للآيات التى نزل بها الوحى ويتلوها بحضور جبريل عليه السلام وأنه فى العام الأخير من حياته راجع عليه جبريل القرآن مرتين مما جعله يتنبأ بدنو الأجل.

وبعد وفاة الرسول ﷺ قامت حروب الردة المشهورة والتى قتل فيها مئات من المؤمنين منهم سبعون من الحفاظ فيما تذكر المصادر، وخشى على القرآن من تناقص أعداد الحفظة له فاقترح عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق جمع القرآن فى طرس واحد. ولم يكن هدفه حفظ القرآن المدون من الضياع وإنما أيضا إقراره فى شكله النهائى الذى فى صدور الرجال، أى أن ترتب سوره وآياته المكتوبة بنفس النسق المحفوظ فى صدور الحفاظ. وشكلت لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت الذى تهيب فى بداية الأمر جسامة العمل وعظم المسئولية ولكن أبا بكر أصر عليه وقال يخفف من روعه «إنك رجل ذكى، وكنت تكتب الوحى فى عهد الرسول فقم بجمع القرآن». وكان اختيار زيد بن ثابت هو الإختيار الصحيح لأنه لم يكن مجرد كاتب من كتاب الوحى ولكنه حضر بنفسه آخر تلاوة قام بها الرسول ﷺ للقرآن كله. وقد وضعت لجمع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن المكتوب فى عهد أبى بكر قاعدة أساسية ألا يجمع أى مخطوط من القرآن إلا بعد شهادة إثنين من المؤمنين على أنه من إملاء الرسول مباشرة وأنه جزء من التنزيل فى صورته النهائية. وأنه لم يكتب من ذاكرة أى من الحفاظ خارج املاء الرسول عند نزول الوحى.

وبعد جمع القرآن المدون بعد كل هذه الإحتياطات سلمه زيد بن ثابت إلى أبى بكر الصديق الذى احتفظ به طوال خلافته وعهد به قبل موته إلى عمر بن الخطاب المرشح للخلافة ثم قام عمر بن الخطاب بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين قرب دنو الأجل لتسلمه للخليفة الذى يجئ بعده لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع قبل وفاته.

ومن هنا يمكننا القول أنه قد جمعت فى عهد أبى بكر الصديق نسخة كاملة واحدة رسمية من القرآن الكريم، احتفظ بها عمر بن الخطاب وسلمت إلى عثمان بن عفان بعد أن أصبح خليفة للمسلمين. هذه النسخة الرسمية كانت مطابقة تماماً من حيث ترتيب الكتابة لما هو محفوظ فى صدور المسلمين. هذه النسخة الرسمية لم تمنع وجود نسخ أخرى كاملة أو قطع من نسخ غير كاملة لدى الأفراد. وقد ذكرت المصادر أن نسخة القرآن هذه كتبها زيد بن ثابت على رق لطول بقائه ولأنه الأدوم.

ولما جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان وبدأ التوسع فى الفتوحات الإسلامية التى وضعت فى مسارها فى عهد عمر بن الخطاب كان لابد من نشر نسخ من القرآن المدون وحمل الناس على قراءة واحدة له. ولذلك عمد عثمان بن عفان إلى كتابة القرآن الكريم فى مصحف واحد عرف **بالمصحف الإمام**، نسخ منه نسخاً أخرى بعث بها إلى الأمصار: الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة، لتصبح بعد ذلك أساساً لاستنساخ المصحف فى ربوع الدولة الإسلامية وظل الناس يقرأون فى مصحف عثمان ما يزيد على أربعين عاماً حتى كان زمن عبد الملك بن مروان (٦٥هـ) فكثر التصحيف فى القراءة لأن مصحف عثمان لم يكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منقوطاً كما نعرف ففزع الحجاج إلى كتابه يسألهم أن يميزوا بين الحروف المتشابهة وأن يقرأوا القرآن قراءة نحوية صحيحة فدخل الشكل ثم بعد ذلك النقط.

منذ ذلك الحين بدأت عملية نشر المصحف نشراً وظيفياً أولاً أى بغرض تسهيل عملية قراءة القرآن، وتخصص فيها كتاب محددون كان بعضهم يتقاضى أجراً عن ذلك. يقول السجستانى فى كتابه (كتّاب المصاحف) أن أبا حكيمة العبدى كان ينسخ القرآن وكان على بن أبى طالب يمر عليه وهو ينسخ هو وزملاؤه فينظر فيما ينسخون فيعجبه خطهم فيقول لهم «هكذا نوروا ما نوّر الله»، كما روى أن عبد الرحمن بن عوف استكتب رجلاً من أهل الحيرة مصحفاً فأعطاه سبعين درهما. ويقال أن المصاحف فى تلك الفترة كانت تكتب على جلود الظباء.

بعد ذلك النشر الوظيفى للمصحف أخذ المسلمون يتأنقون فى كتابة المصاحف وتجميلها وفى تحسين خطوطها، كما أخذوا يستخدمون المصاحف الجميلة الأنيقة داخل المساجد والجوامع وأكثر من هذا بدأوا يستخدمون آيات القرآن الكريم فى زخرفة وتزيين جدران المساجد وخاصة من الداخل. ويذكر ابن النديم فى الفهرست أن أول من كتب المصاحف فى الصدر الأول من الإسلام ويوصف بحسن الخط هو (خالد بن أبى الهياج) وكان يكتب للوليد بن عبد الملك المصاحف والشعر والأخبار ويقال أن عمر بن عبد العزيز طلب إليه أن يكتب له مصحفاً بنفس الخط الذى فى قبلة مسجد النبى ﷺ فكتب له مصحفاً تنوق فيه فأقبل عمر بن العزيز يقبله ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه».

ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن مصحف عثمان هو المتداول فى جميع أنحاء العالم الإسلامى منذ نحو أربعة عشر قرنا. وقد أكد (و. موير) أن المصحف الذى جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أى تحريف. ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير يذكر (اللهم إلا فى النقط) بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أى تغيير على الإطلاق فى النسخ التى لا حصر لها والمتداولة فى البلاد الإسلامية الواسعة. ومن هذا المنطلق أيضا يؤكد (نولدكه) أن النص القرآنى فى مصحف عثمان جاء على أحسن صورة من الكمال والمطابقة لما فى صدور الرجال. وتأسيساً على ذلك يؤكد (لو بلوا) أن القرآن هو اليوم الكتاب الربانى الوحيد الذى لم يطرأ عليه أى تغيير.

إذن دون القرآن بالخط العربى السائد فى حينه وبالطريقة التى كان عليها ولم يدخله من حيث الكتابة تغيير يذكر حتى بعد الطباعة تؤكد الطبعات المختلفة على أنها بالرسم العثمانى وقد حفل القرآن نفسه بالإشارة إلى الكتابة وأدواتها وإلى الكتب كمنتج نهائى لها فقد ذكر **القلم** فى سورة القلم الآية الأولى وفى سورة العلق الآية الرابعة وسورة لقمان فى الآية السابعة والعشرين وآل عمران الآية الرابعة والأربعين. كذلك ذكر من بين مواد الكتابة القرطاس فى سورة الأنعام الآية السابعة والآية الواحدة والتسعين **والرق** فى سورة الطور فى الآية الثانية. كما ذكر **المداد** فى سورة الكهف فى الآيتين التاسعة والعاشرة.

أما الكتاب فقد ذكر فى القرآن الكريم بصور متعددة: **الكتاب المسطور** فى سورة الكوثر فى الآية الثانية عشرة وفى سورة الأحزاب فى الآية السادسة وفى سورة الاسراء فى الآية الثامنة والخمسين. وذكر الكتاب على أنه **الألواح** فى سورة الأعراف الآية الخامسة والأربعين بعد المائة. **والسجل** الذى يطوى الكتب فى سورة الأنبياء فى الآية الرابعة كما ذكر على أنه **الصحف** فى سورة المدثر الآية الثانية والخمسين، والصحف الأولى فى سورتى طه الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة؛ والأعلى فى الآية الثانية وصحف ابراهيم وموسى فى سورتى الأعلى الآية الثالثة عشرة والنجم الآية التاسعة والثلاثين. وأن القرآن الكريم فى «صحف مكرمة» فى سورة عبس الآية الثالثة عشرة وفى «صحف مطهرة» فى سورة البينة الآية الثانية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذكر القرآن **الكتابة** بصيغة فعل الأمر فى ست وعشرين آية، وبالمعنى العام أى التقييد فى سبع آيات ووردت كلمة كتاب بلفظها فى تسع وعشرين آية والذين اوتوا الكتاب فى اثنتين وثلاثين آية، وبمعنى الكتب المقدسة فى الأديان السماوية فى ثمان وثلاثين آية كما ذكرت الكتب المقدسة بأسمائها كالتوراه والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم فى عدة آيات ووردت كلمة الكتاب للإشارة إلى القرآن الكريم فى كثير من الآيات وأوجب القرآن الكريم كتابة العقود كالدين (البقرة، آية ٢٨٢) وعقد الزواج (البقرة ٢٣٥) ومكاتبة العبيد عند تحريرهم (النور آية ٣٣).

والقرآن الكريم أساساً هو كتاب هداية وجل آياته تتعلق بالعقيدة الدينية والشريعة والنظرة الكونية الشاملة، بالإضافة إلى اهتمامه بالتوجيه السلوكى والأخلاقى للانسان فى حياته العامة واليومية والشخصية، كما يهتم بالمبادئ المتعلقة بالنظم والعلاقات الإجتماعية والتطورات التاريخية، كما يحفل بالقصص للعظة والعبرة وفيه إشارات كثيرة تتعلق بالعلوم البحتة والتطبيقية وخاصة فيما يتعلق بالكون والفلك والشمس والنجوم والأرض والأبراج والسنين والشهور والأيام والساعات والحساب بما فى ذلك الأرقام: الآحاد والعشرات والمئين والألوف وكسور الآحاد كالنصف والثلث والربع والخمس والسدس. وفيه ذكر للعمليات الحسابية كالجمع والقسمة والطرح والمضاعفة أى الضرب. ووردت فى القرآن إشارات إلى مظاهر المناخ المختلفة كالهواء والرياح والعواصف والأمطار والمياه والأنهار والبحار. وفيه علم النبات ونموه وبعض المحاصيل كالنخيل وثمره والأعناب والزيتون والرمان. وفيه علم الحيوان بأسماء الحيوانات وأسماء أعضائها. وفيه علم الأجنة وتطور الجنين وفيه علم الأحياء، وأعضاء جسم الانسان. وفيه علم اللغة.

إذن فالقرآن لم يأت تحديا لغوياً وحسب وإنما جاء كذلك تحديا علمياً وداعياً إلى المعرفة والتوسع فى كل إشارة جاءت فيه. ولقد حض فى كثير من المواضع على استعمال العقل فى التفكير وأثنى على ممارسيه ودعا إلى المعرفة ووضعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيه آيات كثيرات للتعبير عن مظاهر المعرفة ودرجاتها. ومن هذه التعبيرات **الرأى** فى ٣٣٢ موضعا، **البصر** بمعنى البصيرة فى ١٤٩ موضعا **والنظر** بمعنى البصيرة والتبصر أيضا فى ٩٩ موضعا **وعرف** فى ٢٤ موضعاً.

وجاءت كلمة **العقل** بلفظها ثمان وأربعين مرة **والفكر** تسع عشرة مرة **واللب** بمعنى العقل ست مرات. كما ذكر القرآن الكريم من أساليب الحوار: **الجدل** تسعاً وعشرين مرة **والحجاج** تسع عشرة مرة **والمشاقة** مرة واحدة.

ووردت كلمة **العلم** بلفظها ومشتقاتها فى ثمانمائة آية فيها ما يتصل بذات الله (٥٨٦ مرة). ومنها ما يتصل بالبشر والناس (١٨٤ مرة). كما ذكر القرآن الكريم **الذين أوتوا العلم** فى تسع آيات **والراسخون فى العلم** فى آيتين، وأشاد بالعلماء فى آيتين ﴿**انما يخشى الله من عباده العلماء**. . فاطر ٢٨﴾؛ ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات**. . المجادلة ١١﴾. كما ذكرت الحكمة بلفظها فى ست عشرة آية منها عشرة قرنت بالكتاب، وآية قرنت بالملك وأخرى قرنت بلقمان الذى أوتى الحكمة (لقمان ٢). وقال سبحانه وتعالى ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً**﴾ (البقرة ٢٦٩) وقد أوحى إلى الرسول من الحكمة (الإسراء ٣٩) وطلب إليه أن ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ (النحل ١٢٥).

ووصف الله ذاته بأنه ﴿**عزيز حكيم**﴾ خمساً وأربعين مرة، و﴿**عليم حكيم**﴾ أربعا وثلاثين مرة و﴿**حكيم خبير**﴾ أربع مرات و﴿**علىٌ حكيم**﴾ مرتين كما وصف تعالى ذاته فى آيات منفردة بأنه ﴿**تواب حكيم**﴾ و ﴿**حكيم خبير**﴾ و﴿**واسع حكيم**﴾.

وقد حفل القرآن الكريم بتكريم الإنسان من حيث هو نوع وبالفرد والأخلاق من حيث هو اللبنة الأولى فى المجموع، وحفل بإصلاح حاله وتنميته واعتبره كيانا خاصاً مسئولاً عن تصرفاته الدينية والأخلاقية والقانونية. وأوجب عليه الالتزام بقواعد أخلاقية أساسية يومية وعامة منها الصدق والأمانة والصبر والشرف والوفاء بالعهد وحب الخير للناس والمجتمع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتوقف القرآن الكريم أمام حرية الإنسان وتحريره توقفاً طويلاً فدعا إلى ممارسة الفرد لإرادته وحريته فى التفكير والتدبير والسلوك. ولذلك تقوم الدعوة الإسلامية على الإقناع والإقتناع والنقاش الحر والجدل البناء . يقول القرآن الكريم ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾، ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾. والحرية فى القرآن من هذا المنطلق حرية واسعة مطلقة لا يحدها إلا الضرار بالناس أو تهديد أمن المجتمع وسلامته أو المساس بأسس الشريعة والعقيدة. وهى حرية مادية ومعنوية كحرية العمل والتكسب والتنقل والاستمتاع المشروع بمباهج الحياة، كما تشمل حرية التمحيص والتفحيص ودراسة الآراء والأفكار والمعتقدات ومقاومة السلطان الظالم الفاسد.

وفى قناعتى الشخصية أن القرآن الكريم هو الذى شكلَّ أسس البحث العلمى وأطر الإنتاج الفكرى فى الدولة الإسلامية لقرون عديدة تلت إلى أن وهنت الدولة الإسلامية وفسدت أحوالها واختل منهج البحث العلمى فيها.

وأختتم هذه الفذلكة عن القرآن الكريم ببعض الأرقام عن سوره وآياته وحروفه حسبما وردت فى المصادر التى توافرت لى:

المصدر	السور	الآيات	الحروف
أبىّ بن كعب	ـــــــــ	ستة آلاف ومائتان وعشرة	ـــــــــ
عطاء بن يسار	مائة وأربع عشرة سورة	ستة آلاف ومائة وسبعون	ثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفاً
عاصم الجمهورى	مائة وثلاث عشرة سورة	ستة آلاف ومائتان وستة وعشرون	ثلاثمائة ألف وواحد وعشرون ألف وخمسمائة وثلاثون

وقد أعطى عطاء بن يسار عدد الكلمات فى القرآن وجاءت عنده سبعة وسبعين ألفا وأربعمائة وتسعة وثلاثين كلمة.

والحقيقة أن الفروق فى الأرقام الموضحة لا ترجع إلى نقصان أو زيادة بل ترجع إلى إعتبارات أخرى هى وجهة نظر الشخص لمفهوم الآية والكلمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحرف فالبعض يعتبر بسم الله الرحمن الرحيم التى تبدأ بها كل سور القرآن أية ومن ثم يحصيها على هذا النحو والبعض يعتبرها مدخلا إلى السورة ولا يحسبها آية فى الاحصاء. وأيضا القضية فى حالة الحروف الاستهلالية فى بعض السور البعض يحصيها على أنها حروف متفرقة والبعض يحصيها على أنها كلمة وهكذا يجب أن يرد الخلاف فى العدد.

***

ظهور الكتاب الإسلامى

الكتاب فى مفهومنا عبارة عن رسالة فكرية تسجل على وسيط خارجى قابل للتداول والتناول بين الناس برمز معين. ومن ثم لكى يتحقق ذلك فلابد من وجود ثلاثة أقطاب تتفاعل فيما بينها لكى تؤدى إلى تلك المخرجات التى نسميها الكتب وهذه الأقطاب هى: المؤلف والناشر والموزع. وقد رأينا أن أول كتاب اسلامى يحقق هذا المفهوم هو القرآن الكريم رغم أنه لم ينشر إلا فى عهد عثمان بن عفان. ذلك أن الصورة العامة فى جزيرة العرب لم تكن تسمح بظهور هذا المفهوم للكتاب.

فقد كانت شبه جزيرة العرب أرضا واسعة شاسعة، مناخها صحراوى قليل الأمطار وهى متنوعة فى طبيعة أرضها وثرواتها ونشاطات أهلها فنجد فيها سلاسل الجبال الطويلة والهضاب الواسعة والوديان الكثيرة المتسعة وفيها مناطق مستوية تغطى بعضها الكثبان الرملية وفيها الرمال المتحركة والأرض الصلبة. تتوافر فى بعض مناطقها مياه جوفية تمد الآبار والينابيع وعيون الماء بما يكفى لقيام الزراعة: زراعة النخيل والحبوب والخضر والفاكهة وفيها مناجم غنية ببعض أنواع المعادن وخاصة الذهب والفضة. وكانت تلك العوامل من أسباب ازدهار الحياة الاقتصادية والعمرانية فى بعض المناطق دون البعض الآخر وخاصة مناطق الأطراف الساحلية حيث ظهر منذ فترة طويلة قبل الإسلام عدد من المدن كانت مراكز حضارية ذات نشاط تجارى للسلاح والعبيد والسلع كما ظهر على شواطئها موانئ لنقل البضائع وتصنيع السفن وإصلاحها وتموينها ورسوها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد بقيت جزيرة العرب بعيدة عن أى حكم أجنبى مباشر فلم تحتلها أو تسيطر عليها دولة أجنبية تفرض عليها ثقافتها أو حضارتها ونظمها كما حدث مثلا بالنسبة للشام والعراق وشمالى إفريقيا ومصر. ولم تتعرض الجزيرة العربية إلا للقليل من الغزوات الأجنبية لم تتعد الأطراف وظل هذا حالها حتى اليوم ولم تستطع أية غزوة أجنبية أن ترسخ حكمها فترة طويلة فى تلك الأطراف. ولم تكن الأحوال الجغرافية والمناخية مشجعة على الهجرة إليها أو الاستقرار فيها بل كانت على الدوام منطقة طرد للسكان فخرجت منها الموجة تلو الموجة، إلى الهلال الخصيب وجنوبى العراق. ولم يكن يهاجر إليها ويستقر فيها إلا أعداد قليلة نسبياً، استقرت أساساً فى مناطق الأطراف القريبة من الفرس والتى تكثر فيها السفن المبحرة إلى البلاد النائية.

ولم تكن جزيرة العرب منطقة منعزلة مغلقة تماماً عن العالم الخارجى فإن موقعها الجغرافى بين بلاد الهند والشرق الأقصى وإفريقيا من جهة وبلاد البحر المتوسط من جهة ثانية، جعل كثيرا من التجارات تمر بها، لأنها أقصر الطرق مما دفع بعض أهلها إلى ممارسة الملاحة وتسيير قوافل التجارة وكانت لهم رحلة الشتاء ورحلة الصيف وليس ثمة شك فى أن تجاراتهم كانت أوسع مع الأقاليم المجاورة، غير أنها لم تقتصر على هذه الأقاليم وإنما امتدت إلى مناطق أبعد. ومن الثابت تاريخيا أن أهل عمان قاموا منذ قرون قبل الإسلام بالملاحة فى بحر العرب والمحيط الهندى ووصلت سفنهم إلى إفريقيا الشرقية وربما إلى الهند والصين وهم الذين أرشدوا الأوربيين فيما بعد إلى العبور إلى الهند، يؤيد ذلك توافر الإشارات إلى التجارة مع الهند، وعدم وجود أية إشارة أو دليل على العكس أى على وصول سفن هندية أو إفريقية إلى بلاد العرب. وتذكر المصادر إحتفاظ العرب حتى القرن الأول قبل الميلاد بسر معرفة تبدل الرياح الموسمية التى كانت لها أهمية كبرى فى سير السفن.

وامتد النشاط التجارى العربى نحو الغرب فشمل البلاد الواقعة حول حوض البحر المتوسط حيث وصلت سفن الفينيقيين إلى سواحل أسبانيا وشمالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إفريقيا وأقاموا مستوطناتهم ومن بينها مستوطنة قرطاجنة فى تونس وكشفت شواهد القبور فى شمالى إفريقيا وجنوبى فرنسا على أن تجار اليمن وصلوا إلى تلك المناطق.

كذلك امتد النشاط التجارى العربى إلى بلاد الفرس، وهناك من الأدلة ما يؤكد امتداد التجارة اليمنية إلى تلك المناطق. كما أن الجيوش العربية التى تقدمت فى زمن الخليفة عثمان بن عفان لفتح خراسان كان يتقدمها أولاد عرب يعرفون مسالك الطرق التى تيسر لهم الوصول إلى خراسان.

وليس ثمة شك فى أن عدداً من هؤلاء التجار العرب كانوا يقيمون دائماً فى البلاد التى يتاجرون معها، وكان العدد الأكبر من التجار يقيمون إقامة مؤقتة وكان لهم مقامهم الدائم على أرضهم فى موطنهم الأصلى بجزيرة العرب.

ومن المؤكد أن العلاقات التجارية أعطت الفرصة لنفر غير قليل من التجار العرب لتناول وتداول السلع والمنتجات والمحاصيل غير العربية والإحتكاك المستمر بتلك الدول والمجتمعات والإطلاع على أوضاع الحياة والنظم والمعاملات والقوانين السائدة هناك. كما أتاحت لهم خبر المعاملات وسبرغور تلك الحضارات واقتباس ما لزم اقتباسه من مفردات لغوية من أسماء السلع ومصطلحات النظم وبعض أنماط السلوك والعلوم، فضلاً عن زيادة الثروة والجاه وتوطيد مركز التجار.

ولابد من القول بأن ذلك كله كان له أثره فى نظم الحياة العربية وفى نشاط الحركة الثقافية والفكرية وإن كان ذلك بقدر محدود يسير لا يحدث انقلاباً فكرياً فى الجزيرة العربية وإن مكنَّ من دخول الكتابة إلى الجزيرة العربية على نحو ما قدمت من قبل.

فى ميدان العقائد والأديان عبد أهل الجزيرة الأصنام والتى وجدت فى الأقاليم المجاورة مثل الإله بعل، عشار، اللات، العزىَّ، مناة وأغلب الظن أنها دخلت إلى الجزيرة من الدول المجاورة وليس العكس حسب الآراء التى تقول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن الأصنام خرجت من جزيرة العرب إلى المناطق المجاورة وتشير الإحتمالات إلى العراق كمكان لتصدير عبادة الأصنام إلى الجزيرة العربية.

عرفت الجزيرة العربية أيضا بعض الأديان التى ظهرت وانتشرت فى الأقاليم المجاورة وهى المسيحية واليهودية والمجوسية. وقد ذكر القرآن الكريم الدين المسيحى والدين اليهودى بصور متعددة فى كثير من آياته. وذكر المجوسية فى آية واحدة مما يدل على انتشار المسيحية واليهودية وقلة انتشار المجوسية. ومن المعروف أن المسيحية أرسلت بعثات تبشيرية إلى عدة مناطق فى شبه جزيرة العرب إلا أن تلك البعثات لم يكن لها دور اجتماعى ثقافى علمى يذكر فى حياة العرب، فالمسيحية لم تنتشر إلا بين عدد محدود من الناس ولم تتمكن من نفوسهم تمكنا عميقا بحيث تصبح ظاهرة ولم تحدث ثورة كما أحدثت عند غير العرب فى الشام وأوربا ومصر.

من هذا المنطلق يمكننا القول بأن جزيرة العرب كانت لها إتصالاتها مع العالم الخارجى، وكان لأهلها رحلات خارجية إلى كثير من البلاد الأخرى وقد تعرضت لثقافات أجنبية بيد أن هذه المؤثرات لم تكن عميقة أو واسعة بحيث تحدث تأثيراً أساسيا فى سكان الجزيرة. ولذلك كانت جزيرة العرب فى حاجة إلى أن تأتى الثورة من داخلها تغير من نظمها الإجتماعية والسياسية والفكرية.

لقد كانت شبه جزيرة العرب عند ظهور الإسلام مفككة سياسياً فلم تتكون فيها دولة كبيرة تسيطر عليها أو على أجزاء واسعة فيها، وإنما كان فيها عدد من الحكام يسيطر بعضهم على أقاليم جغرافية محدودة كالذى كان فى اليمن واليمامة وعمان. كما اتخذت بعض المدن مثل مكة والمدينة نظماً خاصة بها وكان النظام القبلى سائداً فى عمومها وكان البدو الرحل عماداً لاقتصادها، وكانوا يغيرون على بعضهم البعض ويقتصر سلطان شيخ القبيلة على القبيلة التى ينتمى إليها فقط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يصلنا كما ألمحت من قبل إلا النزر اليسير من الوثائق المكتوبة التى تكشف لنا عن حياة العرب وربما كان الشعر هو أساس معلوماتنا عن الحياة بمختلف جوانبها فى جزيرة العرب، بما لا يكفى لتكوين صورة حقيقية وواضحة الحدود والمعالم والأبعاد لذلك استحقت تلك الحقبة أن يطلق عليها اصطلاح العصر الجاهلى. وبالتالى لم يصلنا منه كتب بالمعنى الذى ذهبنا إليه.

وكما رأينا لم ينتج لنا العصر الراشدى سوى الكتاب الأعظم القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أرسى قواعد العلوم وحث على العلم ووضع اطار البحث العلمى وأخلاقياته. وقد وصلتنا إشارة عن وجود بعض الكتب فى العصر الأموى أقرب إلى الرسائل أو المقالات ذات الموضوع الواحد كما سنرى ذلك فيما بعد عند حديثنا عن المكتبات عند المسلمين.

يوصف العصر الأموى على وجه العموم بأنه عصر إمحال وجدب فكرى ولم يكن عصر إنتاج فكرى ولم يكن فيه مؤلفون ذوو شأن وخطر. وإن كان الدكتور محمد ماهر حمادة - يرحمه الله - يرى أن الصورة فى العصر الأموى لم تكن بتلك القتامة، ويرى أن أول من أمر بتدوين القصص والأخبار والتواريخ هو معاوية بن أبى سفيان، ذلك أن معاوية بعد أن استتب له الأمر أراد أن يكون عنده من يحدثه عن الزمن الماضى وما كان يحدث فيه وهل كان فيه ما يشبه ما كان فيه. وقيل لمعاوية ساعتها أن بحضرموت رجلاً معمراً اسمه آمد بن آبد الحضرمى فأتى به كما ورد عليه من اليمن أيضاً عبيد بن شرية الجرهمى وهو أيضا من المعمرين وكان آية باهرة فى معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يرويها مشفوعة بالقصائد الرنانة فأمر معاوية كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية فى كل مجلس سمر فيه معاوية. وكان معاوية يعجب أيما إعجاب بما يلقيه عليه عبيد بن شرية الجرهمى ويستزيده من إيراد الشعر لأن الشعر كما قال معاوية ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينها فى الجاهلية فكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية. كذلك فإنه من غير المعقول أن تكون العلوم والمؤلفون والمترجمون الذين وجدوا فى العصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العباسى قد نبتوا من فراغ وظهروا فجأة دون مقدمات ودون جذور لهم فى العصر الأموى وهناك الكثير من الأدلة العقلية والشواهد التى تثبت وجود كتب ومكتبات فى العصر الأموى وتؤكد أن الترجمة والتدوين والتأليف بدأت فى ذلك العصر وإن لم تمثل ظواهر يعتد بها وتؤثر فى المسار العام للحركة الفكرية الإسلامية.

عندما جاء العصر العباسى تفجرت ينابيع الفكر تدريجياً وكانت هناك ثلاثة روافد رئيسية تمد هذه الينابيع بثمارها:

أ - الرافد الأول تمثل فى **التراث العربى** الذى كان يتم تداوله شفاهة قبل الإسلام وفى العصر الأموى ومطلع العصر العباسى ومن ثم بدأ تدوينه كتابة وتمثل هذا التراث فى الشعر والتاريخ والأنساب والأمثال والأخبار...

ب - الرافد الثانى تمثل فى **التأليف** حيث فتح الإسلام شهية المسلمين لإنتاج فكرى خصب وخلق جيلاً بعد جيل من المؤلفين الذى سيطروا على منهج البحث العلمى واطلعوا على علوم الأمم الأخرى وتمثلوها ونسجوا على غرارها وربما تفوقوا عليها.

ج - الرافد الثالث تمثل فى **الترجمة**، حيث قام العرب بترجمة الكتب الأجنبية عن لغات مختلفة كاليونانية والسريانية والرومية والفارسية والهندية وغيرها. وكان المصطلح الذى يستخدمه العرب فى عملية الترجمة هذه هو النقل والمترجمون كان يطلق عليهم مصطلح النقلة.

***

حث الإسلام على طلب العلم وحث فى نفس الوقت على التأليف ووضع العلم فى خدمة خلق الله للانتفاع به واستعاذ رسول الله من علم لا ينتفع به. ولقد حدد حاجى خليفة التأليف الأصيل بسبعة أنواع فقال إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عاقل إلا فيها وهى:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - إما شئ لم يسبق إليه فيخترعه.

٢ - أو شئ ناقص يتممه.

٣ - أو شئ مغلق يشرحه.

٤ - أو شئ طويل يختصره دون أن يخل بشئ من معانيه.

٥ - أو شئ متفرق يجمعه.

٦ - أو شئ مختلط يرتبه.

٧ - أو شئ أخطأ فيه مصنفه فيصلحه.

والنوع الحقيقى من التأليف هو الأول الذى يصل إلى مرتبة الاختراع وما عداه يأتى دونه وفى مرتبة تالية. ويقول حاجى خليفة فى نفس السياق «وينبغى لكل مؤلف كتاب فى فن سبق إليه أن لا يخلو من خمس فوائد استنباط شئ كان معضلاً أو جمعه إن كان مفرقا أو شرحه إن كان غامضا أو حسن نظم وتأليف وإسقاط حشو وتطويل».

ومن واقع دراستى المستفيضة لفهرست ابن النديم يمكننا تحديد المسئولية الفكرية فى الكتاب الإسلامى على نحو ثلاثين مسئولية نسردها على الوجوه الآتية:

١ - التأليف

٢ - التصنيف

٣ - العمل

٤ - الصنعة

٥ - الرواية

٦ - الإختيار

٧ - الإختصار

٨ - النقض - الرد

٩ - الشرح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠ - التعاطى
١١ - المجالس
١٢ - المحاسبات
١٣ - المناظرات - المداعبات
١٤ - الإلحاق - التتمة - الوصل - الزيادة.
١٥ - النحلة والإنتحال.
١٦ - الحفظ
١٧ - السماع
١٨ - القراءة
١٩ - الأخذ
٢٠ - التفسير
٢١ - النقل
٢٢ - الإصلاح
٢٣ - الحكاية
٢٤ - المكاتبات - الترسلات
٢٥ - الإستدراك
٢٦ - التبصرة - الحاشية
٢٧ - الإنتزاعات
٢٨ - الأمالى
٢٩ - الجمع
٣٠ - التجريدات

وهذه المسئوليات رغم الفروق القائمة بين فئاتها المختلفة تندرج تحت واحد من أقسام التأليف السبعة التى أشار إليها حاجى خليفة والتى أتينا عليها سابقاً. والتأليف ليس من الضرورى أن يكون مكتوباً مدونا بل يمكن أن يقع مشافهة على عكس التصنيف الذى هو علامة على التدوين. ولذلك حث علماء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمين على التأليف عامة وعلى التصنيف خاصة ومن هنا يقول ابن الجوزى فى صيد الخاطر:

«رأيت من الرأى القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة لأنى اشافه فى عمرى عدداً من المتعلمين واشافه بتصنيفى خلقا لا يحصون ما خلقوا. ودليل هذا انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من شيوخهم فينبغى للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد فإنه ليس كل من صنف صنف. وليس المقصود جمع شئ كيف كان وإنما هى اسرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عباده فيجمع ما شتت أو يشرح ما أهمل؛ هذا هو التصنيف المفيد. وينبغى اغتنام التصنيف فى وسط العمر لأن أوائل العمر زمن الطلب وآخره كلال الحواس وربما خان العقل والفهم من قدر عمره وأن يكون التقدير على العادات الغالبة لأنه لا يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ وأعين على تحصيل المطالب. فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب أو كان فى أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريده فى هذا الأوان أخر التصنيف إلى تمام خمسين سنة ثم ابتدأ بعد الخمسين فى التصنيف والتعليم إلى رأس الستين ثم يزيد بعد الستين فى التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعلل التصانيف(*) إلى رأس السبعين فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه أو تصنيف يفتقر إليه فذلك أشرف العدد للآخرة».

ويقول ابن جماعة فى «تذكرة السامع» فى نفس هذا الاتجاه أن الاشتغال بالتصنيف والجمع من تمام الفضيلة وكمال الأهلية فإنه - أى المصنف - يطلع على خفايا الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة.

(*) أى يصححها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويؤكد الخطيب البغدادى من فوائد التصنيف أنه يثبت الحفظ ويذكى القلب ويشحذ الطبع ويجيد البيان ويكسب جميل الذكر وجزيل الأجر ويخلده إلى آخر الدهر.

كذلك حمد التصنيف بالشعر إلى جانب الحث عليه بالنثر وعلى سبيل المثال ما قاله السرى بن أحمد الكندى:-

كن للعلوم مصنفاً أو جامعاً * * يبقى لك الذكر الجميل مخلداً.

كم أديب ذكره بين الورى * * غض وقد أودى به صرف الردى.

ويبلغ الحث على التأليف والتصنيف أقصاه فى قول السبكى «ينبغى للمرء أن يتخذ كتابة العلم عبادة سواء توقع أن تترتب عليها فائدة أم لا».

ولكن على الجانب الآخر نجد ابن خلدون يحذر فى مقدمته من كثرة التأليف فى الموضوع الواحد فيقول ما نصه:

«إعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الإصطلاحات فى التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولابد دون رتبة التحصيل فيمثل ذلك من شأن الفقه فى المذهب المالكى بالكتب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل... وهى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى فى واحد منها».

وكما اهتم المؤلفون المسلمون بالمحتوى العلمى للكتب التى يضعونها فإنهم حفلوا أى احتفال بالقالب الذى يضم تلك المعلومات ولا أعنى به هنا الوسيط الذى تكتب عليه المعلومات وإنما أعنى بها اللغة التى تكتب بها المعلومات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأسلوب الذى تصاغ به وطريقة العرض التى تسرد بها المحتويات وتتتابع. أنظر إلى الجاحظ ينبه إلى اختيار الأسلوب السلس المستطاع فهمه والذى يعبر عن مقصود المؤلف والبعد عن الألفاظ السوقية ويحذر من الحشو والإطالة التى لا مبرر لها. يقول الجاحظ:

«وليس الكتاب إلى شئ أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الرواية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن الألفاظ السفلية والحشو ويحيطه من غريب الألفاظ ووحشى الكلام. وليس له أن يهذبه جدا وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق إلا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضوله وأسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم أفهاما مراراً وتكراراً لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم».

وفى نفس هذا الاتجاه يقول ابن المدبر فى الرسالة العذراء:

«وأدر الألفاظ فى أماكنها واعرضها على معانيها وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها ولا تجعلها نافرة قلقة فمتى صارت كذلك هجنت الموضوع الذى أردت تحسينه واعلم أن الألفاظ وأماكنها كرقع الثوب الذى إذا لم تتشابه رقاعه تغير حسنه».

إننا إذا استعرضنا المؤلفات الإسلامية الباكرة أمكننا تمييز أربع طبقات من المؤلفين: **مؤلفون** لديهم علم غزير ويقدرون على تقديم هذا العلم والتعبير عنه؛ **ومؤلفون** تعبيرهم أكبر من علمهم فهم يطيلون ويسهبون فى معلومات قليلة محدودة فهم يجيدون العرض ولا يجيدون التصنيف والتأليف. **ومؤلفون** لديهم معلومات غزيرة حسنة ولكن لا يجيدون عرضها وبسطها وتوصيلها للقراء والمستفيدين؛ **ومؤلفون** لا علم عندهم ولا أسلوب أو طريقة عرض لديهم. وهم فى حقيقة الأمر ليسوا بمؤلفين بل هم أدعياء. ويبدو أن طبيعة البشر واحدة فى الزمان والمكان فهذا الأمر ينطبق فى كثير من الأزمنة والأمكنة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد حذر الثقاة من الفئات الثلاثة الأخيرة وإن كان بدرجات متفاوتة وحذروا من الفئة الأخيرة بشدة وخاصة فى مسائل الدين والفقه والشريعة. يقول ابن جماعة فى هذا الصدد محذراً من مؤلفات من لا علم لهم ولا معرفة بما يؤلفون «وأما من لم يتأهل لذلك فالانكار عليه نتيجة لما يتضمنه من الجهل وتقرير من يقف على ذلك التصنيف ولكونه يضيع زمانه فيما لم يتفقه به ويدع الإتقان الذى هو أحرى منه». ويقول السخاوى عن البلقينى «بلغت مصنفاته ثلثمائة كتاب وكان يكتب فى كل فن سواء أتقنه أو لم يتقنه» ويقول نفس المؤلف عن قاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩هـ «أن كلامه أوسع من علمه».

ويقول خليل بن أيبك الصفدى فيما كتبه عن محمد بن هلال غرس النعمة «كان يجازف فى تاريخه ويذكر ما ليس بصحيح» كذلك عاب ابن حجر العسقلانى على ابن دحية الكلبى الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٣هـ نفس المجازفة فى العلم حيث قال «كان مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير له متهما بالمجازفة فى النقل وبلغ ذلك الملك الكامل فأمر أن يعلق ويصنف شيئاً على كتاب الشهاب فعلق كتابا تكلم فيه عن أحاديثه وأسانيده فلما وقف الكامل على ذلك قال له بعد أيام قد ضاع شئ من ذلك الكتاب فعلق لى مثله فجاء فى الكتاب الثانى مناقضة للأول فعرف السلطان عنه صحة ما قيل عنه وعزله من دار الحديث».

ومن المؤلفين الأدعياء من كان يوقع نفسه فى حرج شديد بسبب ادعائه العلم حتى ليخترع أسماء كتب لا وجود لها ومن هؤلاء نذكر صاعد البغدادى الذى جازف ووضع أسماء بعض الكتب الوهمية وقد أراد المنصور أن يختبره فى ذلك فسأله عن عنوان كتاب لفَّقه من عنده: هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب «الكواكب والزوابل» الذى ألفه مبرمان بن يزيد فقال نعم رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر دريد بخط كراع النمل فقال له المنصور أما تستحى يا أبا العلاء من هذا الكذب، هذا كتاب (خطاب) عاملنا يذكر فيه أن الأرض قد قلت وزبلت فأخذت من قوله ما سألتك.. فأخذ صاعد يحلف إنه صادق القول.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الصنف الثانى الذى لديه معلومات غزيرة صحيحة ولكن لا يحسن التعبير عنها، أسد بن موسى المروانى المتوفى سنة ٢١٢هـ والذى قال عنه النسائى «ثقة لو لم يصنف كان خيراً له».

وقد أخذ خليل بن أيبك الصفدى على معاصره شيخ الربوة محمد بن على أبى طالب تهوره فى العلم وجرأته فى الإقدام على التأليف دون تمكن ونص كلامه عنه: «من أذكياء العالم له قدرة على الدخول فى كل علم وجرأة على التصنيف فى كل فن، رأيت له عدة مصنفات حتى فى الأطعمة وفى أصول الدين على غير طريقة اعتزال ولا أشاعرة ولا حشوية لأنه لم يكن له علم وانما كان ذكيا فيوما أجده وهو يرى رأى الحكماء، ويوما أراه يرى رأى الأشاعرة، ويوما أراه يرى رأى الإعتزال ويوما أراه يرى رأى الحشوية. وكان يتكلم فى الأوفاق، ويتكلم عن أسرار الحروف، ويعرف الرمل جيدا، وله فى كل شئ يتكلم فيه تصنيف، وكان يتكلم فى علم الكيمياء ويدعى فيها أشياء والظاهر أنه كان يعرف ما يخدع به العقول ويلعب بألباب الأغمار».

* * *

وكان المؤلف المسلم يحب مراجعة وتنقيح ما يكتب إما بعد كتابته مباشرة أو بعد طرحه فى السوق وتداول الناس له وابداء رأيهم فيه، بل وأكثر من هذا كان بعض المؤلفين يطلب من غيره النظر فيما يكتب ليقول له رأيه وخاصة فى حالة المؤلفين المبتدئين ممن لا خبرة طويلة لهم والذين يتلمسون لهم طريقاً إلى الشهرة والمعرفة. وقد كتب المؤلفون العرب فى هذا الصدد قطعاً من النصائح الذهبية بعد خبرة طويلة فى التأليف فيقول ابن جماعة «ولا تخرج تصنيفك إلا بعد تهذيبه وتحريره والنظر فيه» وقد نصح النووى نفسه قبل أن ينصح المؤلفين فكان يراجع أعماله مراجعة دقيقة قبل طرحها على الناس، كما أن السجستانى مؤلف كتاب غريب القرآن ظل يكتب فيه لمدة خمس عشرة سنة وكان يراجعه معه أستاذه ابن الأنبارى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أن الجاحظ وهو من هو فى التأليف والفكر يطالب دائما بمراجعة ما كتب المؤلف وتنقيحه بصفة مستمرة ويعقد المقارنة بين الكتاب والولد، فالكتاب كالولد جميل كأجمل ما يكون فى عين أبيه وإن كان قبيحا فى عيون الآخرين لأن الوالد يرى فقط محاسن إبنه ولا يرى مقابحه. ويقول الجاحظ فى هذا الصدد أن صلة الكاتب بما يكتب أقرب رحماً من صلة الوالد بولده وربما أضره ما يكتب ولم يضره أحد من أولاده. والجاحظ هنا ينطلق من تجارب عملية فإنه نتيجة السرعة وعدم المراجعة وقع فى بعض الأخطاء العلمية كما حدث له فى مواضع متفرقة من كتاب البيان والتبيين.

وهذا هو ياقوت الحموى يأخذ مثل هذه المآخذ على كتاب الأغانى للأصفهانى فيذكر: «وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مراراً وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ونقلت منه إلى كتابى الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشئ ولا يفى به فى غير موضع منه لقوله فى أخبار أبى العتاهية [وقد طالت أخباره هاهنا وسنذكر خبره مع عتب فى موضع آخر] ولم يفعل. وقال فى موضع آخر [أخبار أبى نواس مع جنان إذا كانت سائر أخباره قد تقدمت] ولم يتقدم شئ... وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شئ أو أن يكون النسيان غلب عليه والله أعلم».

وابن النديم فى الفهرست ترك فراغات كثيرة وعد بأن يملأها بالمعلومات الناقصة فيما بعد ولكنه لم يفعل ونشر الكتاب على الناس، وهو يطبع الآن بهذه الفراغات التى لم يراجعها ولم يلغها أو يسددها. وقد بلغت تلك الفراغات حسب دراستى لها تفصيلا ٢٦١ فراغاً منها ما يتعلق بنماذج لم يحصل عليها فى حينها فترك لها مكانا لاستيفائها فيما بعد، ومن الفراغات ما يتعلق بتواريخ الميلاد وتواريخ الوفاة، ومنها ما يتعلق بأسماء الكتب أو أسماء الأشخاص أو أسماء المدن أو البيانات العادية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وابن المدبر ينصح المؤلفين أيضا فى نفس هذا الاتجاه فيقول للواحد منهم «إذا منيت بحب الكتابة وصناعتها وتأليفها وجاش صدرك أو نفسك الى تأليف الكلام المنشور فلا تدعوك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق إلى عشيقه ولكن إعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره فإن أصغوا إليه وأدنوا له وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطلبوه منك فاكشف عن تلك الرسالة أو الخطبة واشهر اسمك وانسبه إلى نفسك وإن رأيت عنه العيون منصرفة والقلوب عنه واهيّة فاستدل به على تخلفك على الصناعة وتقاصرك عنها واسترب رأيك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة.

والنصيحة بمراجعة العمل قبل طرحه على الناس وضع طبيعى لأنها سعى نحو الكمال ذلك أن المؤلف قد تعرض له الفكرة فيسجلها بسرعة حتى لا ينساها أو تضيع منه تداعياتها وقد صوروا إلحاح الفكرة على المؤلف بضرب السياط ويقول الجاحظ فى هذا المعنى: «وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدى عند ضربه وعقابه فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطبع فأراه السكون فى الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد غضبه فأراه الغضب أن الرأى فى الإكثار، وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو مقدار سطرين فيكتب عشرة والحفظ مع الإقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد».

وكان بعض الكتّاب يعيد النظر فى كتابه ويصدر منه إصدارات أو نسخات أو ما كانوا يطلقون عليه فى ذلك الزمان «**عرضات**» وهى بمثابة الطبعات فى زماننا هذا وقد كان ذلك أمراً طبيعياً لمحاولة المؤلف الزيادة أو التنقيح أو التهذيب أو الحذف من الإصدارة الأولى للعمل. وهناك المئات من الكتب الإسلامية التى خضعت لعمليات التنقيح بعد النشر ومن ثم إصدار عرضات أو إصدارات مختلفة منها أتيت على جانب منها فى دراستى للفهرست لابن النديم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول ابن النديم عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ «هذا الكتاب نسختان أولى وثانية والثانية أصح وأجود ويقول عن كتاب الخراج للكوذاتى أنه نسختين أولاهما عملها فى سنة ست وعشرين والثانية سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أى بين الإصدارتين عشر سنوات. كما يقول عن كتاب النوادر لأبى عمرو الشيبانى أنه ثلاث نسخ كبيرة ووسطى وصغيرة».

ولعل أحسن مثال على ما ذهبنا إليه كتاب الجمهرة لابن دريد «مختلف النسخ، كثير الزيادة والنقصان لأنه أملاه بفارس وأملاه ببغداد من حفظه فلما اختلف الإملاء زاد ونقص ولما أملاه على غلامه تعلم من أول الكتاب. والبقية التى عليها المعول هى النسخة الأخيرة وآخر ما صح من النسخ نسخة أبى الفتح عبيد الله بن أحمد النحوى لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه».

والنص الطويل الآتى الذى أورده ابن النديم تحت كتاب **الياقوت فى اللغة** لأبى عمر الزاهد يشرح مفهوم العرضة وكيف تتم الزيادة والحذف والتنقيح بين النسخات المختلفة: ـ

«وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد صاحب أبى العباس ثعلب ابتدأ بإملاء هذا الكتاب كتاب الياقوت يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ست وعشرين وثلاثمائة فى جامع المدينة مدينة أبى جعفر إرتجالاً من غير كتاب ولا دستور فمضى فى الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره وكتبت ما أملاه مجلساً مجلساً.

«ثم رأى الزيادة فيه فزاد فيه أضعاف ما أملى وارتجل يواقيت أخر واختص بهذه الزيادة أبو محمد الصفار لملازمته وتكرير قراءته لهذا الكتاب على أبى عمر فأخذت الزيادات منه ثم جمع الناس على قراءة أبى إسحق الطبرى له فسمى هذه القراءة الفذلكة فقرأ عليه وسمعه الناس.

«ثم زاد فيه بعد ذلك فجمعت أنا فى كتابى الزيادات كلها وبدأ بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من ذى القعدة سنة تسع وعشرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثلاثمائة إلى أن فرغت منه وحصرت النسخ كلها عند قراءتى: نسخة أبى إسحق الطبرى ونسخة أبى محمد بن سعد القطربلى ونسخة أبى محمد الحجاجى.

«وزادنى فى قراءتى عليه أشياء فتوافقنا فى الكتاب كله من أوله إلى آخره ثم ارتجل بعد ذلك يواقيت أخر وزيادات فى أضعاف الكتاب واختص بهذه الزيادة أبو محمد وهب لملازمته ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبى إسحق الطبرى عليه هذا الكتاب، وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب فلا يكون بعدها زيادة وسمى هذه العرضة المحرابية. واجتمع الناس يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة فى منزله بحضرة سكة عنبر فأملى على الناس ما نسخته.

«قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد: هذه العرضة هى التى تفرد بها أبو إسحق الطبرى وآخر عرضة اسمعها بعده فمن روى عنى فى هذه النسخة بعد هذه العرضة حرفاً واحداً فليس هو من قولى وهو كذاب على وهى من الساعة إلى الساعة من قراءة أبى اسحق على سائر الناس وأنا أسمعها حرفاً حرفاً.

«قال أبو الفتح: وبدأ بهذه العرضة يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة».

ورغم النصائح التى كانت تسدى للمؤلفين بالبعد عن الحشو والإطناب والإستطراد إلا أن كثيرا من المؤلفين ربما بسبب تزاحم الأفكار فى رؤوسهم كانوا يلجأون إلى الاستطراد وينسون الهدف الأساسى من كتابهم فتضيع الفكرة الأساسية بين زحام الأفكار الجانبية الثانوية. وقد حذر الجاحظ من الحشو والإطناب بدون مبرر على النحو الذى عرضت له من قبل. ويبدو أن الانحطاط العام الذى حدث فى الإنتاج الفكرى فى العصر المملوكى قد أفرز هذه الظاهرة وبشدة فكثر الإطناب والحشو والإستطراد والتأليف الموسوعى على النحو الذى ذكره ابن حجر العسقلانى كثيرا، ومن الأمثلة التى ساقها عن أحد معاصريه:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد بن قاسم النويرى الذى ألف كتابا عن موضع حادث الإفرنج فى الإسكندرية سنة ٦٧٠هـ واستطرد فيه من شئ إلى شئ وبدأ بفتح مدينة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص واستمر حتى الحادث «فكان خبر الواقعة فى جانب ما ذكر كالشامة».

وكانت الكتب المليئة بالحشو هذه سببا فى ملل الناس فيتركونها. وقد بلغت بعض الكتب أكثر من أربعمائة مجلد كما هو الحال فى كتاب الفنون لابن عقيل. وكان ابن القيم طويل النفس ويبالغ فى الإيضاح فيسهب جدا.

وكراهية الحشو والتطويل تجئ من أنهما مدعاة للخطأ والتسطيح والبعد عن العمق على نحو ما لاحظه الذهبى على ابن الجوزى المكثر فى التآليف، المطنب فيها والمسهب حيث كان ابن الجوزى لهذا السبب «كثير الغلط فيما يصنف فإنه كان يفرغ من الكتاب **ولا يعتبره** وله وهم كثير فى تواليفه يدخل عليه الداخل من العجلة والتحويل إلى مصنف آخر ومن أن جل علمه من كتب صحف ما مارس فيها أرباب العلم كما ينبغى».

على أن مسألة الخطأ فى التأليف مسألة قائمة فى كل العصور وتأتى غالبا من عدم الإحاطة. وكثير من المؤلفين يعترفون بهذا إذ يبدلون أقصى جهدهم ومع هذا لا يأتى الكتاب خاليا من الأخطاء وهو أمر ملازم لطبيعة النفس البشرية البعيدة عن الكمال فالإمام الشافعى يقول «الفت هذه الكتب ولم آل فيها ولابد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ فما وجدتم فى كتابى هذا مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه».

* * *

وقضية ندم المؤلفين على تأليف كتاب معين وطرحه فى السوق والرغبة الشديدة فى سحب الكتاب من التداول قضية قديمة ظهرت أيضا بين المؤلفين المسلمين، ذلك أن المؤلف ربما يؤلف العمل فى ظروف نفسية أو إجتماعية أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقلية غير مواتية وبعد تداول الكتاب بين الأقران والقراء يكتشف المؤلف أن بالكتاب خللاً يسئ إلى تاريخه العلمى فيود لو سحبه من أيدى الناس. كان ذلك أمنية لدى بعض المؤلفين قديما من الصعب تحقيقها. ولكن مؤلف اليوم محظوظ إذ يكفل له القانون الآن هذا الحق ويؤمنه: حق سحب الكتاب من التداول. والجاحظ نفسه ندم على بعض كتبه وود لو سحبها كما وصلنا خبر عبد الحق بن هارون السهمى المغربى المتوفى سنة ٤٦٦هـ صاحب كتاب (النكت والفروق على كتاب المدونة)، والذى كان يعتبر بمثابة كتاب دراسى يرجع إليه طلاب العلم والشباب، حيث يقال عن هذا الكتاب أنه «ندم بعد ذلك على تأليفه ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته فيه واستدرك كثيراً من كلامه فيه وقال لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت».

ومن الطريف على الجانب الآخر من القضية أن بعض المؤلفين كان يصب جام غضبه ولعناته على من يحرف أو يغير فى كتابه أو ينهبه أو ينسبه لنفسه أو لغيره أو يطمس معالمه سواء كان ذلك من النساخين أو غيره من المؤلفين، حدث هذا فى معجم البلدان لياقوت الرومى. كما جاء أيضا فى حرد المتن بكتاب مروج الذهب للمسعودى حيث يقول هناك ما نصه:

«فمن حرف شيئاً من مبناه أو طمس واضحة من معانيه أو بدله أو انتحله أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا أو أسقط منه ذكرنا فعليه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله مثلة للعاملين».

وقد صادفنا مثل هذه اللعنات فى كتب العصور القديمة وخاصة فى الكتاب اليهودى على نحو ما فصلناه فى كتابنا (الكتب والمكتب فى العصور القديمة).

أوقات التأليف وبيئته

أمدتنا المصادر الإسلامية بنصوص طريفة حول سلوك المؤلفين المسلمين أثناء عملية التأليف والأوقات المفضلة عندهم لتسجيل المعلومات وكيفية تسجيلها ولحظات الإشعاع والتنوير ومدى إعتمادهم على المراجع أو على الذاكرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من حيث الأوقات المفضلة والمستحبة نجد ابن جماعة يقسم أوقات الحفظ والكتابة فيقول أن أجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل».

وإذا كان ابن جماعة قد جعل وسط النهار للكتابة فإن كثيراً من المؤلفين كانو يمارسون نشاطهم الفكرى أساساً فى الليل فهذا هو ابن دقيق العيد لا ينام الليل إلا قليلاً يقطعه بمطالعة وذكر وتهجد وكانت أوقاته كلها معمورة. وكان الفقيه موسى بن أحمد الوصابى المتوفى ٦٢١هـ، أكثر تأليفا بالليل لكثرة اشتغاله بالتدريس نهاراً. وعندما ترجم ابن حجرُ العسقلانى للأذرعى فى الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة وهو المتوفى سنة ٧٨٣هـ ذكر أنه كان يكتب فى الليل على شمعتين أو أكثر وأن بعض مشايخه كان يكتب فى الليل كراساً تصنيفاً وفى النهار كراساً تصنيفاً لا يقطع ذلك. وكان ابن سيد الناس إذا فتح له باب فى العلم انقضت تلك الليلة فى تلك المادة حتى فى شعر المتأخرين والمعاصرين. وكان أبو عبيدة يقسم الليل أثلاثا فيصلى ثلثه وينام ثلثه ويضع الكتب ثلثه الآخر. كما كان الإمام الشافعى يجزئ الليل ثلاث أجزاء: الثلث الأول للكتب والثلث الثانى للصلاة والثلث الثالث للنوم.

بعض المؤلفين لا يحدد وقتاً بل يقتنص لحظات الإشراق فى نفسه والتنوير فى عقله سواء بالليل أو النهار وعلى سبيل المثال ذكر عن الإمام البخارى أنه كان بمنزله ذات ليلة وكان معه زميل له لاحظ أنه قام وأسرج السراج ليتذكر أشياء ويعلقها فى ليلة واحدة ثمانى عشرة مرة. وقال محمد بن حاتم الوراق كنت أرى البخارى يقوم فى ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة. وفى كل مرة يأخذ القداحة فيورى ناراً ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه. ويقول ابن سينا فى هذا الاتجاه أيضا: كنت أرجع إلى دارى بالليـل وأضع السراج بين يدى واشتغل بالقراءة والكتابة ومهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب وريثما تعود إلى قوتى ثم أرجع إلى القراءة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان بعض العلماء يتناولون بعض المنبهات أو المسليات وربما المكيفات مثل أبو مسلم القشيرى صاحب صحيح مسلم. وكان قد نبه على حديث لم يصل إليه علمه فانصرف إلى داره وأوقد السراج وقال لمن فى الدار لا يدخلن أحدكم البيت، فقيل له: اهديت لنا سلة فيها تمر فقال قدموها إلى فقدموها إليه فكان يبحث عن الحديث ويأخذ تمرة بعد تمرة يمضغها فأصبح وقد فنى التمر ووجد الحديث.

وكان طاش كوبرى زادة «صاحب مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم» يتعاطى نوعاً من المكيفات أثناء عمليات التأليف وقد تسبب إدمانه لها فى ذهاب بصره فى أواخر حياته. كما كان محمد بن عمران المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤هـ يضع المحبرة وقصعة نبيذ أمامه فلا يزال يكتب ويشرب.

ويقال أن الشاعر بن محمد النامى المتوفى ٣٩٩هـ إذا أراد أن ينظم الشعر خلا خلوة طويلة أياما وليالى فإذا صاح فى داره جارية أو غلام كاد أن يقتله وانقطع تفكيره وخاطر الشعر عنه، وإذا أراد أن يعمل قصيدة جمع كل ما للعرب من الشعر على وزن تلك القصيدة وجعله حوله ونظر فيه حتى يجتلى معانيه وكانت القصيدة تتم له فى سبعة أشهر وربما أكثر من ذلك.

ويطالب ابن المدبر المؤلف ألا يضع نفسه فى قالب لا يخرج منه عند التأليف بل يطلب إليه أن يقتنص اللحظة المناسبة فهو يقول فى عبارة بليغة: «وابتغ لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف لأن سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها انما هو مع الهوة المفرطة فى الشر والمحبة الغالبة فيه أو الغضب الباعث منه ذلك».

ومما يذكر عن الفارابى أنه يهوى تأليف الكتب بين الأنهار والأشجار فقد قال عنه خليل بن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات أنه لما قدم دمشق كان يلازم غياض السفرجل وربما صنف هناك وقد ينام فتحمل الريح تلك الأوراق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتنقلها من مكان إلى مكان ويقال أن السبب فى وجود نقص فى بعض مصنفاته أنه كان لا يصنف إلا فى الرقاع لا فى الكراريس ومن هنا كانت الريح تطير أوراقه. وربما كان من هنا تحذير ابن جماعة للمؤلف وطالب العلم بقوله «ليس محموداً الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطريق وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب غالبا».

ويحكى عن البخارى أنه كان يصلى صلاة استخارة كلما جلس لتسجيل الأحاديث، وأيضا كلما انتهى من حديث توضأ وصلى ركعتين. وذكر نفس الشئ عن المزنى كان إذا فرغ من مسألة فى كتابه المختصر صلى ركعتين.

وكان بعض المؤلفين يفرح فرحاً شديداً كالأطفال أو أشد عندما تعن له فكرة أو يقع على موضوع مبتكر فهذا هو أبو بكر محمد النسفى المتوفى سنة ٤٢٤هـ، يحكى أنه بات ليلة مهموما من شدة التفكير وضيق الحال فوقع فى خاطره فرع من فروع الفقه فراق له وقام يرقص فى داره ويقول أين الملوك وأبناء الملوك فسألته زوجته عما به فأخبرها بصيده الثمين ففرحت له.

وكان المؤلفون المسلمون فيما يتعلق بالتأليف ينقسمون إلى فئتين: فئة تعتمد على ذاكرتها فهى تقرأ المصادر المختلفة وتستوعبها وتهضمها ثم بعد ذلك تفرزها بأسلوبها وطريقة عرضها الخاصة بحيث تضفى عليها طابعا شخصياً وتعلق وتحلل وتنقد ومن ثم يتسم عملها الجديد بالجدة والإبتكار والأصالة. وفئة تعتمد على النقل من المصادر اعتماداً مطلقاً أثناء عملية التأليف، وإذا أبعدت عنها المصادر توقفت عن التأليف لأن المعلومات لا تعلق بذهنها أو تستوعب فيها.

ورغم أن الفئة الثانية كانت هى الغالبة على التأليف الإسلامى، إلا أن التقدير والإحترام كان دائماً للفئة الأولى التى تهضم وتفرز ما تهضمه عسلاً مصفى. وتشير المصادر إلى القاضى أبى بكر الباقلانى كنموذج رائع على الفئة الأولى والذى قال عنه أبو بكر الخوارزمى عبارته الرائعة بأن كل مصنف فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه إلا الباقلانى فإن صدره يحوى علمه وعلم الناس؛ وقال عنه على بن محمد الجزرى، يهم القاضى أبو بكر الباقلانى بأن يختصر ما يصنعه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه. وكان له أسلوب محدد فى تسجيل معلوماته فقد ذكر عنه أن «ورده فى كل ليلة كان عشرين ترويحة ما يتركها لا فى حضر ولا فى سفر وكان إذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه **وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفا** من حفظه وكان يذكر أن كتابته بالمداد أسهل من كتابته بالحبر فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه فى ليلة وأمره بقراءته عليه وأملى عليه الزيادات فيه».

وعلى درب الباقلانى نجد العلامة على بن عبد الكافى السبكى المتوفى سنة ٨٧٦ هـ يكتب مؤلفاته دون الرجوع إلى كتب أخرى بل إنه يسجل النصوص الطويلة من حفظه. ويقول السبكى الإبن مؤلف طبقات الشافعية شارحاً طريقة أبيه فى التأليف أنه كان يكتب من حفظه وكان يفكر كثيرا ثم يكتب وربما كتب المتن من شرح المنهاج ثم نظر الكتب ثم وضعها من يده وانصرف إلى مكان آخر وجلس ففكر ساعة ثم كتب. وكثير من مصنفاته اللطاف كتبها فى درج ورق المراسلات يأخذ أوصالها ويثنيها طولاً ويجعل منها كراساً ويكتب فيه لأنه ربما لم يكن عنده ورق كراريس فيكتب فيها من رأس القلم وما ذلك إلا فى مكان ليس فيه لا كتب ولا ورق النسخ. ويحكى ابن رافع عن السبكى أيضا أنه سبقهم إلى البستان ولما جاءوا بعده وجدوه نائماً ولما نهض من نومه ودخل الخلا ظهر لهم كراس كان تحت رأسه فإذا هو جزء من شرح المنهاج كتبه عن ظهر قلب فى نحو عشر صفحات وعندما تصفحوها عجبوا لها لكتابته إياها من حفظه من كلام الرافعى والروضة وأكثر من هذا مما يحفظه عن سليم والمحرر وابن الصباغ.

كان إبن سينا أيضا من المؤلفين الذى يعتمدون على الفهم والاستيعاب ثم التأليف يقول عنه تلميذه الجوزجانى: طلبت منه اتمام كتاب الشفاء فاستحضر أبا غالب وطلب الكاغد والمحبرة فأحضرهما وكتب الشيخ فى قريب من عشرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جزءاً على الثمن بخطه رؤوس المسائل وبقى فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه بل من حفظه وعن ظهر قلبه ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد فكان ينظر فى مسألة ويكتب شرحها فكان يكتب فى كل يوم خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات.

هذه مجرد نماذج مشرقة من مؤلفين اعتمدوا على الفهم الصحيح والإستيعاب ثم التأليف المعتمد على النقد والتحليل والتأويل وليس على النقل والوصف فقط. ولكن على الجانب الآخر كان هناك من يعتمد على النقل دون أى جهد شخصى. وعلى سبيل المثال فقط يقول السخاوى فى معرض ترجمته للعينى عند حديثه عن كتابه شرح البخارى: إعتمد فيه على شرح ابن حجر العسقلانى بحيث ينقل منه الورقة بتمامها وربما اعترض لكن قد تعقبه شيخنا العسقلانى. وعن ابن سبط العجمى «مؤلفاته ممتعة ومحررة دالة على تتبع زائد واتقان وهو قليل المباحث فيها كثير النقل». كذلك كان المؤلف على بن حسين بن زكنون المتوفى سنة ٨٣٧ هـ فى كتابه الدرارى حيث يصفه السخاوى أيضا فى الضوء اللامع بقوله: وكتابه هذا فى مائة وعشرين مجلداً وطريقته فيه أنه إذا جاء لحديث الإفك - مثلا - يأخذ نسخة من شرحه للقاضى عياض فيضعها بتمامها وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم أو شيخه ابن تيمية أو غيرهما وضعه بتمامه ويستوفى ذلك الباب من (المغنى) لابن قدامة أو نحوه».

* * *

وسواء كان المؤلفون من الفئة الأولى أو من الفئة الثانية فقد كان هناك حرص عام على الأمانة العلمية بنسبة المعلومات والأفكار إلى أصحابها، سواء على وجه الإجمال أو إسناد الإقتباسات على وجه الخصوص ولم يكن هناك شذوذ عن تلك القاعدة إلا فى حالة الانتحال وسوف نعود إليه تفصيلاً فيما بعد. ولم يكن جمع المصادر والرجوع إليها لمجرد إثبات حقوق الآخرين والأمانة العلمية وحسب وإنما كان أيضا لإضفاء الصبغة العلمية على العمل الذى يقدمونه؛ بذكر المصادر التى استقوا منها المادة العلمية وأيضا لمن أراد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإستزادة فى الموضوع والتبحر فيه. وغالبا ما يأتى ثبت المصادر والإشارة إليها فى مقدمة الكتاب. كما تأتى الإقتباسات والإشارة إلى مصادرها فى علامات التنصيص فإنه كان يبدأ الاقتباس بعبارة تشير إلى المؤلف وربما إلى عنوان كتابه أيضا مثل يقول فلان ثم ينقل النص وعندما ينتهى النص المقتبس ويريد المؤلف أن يخرج منه إلى كلامه هو يكتب كلمة انتهى أو اختصارها اهـ، وأحيانا اه.

وكان حرصهم على جمع المصادر قبل الكتابة أمراً مألوفاً كما ورد فى كثير من الكتب التى عالجت الموضوع وللجاحظ فى هذا الصدد نص جميل ورد فى كتاب الحيوان حيث يقول:

«ولا يعلم حتى يكثر سماعه ولابد أن تكون كتبه أكثر من سماعه. ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يختلف إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه. ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب عنده أكثر من إنفاق عشاق القيان لم يبلغ من العلم مبلغا رضيّاً وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله».

ورغم أن أبا البقاء العكبرى كان ضريرا، إلا أنه كان إذا أراد التصنيف أمر باحضار كل المصادر المتعلقة بموضوعه وطلب أن تقرأ عليه وبعد أن يستوعبها يبدأ فى إملاء المعلومات على تلامذته وطلب إليهم إثبات المصادر التى يستقى منها معلوماته.

وكان الثقاة والراسخون فى العلم يتغامزون على من يعتمد على مصدر واحد أو عدد قليل من المصادر فهذا هو الرامهزى ينكر على بعض علماء عصره فى القرن الرابع الهجرى اعتمادهم على مصدر واحد أو قلة منها فقال «واقتصروا على ابتياع صحف درسوها واستعدوا فى الشغب عليها فإن حفظ أحدهم فى السنن شيئاً فمن صحيفة مبتاعة كفاه غيره مؤونة جمعه وشرحه وتبويبه من غير روايه ولا دراية فإن تعلق شئ منها يسير خلط الغث بالسمين والسليم بالجريم، ثم فخم ولفق من المسائل ما شاء وأنها والسنن المأثورة ضدان فإن قلت عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إسناد حديث تحير فيه المفتون وصار كالحمار فى الطاحون وإن شاهد المذاكرة نسمع ما ليس فى وسعه الجريان، فلجأ إلى الإزراء بفرسانه واعتصم بالطعن عن الركض فى ميدانه».

وكان هناك على الجانب الآخر من لا يذكر مصادره وربما يسوؤه أن يطلب منه أحد ذكر تلك المصادر. ومن الطرائف التى ذكرها جلال الدين السيوطى فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة والمتعلقة بهذا الموقف ما ورد تحت العلامة عمر بن أبى الحرم الدمشقى المتوفى سنة ٧٣٨هـ. إذ كان يتباحث مع بعض طلابه فى إحدى النقاط وطلب واحد منهم إليه أن يذكر له المصادر التى نقل منها واعتمد عليها فتضايق الشيخ وخلع نعله وكشف رأس الطالب وصار يضربه وهو يقول هذا هو المصدر الذى طلبته.

* * *

والرواية فى الكتاب الإسلامى هى أيضا كتب مؤلفة بمنهج علمى ومنطق وطريقة عرض ولكنها كتاب غير مدون ينتقل من جيل إلى جيل ومن مكان إلى مكان شفاهة. وكما أشرت من قبل وجدت قبل الإسلام وفى صدر الإسلام قبل أن يظهر التدوين ويعم، وانتشرت أيضا مع التدوين فترة طويلة من الزمن إلى أن اختفت وعم الكتاب المدون وساد. وقد حرص الرواة على نقل هذه الكتب بنصها فى الزمان والمكان ولكن إذا كانت الأحاديث النبوية نفسها قد نقلت أحيانا بغير نصها الذى قال به الرسول الكريم ويذكر الحديث بمعناه وليس بلفظه، وإن كانت هناك أحاديث قد دست على الرسول ولم يقل بها سواء كان ذلك عن حسن نية أو سوء قصد، إذا كان ذلك كذلك بالنسبة لأحاديث الرسول فإن الوضع بالنسبة للأعمال الأخرى أكثر حرجاً. ولذلك فإن كتب المرويات كانت أكثر عرضة للتغيير والتبديل فى نصها وأيضا فى معلوماتها رغم عمليات الإسناد والعنعنة. ومن الطبيعى أن يتفاوت حجم التغيير والتبديل ودس المعلومات أو بترها حسب سلسلة الرواه أنفسهم. ولهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن الأعمال التى وصلتنا من العصر الجاهلى كالشعر والأمثال والأخبار والخطب، كذلك الأعمال التى وصلتنا شفاهة من القرن الأول الهجرى وربما أيضا وإلى حد كبير الأعمال التى وصلتنا من القرن الثانى الهجرى، تلك المرويات يجب أن نتوقف أمامها طويلاً وندقق فى تفاصيلها؛ ولا يجب أن نأخذها قضية مسلماً بها على أنها النص الذى قال به صاحبه عندما قاله.

ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن الكتاب الواحد ربما يرويه أكثر من شخص واحد فى نفس الزمان ونفس المكان، وربما تكون هناك اختلافات بينهم فى الرواية سواء بالنص أو المعنى. ومثال ذلك «كتاب نوادر الأعرابى رواها عنه إثنا عشر إنساناً. وربما يتخصص راوٍ معين فى رواية أعمال مؤلف واحد لا يتخطاه إلى غيره فمما يذكر ابن النديم عن أبى مالك عمر بن كركرة أنه كان راوية أبى البيداء الرياحى. ومن الممكن أن يتخصص راوٍ فى موضوع واحد أو شكل واحد مثل عباد بن كسيب الذى «كان راوية للشعر عالما بأخبار العرب».

وإذا كان الراوية كذابا فهو مأساة فى توصيل المرويات كما كان الحال بالنسبة لنزرح العروضى الذى قال عنه ابن النديم «كان نزرح حافظاً راوية وكان كذاباً كثيرا ما يحدّث بالشئ عن رجل وعن غيره. وكان يونس النحوى يقول عنه: إن لم يكن نزرح أروى الناس فهو أكذب الناس».

ومن الحقائق البالغة الخطورة فى عصر المرويات أنه إذا لم يهيأ للكتاب راوية ينقله في الزمان والمكان مات الكتاب كما حدث لكتاب العين الذى وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدى حيث يقول ابن النديم عنه «ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد؛ ولا روى فى شئ من الأخبار أنه عمل هذا البتة» ولذلك لم يصل إلينا كتاب الخليل ولم يلحق بعصر التدوين فاندثر. ذلك أن الراوية فى عصر المرويات هو الناسخ فى عصر الخطاطة والمطابع فى الطباعة، هو أداة النشر والتوصيل فإن انقطعت أداة النشر والتوصيل مات الكتاب فى حلق مؤلفه وفى صدره. وليست قصة كتاب العين سوى أنموذج واحد لمئات من الكتب ماتت ولم تصل إلينا لأنه لم يقيض لها راوية يرويها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك لابد من التأكيد على أن الراوية ليس من الضرورى أن يكون مؤلفا ولكنه يقينا كان لابد وأن يكون دارساً محيطا بأبعاد ما يروى ويتعمق فيه وإلا كان كالببغاء يردد فقط ما يروى دون أن يعرف محتواه. يقول ابن النديم عن أبى سليمان الجوزجانى أنه أخذ عن محمد بن الحسن وكان ورعا دينا فقها محدثا وينزل فى درب أسد وتقرأ عليه كتب محمد بن الحسن؛ . . . ولا مصنف له وإنما روى كتب محمد بن الحسن.

ولخطورة الرواية وعلو شأنها فى عصر المرويات فإنها تعتبر رافداً هاماً من روافد الكتاب الإسلامى وهى كالتراث بالنسبة لعصر التدوين.

أما الرافد الثالث للكتاب الإسلامى إلى جانب التأليف والرواية فقد كانت الترجمة أو ما اصطلح المسلمون الأوائل على تسميته بالنقل وهى بطبيعة الحال نقل الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية إما بنصها فقط دون أى تدخل من المترجم أو مع شرح وتعليق على النص الأصلى. وباعتبار الترجمة رافداً هاماً من روافد الكتاب الإسلامى فلابد من الوقوف أمامها طويلاً ومليًا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

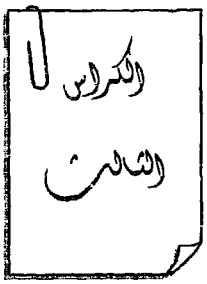

الترجمة والنقل إلى ومن العربية

سيادة اللغة من سيادة الدولة وخاصة السيادة السياسية، تلك حقيقة نصادفها عندما ساد الإغريق بعد الاسكندر الأكبر، سادت اللغة اليونانية، وعندما ساد الفرس، سادت اللغة الفارسية وعندما ساد الرومان سادت اللغة اللاتينية، وعندما ساد العرب سادت اللغة العربية، وفى عصرنا عندما ساد الإنجليز ومن بعدهم الأمريكيون سادت اللغة الإنجليزية وانتشرت.

وعندما انتشر الإسلام شرقاً وغرباً إنتشرت معه اللغة العربية وسادت بسيادته، واتسعت هذه اللغة لكثير من المفردات من اللغات الأخرى التى كانت منتشرة قبلها وهى اللغة اليونانية، اللغة الفارسية، اللغة السريانية، اللغة اللاتينية (الرومية) والهندية إلى حد ما. ولأنها كانت لغة القرآن عمد الكثيرون ممن دخلوا فى الإسلام إلى تعلمها ولأنها كانت لغة التأليف برع كثيرون منهم فى التأليف بها ورغب فى التأليف بها لأنها الأوسع انتشاراً؛ ومن ثم فمن يؤلف بها سوف يقرأ أكثر وتتداول كتبه على نطاق أوسع، وهو أمر يحدث فى أيامنا الآن عندما يؤلف مؤلف من دولة نامية باللغة الإنجليزية أو الفرنسية حتى يجد رواجا أوسع. وللغنى الفكرى فى الدولة الإسلامية كان لابد من الإنتفاع بفكر الدول الأخرى ومن هنا كانت الترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، ونادراً ما كان يحدث العكس أى الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى. ولعله من الجدير بالذكر أنه كان هناك اتجاه إلى ترجمة القرآن الكريم فى ذلك الوقت إلى اللغات الأعجمية ولكن العرب لم يقرُّوا ذلك كما لم يقرُّوا أداء الفرائض بغير لغة القرآن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنَّ من كان يعرف اللغة العربية من الأعاجم كانت لديه الفرصة لأن يسمع ويتباحث مع عدد أكبر من العلماء وكانت لديه الفرصة لأن يقرأ عدداً أكبر من الكتب وأكثر تنوعاً، كما يحدث اليوم عندما يتعلم طلاب الدول النامية وعلماؤها لغات الدول المتقدمة.

لقد كانت الظروف كل الظروف مهيأة فى الدولة العباسية للتأليف وبنفس القدر مهيأة لنقل علوم الأعاجم إلى اللغة العربية ولعل هذا هو ما حدا بالببليوجرافى العظيم ابن النديم أن يقول فى مقدمة الفهرست القصيرة «**هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم....**».

ويقول إبن النديم فى الفن الأول من المقالة السابعة كان خالد بن يزيد ابن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمدينة مصر [الاسكندرية] وقد تفصح بالعربية وأمر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى. وهذا أول نقل فى الإسلام من لغة إلى أخرى».

ويعود إبن النديم تحت نفس الشخص فى المقالة العاشرة ليقول «الذى عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية. وكان خطيباً شاعراً فصيحاً ذا رأى. وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جواداً».

وفى الفن الأول من المقالة السابعة المشار إليها سابقاً أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربى. وربما كان النقل لا يتم مباشرة إلى اللغة العربية فأحيانا كان يتم النقل إلى لغة وسيطة ثم منها إلى اللغة العربية. إذ كانت بعض الكتب تنقل مثلا من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية. وقد حفل فهرست ابن النديم بالكثير من ذلك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من جهة أخرى يقول د. محمد ماهر حمادة أن عمل خالد بن يزيد ابن معاوية فى النقل تعاصر مع عمل آخر فى النقل أمر به مروان بن الحكم مؤسس الفرع المروانى من السلالة الأموية ذلك أن ابن جلجل يذكر فى كتابه **طبقات الأطباء والحكماء** عند كلامه عن (ماسرجويه) الطبيب البصرى الذى عاش فى الدولة الأموية وتوفى أيام مروان بن عبد الحكم (٦٤ - ٦٥هـ)؛ أنه ترجم كتاب أهرن بن أعين القس إلى العربية. وكان أهرن هذا من الأطباء المعدودين الذين عاشوا فى الاسكندرية فى عصر هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) فى صدر الإسلام ووضع كتابا باللغة اليونانية ثم نقله إلى السريانية إلى أن قام بنقله إلى العربية ماسرجويه المذكور. ومن ثم يكون النقل إلى العربية قد تم إما فى زمان مروان بن الحكم أو قبل ذلك بفترة وجيزة طالما أن المترجم قد توفى فى زمن مروان بن عبد الحكم. ويذكر ابن جلجل فى نفس الترجمة أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) وجد هذا الكتاب فى خزائن الكتب الأموية وأنه استخار الله فى إخراجه إلى المسلمين وبثه فى أيديهم؛ فلما تم له ذلك أربعين صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه فى إيديهم.

وقد استمر النقل زمن الخلفاء الأمويين وصدر الخلافة العباسية فيعدد المؤرخون من النقلة زمن هشام بن عبد الملك ومن بينهم جبلة بن سالم كاتب هشام وكان ينقل من العربى إلى الفارسى. ونقل بعضهم شيئاً من تواريخ الأمم عن الفارسية لهشام بن عبد الملك. ولم يلبث مركز الترجمة والنقل أن انتقل من دمشق إلى بغداد بعد سقوط الدولة الأموية؛ زمن المنصور والرشيد والمأمون.

ورغم تلك الحقيقة التى تقول بأن المسلمين ترجموا أول ما ترجموا إلى العربية من اليونانية إلا أن الرأى الغالب هو أن المسلمين ترجموا أولاً عن الفارسية وربما كان ذلك صحيحاً فى عصر الدولة العباسية فقد اتجهت الدولة العباسية أولاً إلى تراث الفرس فترجموا منه عيون ما وصلهم وبحكم أن دولة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بني عباس قد قامت أساساً على اكتاف الفرس. ومهما يكن من أمر فسوف أتناول هنا جذور عملية الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية والهندية بشئ من التفصيل لنرى كيف سد هذا الرافد جانبا مهما من جوانب الكتاب الإسلامى فى تلك الفترة الخصبة من حياته.

الترجمة والنقل عن اليونانية

كان اليونان أو الإغريق يسكنون شبه الجزيرة اليونانية والجزر المحيطة بها وجزءاً من المدن على أطراف آسيا الصغرى الغربية. وكان اليونانيون فى بادئ تاريخهم عبارة عن مجموعة من الدويلات المنقسمة على نفسها أشبه ما يكون بالقبائل. وكما ذكرت فى أكثر من موضع كانت ثقافتهم وعلمهم فى البداية ثقافة شفوية وعلماً شفوياً ينتقل فى الزمان والمكان - كالعرب فى جاهليتهم - عن طريق التواتر. وكانت علومهم ومعارفهم فى البداية هى الشعر والأساطير والأخبار وظل هذا هو حالهم حتى القرن الخامس قبل الميلاد وكانت أثينا على وجه خاص هى مركز الثقافة والعلم والمعرفة. ولما احتك اليونانيون بالمصريين أخذوا منهم علوما كثيرة ومعارف جمة. وظهر بدءاً من القرن الرابع قبل الميلاد عدد من المفكرين والفلاسفة، وأبرزهم سقراط وأفلاطون وأرسطو. ومن المعروف أن اليونانيين قد أخذوا الأبجدية عن الفينيقية المأخوذة عن الأبجدية السينائية.

وعندما بدأ الإسكندر المقدونى بحكم مقدونيا أخذ يتوسع ويتوسع فأخذ يضم كافة المدن والدويلات اليونانية ويوحدها ثم مد ملكه إلى أواسط آسيا شرقاً وليبياً ومصر غرباً وفى ظل الاسكندر الأكبر وخلفائه من السلوقيين فى الشرق والبطالمة فى الغرب نمت العلوم واتسعت حيث نهل الإغريق من العلوم المصرية والعراقية والفارسية والتى ظهر على أعقابها ما عرف بالحضارة الهللينية. وكما أشرت من قبل كان للسيادة السياسية والتوسع العلمى أثر مباشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى سيادة اللغة اليونانية باعتبارها لغة الإمبراطورية اليونانية. وبالتالى كتب بها العلماء من جنسيات مختلفة وليس فقط من الجنس الإغريقى كما حدث على سبيل المثال فى عصرنا الحديث عندما قامت الإمبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس ولجأ المؤلفون والمفكرون فى الدول الواقعة تحت الإحتلال البريطانى بالكتابة والتأليف باللغة الإنجليزية وعن الهند حدِّث ولا حرج فى هذا السبيل حيث اتخذها الهنود لغة أساسية فى التعليم والتأليف ودواوين الدولة. كذلك كان الحال فى اليونانية فى ظل الإمبراطورية وإن انقسمت. وحتى بعد زوال الحكم اليونانى وتغلب الرومان عليهم ظلت اليونانية لغة للعلم فترة طويلة إلى جانب اللغة اللاتينية وإن كانت السطوة للرومان.

ولابد من التأكيد على أن اليونان - كالعرب - إستفادوا فائدة جمة من علوم الدولة التى فتحوها واستقروا فيها وأضافوا إليها وحفظوها من الإندثار وهذا هو حال الدنيا وتطور العلم فيها فانظر فى أيامنا دولة عظيمة مثل الولايات المتحدة التى ورثت علم العالم كله وهاجر إليها العلماء من كل حدب وصوب وتخيل ما كان عليه الحال فى الامبراطورية اليونانية وتمثل كيف هضمت علوم الأمم وكتبتها بلغتها ولابد من التوقف هنا أمام عبارة سارتون الشهيرة فى كتابه العظيم تاريخ العلم «من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم والعلم اليونانى **كان إحياءً أكثر منه اختراعاً**». ومن يريد تتبع العلوم التى نهل منها اليونانيون فليرجع إلى صوان الحكمة للبيهقى ومنتخب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى وأخبار الحكماء للقفطى وغيرها من الأمهات. فليس مجاله هنا.

وقد نقل ابن النديم فى الفهرست عن أبى سهل بن نوبخت فى كتاب النهمطان عبارات طويلة يجب أن نتوقف أمامها قليلاً:

«. . . الشرق وخاصة بابل، كانت العلوم فيه مزدهرة والكتب عنها كثيرة بما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى ذلك التنجيم والأدوية وظل ذلك حتى مجئ الإسكندر وقضائه على دولة الأخامينيين وإهلاكه ما كان من صنوف البناء من أنواع العلم الذى كان منقوشاً مكتوبا فى صخور ذلك وخشبه بهدم كل ذلك واحراقه وتفريق مؤتلفه ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك فى الدواوين والخزائن بمدينة اصطخر وقلبه إلى اللسان الرومى والقبطى ثم أحرق بعد فراغه من نسخ حاجته منها ما كان مكتوبا بالفارسية وكتاب يقال له الكشتج، وأخذ ما كان يحتاج إليه من علم النجوم والطب والطبائع فبعث بتلك الكتب وسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى بلاد مصر... فدرس ذلك العلم بالعراق وتمزق واختلفت العلماء وقلت وصار الناس أصحاب عصبية وفرقة».

ويؤكد ذلك ما قاله المبشر بن فاتك من أن الإسكندر أحرق كتب دين المجوسية وعمد إلى كتب النجوم والطب والفلسفة ونقلها إلى اللسان اليونانى وأنفذها إلى بلاده وأحرق أصولها».

ومن هذه الإشارة وإشارات كثيرة غيرها أريد أن أؤكد أنه ليس كل ما كتب باليونانية هو بالضرورة يونانى وكتابه يحملون الجنسية اليونانية بل لا أبالغ إذا قلت أن معظم المؤلفات التى كتبت باليونانية فى زمن الإسكندر الأكبر أو خلفائه أو حتى فى ظل الرومان كانت لمؤلفين غير إغريق؛ والسبب فى ذلك أن الحكام اليونانيين كانوا يرعون الفكر والتأليف ويثيبون عليه ولذلك زحف نحوهم المؤلفون من كل حدب وصوب من بلاد الفرس، ومن العراق والشام ومصر القديمة يكتبون باليونانية فى مقابل الأجر والمكافأة ولم يكن المؤلفون من تلك الأنحاء بحريصين فى ظل الأمبراطورية على إبراز النعرات الإقليمية لهم - كما حدث تماما فى ظل الإمبراطورية العربية الإسلامية - ومن هنا اعتبرت كل هذه المؤلفات إغريقية ودليلاً على عبقريتهم وإسهاماتهم. ولقد قام سارتون فى تاريخ العلم بتقصى أصول عدد من المصادر المكتوبة باليونانية وجذور عدد كبير من مشاهير المؤلفين الذين كتبوا باليونانية وحسبوا على الإغريق وأثبت أنهم جاءوا من أعراق غير يونانية بالمرة مما يؤكد ما ذهبت إليه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد ظلت اللغة اليونانية من حسن حظها لغة الكتابة والتأليف الدولية ربما حتى نهاية القرن الخامس الميلادى وكانت لغة الديانة المسيحية فى قرونها الأولى، أى أنها كانت لغة دولية ولغة الكتاب الدولى لما يقرب من ثمانية قرون.

لم يكن الإنتاج الفكرى اليونانى طوال تلك القرون بالشئ الهين وإن كان صغيرا إذا قيس بحجم الإمبراطورية اليونانية والرومانية من بعدها، ويكفى القول هنا أن مؤلفاً واحداً مثل أبقراط كان له أكثر من مائة كتاب وآخر مثل جالينوس كان له أكثر من مائة وخمسين كتاباً.

ويكشف ابن النديم بحسه الببليوجرافى الراقى عن أن الكتاب اليونانى يتفاوت فى حجمه وعدد صفحاته فهناك **الكتاب** وهناك **الرسالة** وهناك **المقالة**. وقد تنوعت موضوعات الكتاب اليونانى تنوعا عظيماً ما بين الآداب والعلوم الإجتماعية والتاريخ والفلسفة والطب والصيدلة والهندسة والكيمياء.

ويبدو أن عوامل الزمن قد فعلت فعلها فى الكتاب اليونانى ذلك أن الإمبراطورية الإسلامية عندما ازدهرت فى القرن الثامن الميلادى وبحث المسلمون عن ذلك الكتاب ليترجموه لم يجدوا سوى عدد محدود منه وفى نسخ محدودة أيضا رغم أن قسماً كبيراً من الدول التى كانت خاضعة للحكم اليونانى كانت ضمن الامبراطورية الإسلامية؛ مما اضطر المسلمين إلى أن يجوبوا بلاد اليونان نفسها وبيزنطة فى سبيل البحث عن تلك الكتب وصوائف الخلفاء العباسيين مشهورة معروفة بإهتمامها بغنائم الكتب اليونانية. وربما ساعد على قلة ما وجده المسلمون من كتب يونانية، أن اللغة اليونانية كانت قد بدأت فى الإنحسار التدريجى كلغة تأليف وإنتاج فكرى منذ أواخر القرن الخامس الميلادى وإن بقيت لغة للدواوين عند فتح العرب الأمصار التى كانت خاضعة للحكم الرومانى ومن قبله اليونانى، وتراجع الجاليات اليونانية التى كانت تقيم فى تلك المناطق وعودة الكثير منها إلى بلادها الأم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتذكر المصادر أنه رغم وجود عدد من مراكز العلم اليونانى قبل القرن السادس الميلادى مثل: نيقوميديا؛ انقرة؛ قيسارية؛ آنطاكية؛ وافاميا؛ الإسكندرية وغيرها إلا أنه عندما تكونت الدولة الإسلامية وتوسعت لم يكن هناك سوى الإسكندرية كمركز وحيد يعنى بالدراسات العلمية باللغة اليونانية وأكثر من هذا كان هذا المركز قائماً على عدد محدود من العلماء وكان أقرب إلى المدرسة منه إلى الأكاديمية وقد قام عمر بن عبد العزيز فى نهاية القرن الأول الهجرى بنقله من الإسكندرية إلى أنطاكية بقصد أن يكون قريبا منه وأن يبعث النشاط فيه وفى مدة حكمه القصيرة (نحو سنتين فقط) برز بعض المفكرين منهم طبيبان هما: عبد الملك بن ايجر وأهرن، وقد ترك كل منها كتاباً فى الطب.

* * *

وقد ألمحت من قبل إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية عندما خاب أمله فى الوصول إلى الحكم اتجه إلى الاشتغال بالعلم وكان أول من شكل لجنة للترجمة من اليونانية إلى العربية فى موضوع محدد هو علم الصنعة ويقصد به هنا علم الكيمياء. وإن كان ابن النديم قد ذكر موضوعات أخرى ترجمت فيها كتب يونانية أو جرت محاولة لترجمتها لنفس الشخص أيضا فقد ذكر ابن النديم أن «الذى عنى باخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء... ويقال انه صح له عمل الصناعة وله فى ذلك عدة كتب ورسائل. وله شعر كثير فى هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات؛ كتاب الصحيفة الكبير؛ كتاب الصحيفة الصغير؛ كتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة».

ومن هنا يكون أول موضوع نقل فيه العرب عن اليونان هو موضوع الكيمياء. وقد حصر ابن النديم فى المقالة العاشرة من الفهرست وهى آخر مقالات الببليوجرافيَّة كتب الكيمياء (أخبار الكيماويين والصنعويين) ومعظم الأسماء التى وردت لمؤلفين يونانيين، وبالتالى تكون أعمالهم قد ترجمت إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللغة العربية. ويحدد ابن النديم هنا أن «إصطفين القديم» نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها ولم يحدد لنا الكتب التى قام إصطفين هذا بنقلها أو الأصول التى ترجمها. بل ولا نجد فى أى من المصادر أسماء الكتب التى نقلت لخالد بن يزيد، إلا أن بول كراوس أشار إلى وجود مخطوطة فى برلين من كتاب (سر الأسرار) تأليف بولينياس ورد فى بدايتها إشارة إلى أن الكتاب ترجم لخالد بن يزيد.

ومن الكتب اليونانية التى ترجمت كما أشرت فى زمن عمر بن عبد العزيز كتاب كناش اهرن ولم يصلنا اسم مترجمه وبالتالى يكون قد ترجم فى العصر الأموى. وقد ذكر نالليno فى **تاريخ علم الفلك عند العرب** «كتاب فى أحكام النجوم» منسوبا إلى هرمز الحكيم منه نسخة فى مكتبة الامبروزيانا كتب فى نهايتها أن الترجمة تمت «فى ذى العقدة سنة ١٢٥ للهجرة» ولم يذكر هذا العمل فى مصدر آخر.

وقد سجل ابن النديم فى الفهرست أسماء المترجمين عن اليونانية مباشرة وجاء فى مقدمتهم اصطفين القديم الذى سبق وأشرنا إليه كمترجم لخالد بن يزيد، ثم ذكر بعده البطريق كأول مترجم فى الدولة العباسية، ترجم للمنصور؛ وأورد بعده اسم ابنه أبو زكريا يحيى بن البطريق.

وفى العصر العباسى كان الخليفة المنصور ثانى خلفاء بنى العباس هو أول من اهتم بأمر الترجمة والنقل ليس فقط من اللغة اليونانية وإنما أيضا من الرومية والفهلوية والفارسية والسريانية. ورغم ما قيل من أن سبب اهتمامه بالترجمة أنه كان ممعوداً فاستدعى لمعالجته من جنديسابور الطبيب جورجيوس إبن جبرائيل وكانت له خبرة واسعة بالتطبيب فعالج المنصور وشفاه من مرضه ومن ثم أصبح طبيبه الخاص فيما يقول ابن أبى أصيبعة ونقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب الإغريق إلى اللغة العربية؛ رغم هذا السبب فان المنصور كان من الخلفاء المثقفين الذى يهتمون بالعلوم والفنون والآداب، ليس فقط الثقافة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية الأصيلة من لغة وشعر وأدب وتاريخ ودين: فقه وحديث وتفسير؛ وانما أيضاً العلوم الأجنبية فقد قال عنه المسعودى فى مروج الذهب «كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم. . . وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند؛ وترجمت له كتب ارسطاطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارثماطيقى؛ وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وأخرجت للناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى عملها».

وذكر ابن النديم أن من بين المترجمين فى زمن أبى جعفر المنصور أيضا البطريق ويبدو أنه ليس إسما شخصيا وإنما وظيفة دينية (البطريرك) وإبنه أبا زكريا يحيى بن البطريق. وقد قال ابن النديم عن البطريق أنه كان له نقل كثير جيد إلا أنه أقل جودة من نقل حنين بن اسحق وقد وجد ابن النديم بنقله كتبا كثيرة فى الطب كتبها أبقراط وجالينوس، ويردف ابن النديم أن البطريق الأب هذا نقل إلى عمر بن الفرخّان كتاب **الأربعة** لبطليموس.

وتجمع المصادر على أن العصر الذهبى للنقل من سائر اللغات وعلى رأسها بطبيعة الحال اليونانية هو عصر هارون الرشيد وابنه المأمون «ذلك أن النقل أصبح فى زمانهما عملا رسميا تتولاه الدولة وتنفق عليه من موازنتها وتحشد له أعظم النقلة والعلماء والمفكرين وتؤسس له المؤسسات العلمية ويرتحل فى طلب الكتب العلمية والفلسفية والطبيعية ويراسل الملوك والحكام من أجلها».

أسس هارون الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بعملية النقل هذه، أو بنص الفهرست «النقل والملازمة» ثم تطورت هذه المؤسسة فى زمن إبنه المأمون وأصبحت أكاديمية للبحث العلمى وجمع الكتب وقد عرفت هذه المؤسسة باسم (بيت الحكمة) وكانت تحوى قاعات للدرس وقاعات لخزن وتنظيم الكتب وقاعات للنقل والترجمة وقاعات للتأليف إلى جانب مرصد فلكى والنشاط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلكي الذى مارسه الفلكيون. لقد جاءت من هذا المنطلق على غرار مكتبة الإسكندرية وتمثلتها. ومن بين المشرفين الذى عملوا فى هذه المؤسسة سهل بن هارون وسلم وهريم وكان من بين النساخين الرسميين فيها ورد ذكر علاّن الشعوبى. ولقد كان هارون الرشيد وابنه المأمون عالمين مثقفين مثل المنصور وكانا من الطبيعى أن يهتما إلى جانب الفكر العربى المحض بالفكر الأجنبى ويسعيان إلى نقله إلى العربية سواء كان ذلك الفكر يونانيا أو فارسيا أو هنديا أو سريانياً. وكان هارون الرشيد يأمر بجمع الكتب ووضعها فى بيت الحكمة؛ ويأمر بترجمة بعضها إلى العربية ولعل من بين هذه الكتب التى طلب ترجمتها كتاب اقليدس الذى ترجمه الحجاج بن يوسف بن مطر تحت عنوان (الهارونية) التى يظهر من اسمها أنها تمت فى عهد الرشيد وبأمره، وقد اعيدت ترجمة الكتاب فى زمن المأمون. ونفس الحجاج هذا هو الذى نقل كتاب المجسطى ليحيى بن خالد، كما نقل كتاب (المرآة) لأرسطو.

ويذكر إبن جلجل أن يوحنا بن ماسويه كان مسيحياً سريانياً قلّده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة ووضع له كتابا حذاقا يكتبون وقد خدم هارون والأمين والمأمون وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل.

رعى آخرون غير الرشيد حركة الترجمة فى عهده مثل أم جعفر بنت أبى الفضل، كما كان البرامكة أيضا من رعاة الترجمة ومن المعروف أنهم كانوا ذوى سلطان وعز فى عهده ثم ازيحوا عنه على يده أيضا. ومن النقلة للبرامكة ابن ناعمة: عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى وكان معنيا بالفلسفة فنقل كتاب سوفسطيقا والنصف الثانى من السماع الطبيعى لأرسطو وقد أصلح إبراهيم بن بكوش العشارى فيما بعد ما نقله ابن ناعمة. كذلك كان من النقلة للبرامكة سلام والأبرش ويوجد من نقلهما السماع الطبيعى. كما كان إسطاث يترجم ليحيى البرمكى، كما ترجم للكندى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما فيما يتعلق بالمأمون فقد أجمعت المصادر على أنه كان عالما ذا نظر فلسفى ومعتنقا مذهب الإعتزال الذى يمجد التفكير الحر ويدعو إليه. كما كان يجد لذة فى البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمى والتأليف والنقل فكان يجمع العلماء ويجعلهم يتناظرون بين يديه «وبعد أن تنتهى المناظرات التى يشترك فيها بنفسه أحيانا كثيرة يفيض عليهم المكافآت».

يذكر ابن الطقطقى أثناء كلامه عن المأمون أن له اختراعات كثيرة فى مملكته منها أنه أول من محض منهم (أى الخلفاء العباسين) عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها وحل اقليدس ونظر فى علوم الأوائل وتكلم فى الطب وقرّب أهل الحكمة. وهناك نصوص تدل على باع المأمون بالعلم وفهمه وذكائه وغوصه على دقائق المعانى، ذكر بعضا منها ابن النديم فى رد له قاس على الجاحظ، كما سجل الجاحظ نفسه بعضا منها.

ولعل أحسن وصف للمأمون ودعمه للحركة العلمية وحركة النقل فى عهده وانفاقه عليها من ماله الخاص هو ذلك الذى ورد فى طبقات الأمم للقاضى صاعد الأندلسى «لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع منهم (أى بنى العباس): عبد الله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور، تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجار لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعلمها فنفقت سوق العلم فى زمانه وقامت دولة الحكمة فى عصره وتنافس أولو النباهة فى العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوى الفنون والتعلم فى زمانه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهى الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها.

وكانت للمأمون مجالس كلام ونظر والقيم عليها هشام بن الحكم. ومن مناظراته المشهورة التى عقدها مناظرة الأخفش والكسائى لسيبويه.

يذكر محمد بن على العبدى أن المأمون كان فى بدء أمره - لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره - مولعا بالنظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى موجباتها، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك الساسانيين مثل أردشير بن بابك وغيره. وقد اجتهد المأمون فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها وواظب على قراءتها فافتن فى فهمهما وبلغ درايتها. ولما ترك المأمون خراسان وعاد إلى العراق ترك دراسة الفلك والتنجيم وانصرف إلى الإهتمام بعلم الكلام أى التوحيد. ويؤكد ابن النديم أن المأمون كان أعلم الخلفاء بالفقه والكلام «وأن له فيما يقال كتابان هما مناقب الخلفاء الأولين ورسالة فى أعلام النبوة».

وتؤكد المصادر أن المأمون قد ولع بالتراث اليونانى على وجه الخصوص. ويسجل ابن النديم سبب ذلك الإهتمام الشديد بالفكر الإغريقى من جانب المأمون بحلم يذكر المأمون أنه رآه فى منامه وكان ذلك من أخطر الأسباب التى جعلته يهتم بكتب الفلسفة اليونانية على وجه الخصوص. يقول ابن النديم فى فصل بعنوان «ذكر السبب الذى من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة فى هذه البلاد» أن المأمون رأى فى منام له رجلاً أبيض اللون مشرباً بحمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سرير؛ قال المأمون وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا أرسطوطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن؟ قال ما حسن فى العقل. قلت ثم ماذا؟ قال ما حسن فى الشرع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلت ثم ماذا؟ قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا؟ قال ثم لا ثم. وفى رواية أخرى قلت زدنى قال من نصحك فى المذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب».

ويجب أن نأخذ هذا الكلام بشئ من التحفظ؛ وإن كان الحلم قد حدث فربما كان لأن العقل الباطن للمأمون كان دائم الإنشغال بالفلسفة اليونانية كعلم وافد على العرب وسواء كان هذا الحلم أم لا فإنه كان مولعا بتراث اليونان، وكان سيهتم بنقله إلى اللغة العربية.

سار المأمون على نفس سياسة والده فى الصوائف حيث كان يخرج على رأس الغزوات الصيفية الموجهة إل المدن الكبرى وكان يحرص على الحصول على خزائن الكتب التى توجد فى المدن التى يفتحها ويرسلها إلى بغداد ولكنه زاد على والده ما أشرت إليه من قبل وهو مراسلة ملوك الروم فى القسطنطينية وصقلية وقبرص يطلب منهم إنفاذ ما عندهم من كتب يونانية وإرسالها إليه فى بغداد. كما كان يرسل بالبعوث المختلفة إلى بلاد الروم فى سبيل الحصول على تلك الكتب.

وفى هذا الصدد يذكر ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ من يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم المشرف على بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل. وقد قيل بأن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ومن المؤسف أن يقال بعد ذلك أن من أسباب ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم وتخليهم عن دينهم نقل التراث الفكرى اليونانى العقلى الفلسفى إلى اللغة العربية وذيوعه بين المسلمين وانشغالهم به. بل ذهب الإسفاف بالبعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى القول بأن عملية الترجمة هذه كانت مؤامرة قام بها البرامكة وقام بها الغرب المسيحى لتدمير الإسلام والمسلمين وتمزيقه من الداخل بعد عجزهم عن حربه والتغلب عليه من الخارج. ويذكر السيوطى نصاً عن الشيخ نصر المقدسى أورده فى كتاب (الحجة فى تارك المحجة.) فى هذا المعنى يقول فيه المقدسى إن دولة بنى العباس قامت على الفرس وكانت الرئاسة فيهم وفى قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الإسلام فأحدثوا فى الإسلام الحوادث التى تؤذن بهلاك الإسلام. ولولا أن الله تبارك وتعالى وعد نبيه ﷺ أن ملته وأهلها هم الظاهرون إلى يوم القيامة لأبطلوا الإسلام ولكنهم قد ثلموه وعوروا أركانه والله ينجز وعده إن شاء الله» ثم يقول بعد ذلك «فأول الحوادث التى أحدثوها إخراج كتب اليونانية إلى أرض الإسلام فترجمت بالعربية وشاعت فى أيدى المسلمين. وسبب خروجها من أرض الروم إلى بلاد الإسلام يحيى بن خالد بن برمك. وذلك أن كتب اليونانية كانت ببلد الروم، وكان ملك الروم خاف على الروم إن نظروا فى كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم فجمع الكتب فى موضع وبنى عليه بناء مطمئنا بالحجر والجص حتى لا يوصل إليها. فلما أفضت رئاسة بنى العباس إلى يحيى بن خالد وكان زنديقاً، بلغه خبر الكتب التى فى البناء ببلد الروم فصانع ملك الروم الذى كان فى وقته بالهدايا ولا يلتمس حاجة. فلما كثر عليه، جمع الملك بطارقته وقال لهم إن هذا الرجل خادم العربى أكثر على من هداياه ولا يطلب منى حاجة وما أراه إلا يلتمس حاجة وأضاف أخشى أن تكون حاجته تشق على. فلما جاءه رسول يحيى قال له: قل لصاحبك إن كانت له حاجة فليذكرها. فلما أخبر الرسول يحيى رده إليه وقال له: حاجتى الكتب التى تحت البناء يرسلها إلى أخرج منها بعض ما احتاج إليه وأردها إليه. فلما قرأ الرومى كتابه استطار فرحاً وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان وقال لهم: قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربى إنه لا يخلو من حاجة وقد أفصح بحاجته وهى أخف الحوائج إلى. وقد رأيت رأيا فاسمعوه فإن رضيتموه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعطيته. وإن رأيتم خلافه تشاورنا فى ذلك حتى تتفق كلمتنا فقالوا ما هو؟ قال حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما أحب ويردها. قالوا فما رأيك؟ قال قد علمت أنه ما بنى عليها من كان قبلنا إلا أنه خاف إن وقعت فى أيدى النصارى وقرأوها كانت سبباً لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم. وأنا أرى أن ابعث بها إليه وأسأله ألا يردها يبتلون بها ونسلم نحن من شرها؛ فإنى لا آمن أن يكون بعدى من يجترئ على إخراجها إلى الناس فيقعوا فيما خيف عليهم فقال نعم... نعم الرأى رأيت أيها الملك فامضه.

وواضح ما فى هذه الرواية من سخف وسذاجة ذلك أن وهن الدولة لا يمكن أن يأتى من ممارسة العلم والإشتغال وخاصة علم الفلسفة والمنطق، إنما وهن الدولة يأتى من الداخل: من الفساد والجهل والتخلف وعدم الأخذ بأسباب القوة وأخطر من هذا اللهث وراء المال والنساء.

ومما يكشف عن سخف هذه الرواية أنهم سحبوها على مناطق أخرى من العالم الغربى رغم أن الغرب كان فى أضعف وأسوأ أحواله. تذكر المصادر أن المأمون طلب من حاكم جزيرة قبرص أن يرسل له الكتب اليونانية الموجودة لديه وكانت عندهم مجموعة قيمة من الكتب فى بيت لا يظهر عليه أحد فجمع صاحب الجزيرة بطانته وذوى الرأى عنده واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانا واحداً فإنه قال: الرأى أن تعجل بانفاذها إليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها فأرسلها إليه فاغتبط المأمون بها.

ونفس هذه القصة بتفاصيلها قيلت عن صقلية إذ كان فى صقلية هى الأخرى خزانة كتب عظيمة مشهورة بكتبها الفلسفية والعلمية الغزيرة. وقد طلب المأمون إلى حاكمها أن يختار منها ما يحتاج إليه ثم يرده بعد نسخه، إلا أن الحاكم تردد فى إرسالها وكان بين الضن بها والحرص عليها من جهة والخوف من قوة المأمون وهيبة الدولة العباسية ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إليهم بطلب المأمون فأشار إليه المطران الأكبر بقوله: إرسلها إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة من الأمم إلا أفسدتها فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها.

هذا هو العبث بعينه أن يتحول برنامج الترجمة والنقل من الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى من برنامج فذ وعظيم إلى صورة كوميدية تسمه بالرغبة فى تخريب العقل العربى وتدمير الإسلام. وإن كان فى هذه النصوص حسنة فإنها تكشف عن أن المأمون قد وسع فى دائرة البحث عن المخطوطات اليونانية فكان يرسل البعوث هنا وهناك ولأكثر من مرة فى المكان الواحد فقد ذكر ابن أبى أصيبعة عند حديثه عن حنين بن إسحق أنه جاء إلى بغداد وهو شاب متحمس لطلب العلم والترجمة وكان يجيد اليونانية والسريانية ولكنه لا يتقن العربية ولذلك ترك بغداد متجها إلى بلاد فارس حيث كان هناك الخليل بن أحمد الفراهيدى النحوى ولازمه حتى أتقن العربية وبرع فيها وأدخل كتاب العين إلى بغداد. ومن المعروف أن حنين بن اسحق التحق بخدمة المأمون وعمل فى بيت الحكمة وتولى النقل والترجمة فيه. وكان المأمون يرسله للبحث عن الكتب النادرة فى بلاد الروم. وكانت إحدى المكتبات العظيمة قد أسست فى القسطنطينية سنة ٣٣٦م وعنى بعض الأباطرة بتوسيعها وتنميتها حتى بلغت مجموعاتها نحو مائة ألف وإن كانت قد تعرضت لبعض الحرائق العمدية أحياناً فى أوقات التعصب الدينى ولكنها كانت مزدهرة عامرة بالكتب على أيام المأمون أى بعد أكثر من أربعة قرون على إنشائها ويقول ابن النديم فى الفهرست؛ أنه سمع «اسحق بن شهرام يحدث فى مجلس عام أن ببلد الروم هيكلا قديم البناء عليه باب لم ير قط أعظم منه بمصراعين من حديد كان اليونانيون فى القديم عند عبادتهم الكواكب والأصنام يعظمونه ويدعون فيه قال فسألت ملك الروم أن يفتحه لى فامتنع من ذلك لأنه أغلق منذ وقت تنصرت الروم فلم أزل أراسله وأسأله شفاهاً عند حضورى مجلسه فتقدم بفتحه فإذا ذلك البيت من المرمر والصخور العظام ألوانا وعليه من الكتابات والنقوش مالم أسمع بمثله كثرة وحسناً. وفى هذا الهيكل من الكتب القديمة ما يحمل على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عدة جمال - وكثَّر ذلك حتى قال ألف جمل - بعض ذلك قد أخلق وبعضه على حاله وبعضه قد أكلته الأرضة».

ويذكر حنين بن اسحق أنه سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التى قصد نقلها. كذلك أرسل أبو زكريا يحيى بن البطريق للبحث عن كتب الأوائل وإحضارها لترجمتها إلى العربية وهو الذى ترجم كتاب أرسطاطاليس إلى الإسكندر المعروف بسر الأسرار وهو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة وقد أشرنا إليه من قبل. يقول ابن البطريق عن هذا الكتاب أنه سعى فى طلبه وقصد الهياكل للبحث عنه حتى وصل إلى هيكل عين الشمس الذى كان بناه هرمز الأكبر لنفسه ليمجد الله تعالى فيه قال فظفرت فيه براهب متنسك ذى علم بارع وفهم ثاقب فتلطفت به وأعملت الحيلة عليه حتى أباح لى مصاحف الهيكل المودعة فيه فوجدتها فى جملتها المطلوب الذى أمرنى أمير المؤمنين بطلبه مكتوبا بالذهب فرجعت إلى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد».

عين المأمون حنين بن إسحق أمينا على الترجمة من اليونانية إلى العربية مثل يحيى بن البطريق المشار إليه سابقاً. وكانت الترجمة قبله تتم من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية. فلما أتى حنين جعل الترجمة تتم مباشرة من اليونانية إلى العربية. وتحت إشرافه ترجمت كتب كثيرة منها كتب علمية وطبية وفلكية مثل كتب جالينوس وأبقراط وبطليموس وغيرهم. كما نقلت كتب فى الفلسفة والسياسة مثل كتب أرسطو وأفلاطون. وكانت الترجمة قبل حنين تتم عن طريق نقل كل كلمة يونانية بمقابل عربى مما يؤدى إلى ركاكة النقل وربما غموض المعنى لأن لكل لغة تركيباتها اللغوية. ولقد شعر حنين بعيوب هذه الطريقة ولذلك غيرها تماماً وجعل الترجمة عن طريق المعانى وليس الألفاظ أى أن يقرأ المترجم الجملة ويستوعب معناها فيعيد صياغتها بأسلوب عربى سليم يتقيد بقواعد اللغة العربية المنقول إليها وليس بمواقع الكلمات فى اللغة المنقول منها. ولقد أعجب المأمون بحنين بن إسحق وغمره بعطفه ومكافآته ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد أنه كان يعطيه زنة ما يترجمه ذهبا، مما جعل حنين يكتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترجماته على ورق سميك ثقيل الوزن حتى يحصل على ذهب أكثر ولابن أبى أصيبعة فى هذا الصدد نص جميل يصور تلك الوقائع أحسن تصوير:

«وجدت من هذه الكتب كتبا كثيرة، وكثيرا منها اقتنيته وهى مكتوبة مولد الكوفى بخط الأزرق كاتب حنين وهى حروف كبار بخط غليظ فى أسطر متفرقة وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع وذلك فى تقطيع مثل الثلث البغدادى. وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ولاجرم أن لغلظه بقى هذه السنين المتطاولة من الزمان».

ويبدو أن المأمون كان له ختم يختم به الكتب التى تترجم له أو ربما كل الكتب التى توضع فى بيت الحكمة كعلامة على الملكية كما كان يحدث على أيام آشوربانيبال، إذ يقول ابن أبى أصيبعة فى نفس الموضع «وكان كاتب حنين رجلاً يعرف بالأزرق وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالنيوس وغيره بخطه وبعضها عليه تنكيت بخط حنين بن إسحق باليونانى وعلى تلك الكتب **علامة المأمون**.

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن المأمون جمع من الكتب اليونانية أكثر بكثير مما ترجم فى عهده وهذا أمر طبيعى ولكن يحسب له أنه أعد العدة لأكبر حركة ترجمة فى تلك العصور.

وكما كان هناك فى زمن الرشيد من يرعى الترجمة والنقل سواه، كان هناك أيضا من زمن المأمون من يشجع على الترجمة ويكافئ عليها. من هؤلاء إسحاق ابن سليمان بن على وهو من رجال الأسرة العباسية الحاكمة آنذاك. وكان قد ولى البصرة ثم مكة فى زمن هارون الرشيد ثم استقر فى بغداد زمن المأمون ورعى النقل إلى العربية من مختلف اللغات. وكان حنين يترجم له من اليونانية إلى العربية ومن بين ما ترجم له **كتاب المزاج وكتاب تدبير الملطف**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكتاب **أن الطبيب الفاضل فيلسوف** وهى جميعا من تأليف جالينوس. وعلى الجانب الآخر كان منكة الهندى يترجم له من الهندية إلى العربية فقد نقل له **كتاب أسماء عقاقير الهند**. وكان داديشوع ينقل له من السريانية إلى العربية.

كذلك كان من رعاة حركة الترجمة من اليونانية خاصة **أولاد موسى بن شاكر** (محمد وأحمد والحسن). يذكر ابن النديم عنهم أنهم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة» ويقول عنهم أيضاً أنهم «ممن عنى بإخراج الكتب من بلد الروم وبذلوا الرغائب وانفذوا حنين بن إسحق وغيره إلى بلد الروم فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب وكان قسطا بن لوقا البعلبكى قد حمل معه شيئاً كثيرا فنقله ونقل لهم».

وفى الببليوجرافية التى نشرناها «ما ترجم من كتب جالينوس» والتى أعدها حنين بن إسحق نجد ثلاثين كتاباً من كتب جالينوس نقلت لمحمد بن موسى، منها تسعة عشر نقلها حنين وثمانية نقلها حبيش وثلاثة نقلها إصطفين. ونقل لأحمد بن موسى خمسة عشر كتاباً من كتب جالينوس منها تسعة نقلها بنفسه وستة نقلها حبيش وواحد نقله ابن الصلت.

ومن رعاة حركة الترجمة فى زمن المأمون أيضاً **على بن يحيى** الذى نقل له أربعة من كتب جالينوس من بينها واحد فقط قام حبيش بنقله. ومن الرعاة إسحاق بن إبراهيم الطاهرى؛ وإبراهيم بن محمد؛ وأحمد بن محمد بن المدبر؛ ومحمد بن عبد الملك الزيات وقد ذكر حنين فى تلك الببليوجرافية أنه نقل لهم جميعاً.

وقد أورد ابن أبى أصيبعة اسماء عدد من رعاة الترجمة وذكر أن من بينهم من كان عطاؤه للنقلة والنساخ يصل فى كل شهر إلى ألف دينار. وأعطى فيما يلى أسماء بعض الرعاة الذين ورد ذكرهم فى معجم الأطباء تحت باب «**الذين كان هؤلاء النقلة ينقلون لهم خارجا عن الخلفاء**»:-

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - شبريشوع بن قطرب. من أهل جنديسابور يرغب فى السريانى أكثر من العربى.
٢ - محمد بن موسى المنجم
٣ - على بن يحيى بن المنجم
٤ - تادرس الأسقف
٥ - محمد بن موسى بن عبد الملك
٦ - عيسى بن يونس الكاتب
٧ - على الفيومى
٨ - أحمد بن محمد بن المدبر
٩ - ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب
١٠ - عبد الله بن اسحق
١١ - محمد بن عبد الملك الزيات. (نقلت له جماعة كبيرة من المترجمين المشاهير).

أما عن عدد النقلة وأسمائهم فقد أمدنا ابن النديم فى الفهرست ببعضها وأمدنا ابن أبى أصبيعة بالبعض الآخر وهما المصدران الرئيسيان فى هذا الصدد. أورد محمد بن اسحق النديم قائمة بأسماء النقلة الذين وقع عليهم من غير أن يذكر اللغة التى تخصص كل منهم فى النقل منها، وأورد قائمتين أخريين إحداهما للمترجمين من اللغة الفارسية والثانية للمترجمين من اللغة الهندية. ومن ثم نستنتج أن القائمة الرئيسية كانت للمترجمين من اليونانية والسريانية أو أنها للمترجم العام الذى يترجم من أكثر من لغة وفى أكثر من موضوع. وكان من حين لآخر يذكر أمام كل منهم أسماء من ينقلون لهم. ويصل عدد المترجمين الذى ذكرهم إبن النديم إلى خمس وستين مترجما منهم ٤٥ مترجما ينقلون من عدة لغات وخمسة عشر ينقلون فقط من الفارسية إلى العربية وخمس فقط ينقلون من الهندية إلى العربية على النحو الذى خرجنا به من دراستنا المستفيضة لفهرست ابن النديم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وابن أبى أصيبعة فى معجم الأطباء أورد قائمة متخصصة بعنوان «**الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى من أول من ابتدأ فى نقل كتب الطب إلى اللسان العربى**». وهذه القائمة متخصصة مرتين مرة فى فئة المترجمين ومرة فى اللغة المترجم منها ويجب أن نتعامل معها على هذا الأساس ولولا أنها ذكرت أنها خاصة بالطب وغيره لكانت متخصصة للمرة الثالثة فى مجال الطب.

وأسماء النقلة متنوعة جدا بعضها اغريقى وبعضها سريانى وبعضها فارسى وبعضها عربى بحت. ولا ينبغى أن تؤخذ الأسماء دلالة على الأصول التى تحدّر منها المترجم لأن التسميات كما فى أيامنا لم تكن دائما مرتبطة بالعرقيات فالنصارى كان كثير منهم من أصل سريانى ومع ذلك كان كثير من بينهم يتسمى بأسماء يونانية وبعضهم تسمى بأسماء عربية إسلامية. والمدن التى انتسب إليها هؤلاء النقلة متعددة كذلك من بينها دمشق؛ بعلبك؛ حران؛ الرها؛ الرقة؛ الحيرة؛ جنديسابور.

ومن المؤسف أن معظم الكتب المترجمة لا تذكر تاريخ النقل أو النسخ ويمكن تقريبه من الزمن الذى عاش فيه المترجم أو الزمن الذى عاش فيه من ترجم له.

وكان الوقت المستغرق فى عملية نقل الكتاب يتوقف بطبيعة الحال على حجم الكتاب وكفاءة المترجم والوقت التى يكرسه للنقل. ولعله من نافلة القول أن كثيرا من الترجمات كان يراجع من قبل شخص أقدم وكان المصطلح المستخدم لمراجعة الترجمة هو (الاصلاح) وفعله (اصلح).

أما عن الموضوعات التى ترجم فيها من اليونانية إلى العربية فهى متعددة ولا يغلب عليها الفلسفة كما قد توحى بعض المصادر. كان **الطب** من المجالات الرئيسية التى ترجم فيها العرب كثيرا من اليونانية إلى العربية. وربما يرجع ذلك فى نظرنا إلى كثرة ما ألفه الطبيبان اليونانيان الرئيسيان اللذان ترجم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمون لهما وهما أبقراط وجالينوس. ذلك أن ابوقراط له خمسة وخمسون كتابا وجالينوس له مائة وثلاثون كتابا، ترجم المسلمون معظمها. وقد وضع حنين بن إسحاق قائمة بكتب جالينوس المترجمة (ما ترجم من كتب جالينوس) كما قام على بن رضوان الطبيب المسلم بترجمة قائمة مؤلفات أبقراط. والقائمتان موجودتان فى كتابنا (الببليوجرافيا أو علم الكتاب: النظرية العامة). وجل كتب جالينوس تأليف خالص، وهناكَ تفسير لعشرة من كتب أبقراط وهناك أيضا تعليقات وشروح لما كتبه أفلاطون وأرسطو وأراسسترانس وفولوس فى مجال الطب والتشريح. كما وضع بعض كتب ليست طبية صرفة وإنما عن حرفة الطب وأخلاقيات الإشتغال به. وكانت كتب أبقراط تدرس فى مدارس الطب ومعتمدة فى دراسته وعندما انحطت دراسة الطب فى القرنين الخامس والسادس الميلادى بدأ الدارسون يجترون ما كتب من قبل شرحاً وتلخيصا ومن بين تلك الملخصات (جوامع السكندريين) وفيها تلخيص لستة عشر كتابا من كتب جالينوس. وفى بداية القرن السادس الميلادى قام سرجيوس الرسعينى (ت٥٣٦م) بترجمة واحد وعشرين كتابا من كتب جالينوس إلى السريانية، غير أن ترجمته كانت سيئة فأعيدت ترجمتها إلى السريانية ثم العربية بعد ذلك فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

من بين كتب جالينوس المائة والثلاثين ترجم المسلمون منها نحو مائة، جهد كل ناقل فيها تمثله الأرقام الآتية:

حنين بن إسحاق	٣٤	عيسى بن يحيى	١٩
حبيش بن إسحاق	٢٨	اصطفين	٧
إسحاق بن حنين بن إسحاق	٦	يحيى بن البطريق	١
		إبراهيم بن الصلت	١
أسرة حنين وحدها	٦٨	ثابت بن قرة	١
بنسبة	٦٩,٣٨٪	شملى	١
		الباقون	٣٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هنا يتبين أن حنين بن إسحق وأسرته ترجموا أكبر عدد من كتب جالينوس. وحنين فى قائمته ذكر أن هذه الكتب قد ترجمت برعاية عدد من الرعاة غير الرسميين بيانهم على الوجوه من أهم أفراد عائلة موسى بن شاكر وما رعوا ترجمته تحدده الأرقام الآتية:

محمد بن موسى بن شاكر ٣٩ كتاباً (١٩ حنين، حبيش ١٨).

أحمد بن موسى بن شاكر ١٦ كتاباً (٥ حنين، حبيش ١١).

إبراهيم بن محمد بن موسى بن شاكر ١ كتاب (إبراهيم بن الصلت)

ومن هنا يتضح أن آل موسى بن شاكر قد رعوا نقل ٥٦ كتابا أى ما نسبته ٥٧٪ من كتب جالينوس.

ولعله مما يجدر ذكره أن ابن النديم ذكر أسماء عدد من الأطباء الآخرين خلاف أبقراط وجالينوس منهم من كانت له كتب ومنهم من لم يكن له كتب. كما سجل فؤاد سيزكين فى تاريخ التراث العربى فى الجزء الخاص بالطب العربى أسماء خمسة وأربعين طبيباً ظهروا قبل الإسلام، نذكر هنا بعض أسمائهم وعدد ما ألفوه من كتب طبية كما أوردها ابن النديم فى الفهرست

روفس	٤٣ كتابا
فليغريوس	١٥ كتابا
أوريباسيوس	٥ كتب
إسكندروس	٣ كتب
أرشيجانس	١ كتاب
فلّس	١ كتاب
أقريطن	١ كتاب
سورونس	١ كتاب
ديوسقوريدس	١ كتاب
بولس	١ كتاب
أفلاطون	١ كتاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من المجالات الأخرى التى ترجم فيها المسلمون عن اللغة اليونانية: الهندسة وهى من المجالات الأولى التى ترجموا فيها بعد الطب. ولعل أهم كتاب يونانى نقل فيها هو كتاب (أصول الهندسة) اصطروشيا. وقد أولاه الإغريق عناية كبرى وتناوله بالشرح والتفسير عدد من علماء الإغريق ذكر ابن النديم منهم بلس، ايرن، ابسقلاوس، سنبليقوس.

ولأهمية هذا الكتاب فى لغته ومغرمة المسلمين بهذه الأهمية ترجم إلى العربية عدة مرات، ذكر ابن النديم منها أربعة نقولات هى:

١ - نقل الحجاج بن مطر فى زمن هارون الرشيد ثم أعاد نقله وأصلحه فى زمن المأمون ولذلك يسمى الأول بالنقل الهارونى والثانى بالنقل المأمونى.

٢ - نقل إسحاق بن حنين بن إسحاق ومن إصلاح ثابت بن قرة.

٣ - نقل أبى عثمان الدمشقى.

٤ - نقل قسطا بن لوقا.

وبسبب هذه الأهمية أيضا توفر على شرحه وتحشيته عدد كبير من رياضيى العرب ذكر ابن النديم منهم ستة عشر شخصاً وهم:

١ - الفضل بن حاتم النيريزى.

٢ - أبو يوسف الرازى.

٣ - الكرابيسى.

٤ - العباس بن سعيد الجوهرى.

٥ - الماهانى.

٦ - ابوجعفر الخازن.

٧ - أبو الوفا البوزجانى.

٨ - إبن ناهويه الأرجانى.

٩ - أبو القاسم الأنطاكى.

١٠ - سند بن على.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١ - أبو الحسين بن كرنيب.

١٢ - أبو سهل ويجن

١٣ - الفارابى.

١٤ - أحمد بن حسين الأهوازى

١٥ - نظيف القس.

وأيضا بسبب خطورة هذا الكتاب قام بعض علماء العرب بتأليف كتب تدور حول إقليدس وكتابه، جاء فى الفهرست منها أغراض كتاب إقليدس لإبراهيم بن سند؛ المدخل إلى كتاب إقليدس لثابت بن قرة، شكوك كتاب إقليدس لقسطا بن لوقا؛ شرح المشكل من كتاب إقليدس للكوهى، إصلاح كتاب إقليدس، أغراض كتاب إقليدس؛ إصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتاب إقليدس وجميعها للكندى؛ مصادرات إقليدس، حل مشكل مصادرات إقليدس لابن الهيثم.

ولم يكن إقليدس هو الوحيد الذى ترجم المسلمون له فى الهندسة ولكنهم فى القرن الثالث الهجرى أيضا ترجموا عدداً آخر من الكتب الهندسية الإغريقية منها «أصول الهندسة» لأفلاطون، و«أصول الهندسة» لمنالاوس «والشكل الهندسى الذى بيَّن جالينوس أمره». و«كتاب المثلث» لمنالاوس والدوائر المماسة لابولونيوس، والدوائر المماسة، تربيع الدائرة، تسبيع الدائرة لأرشميدس.

كذلك نقل المسلمون فى هذا المجال كتاب الأكر لثيودوسيوس من ترجمة قسطا بن لوقا وإصلاح ثابت بن قرة. وكتاب الكرة والإسطوانة لأرشميدس وكتاب الكرة المتحركة لأوطولوقس والأشكال الكرية لمنالاوس وتفسير كتاب بطليموس فى تسطيح الكرة لبلس الرومى.

وهناك أيضا كتاب المخروطات لأبولونيوس وآخر بنفس الاسم لأرشميدس وقد ترجمهما إلى العربية ثابت بن قرة.

ومن المجالات التى حظيت باهتمام المسلمين أيضا فى عملية الترجمة والنقل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلك والجغرافيا وكما كان إقليدس هو المؤلف البارز فى الهندسة الذى نقل له المسلمون أهم كتبه؛ وكما كان جالينوس فى الطب هو المؤلف الرئيسى الذى نقل له المسلمون أبرز كتبه؛ كان بطليموس هو أهم مؤلف فى الفلك والجغرافيا ترجم له المسلمون أهم كتبه. أهم كتب بطليموس فى الفلك والجغرافيا هو كتاب «المجسطى» وقد اعتبره القفطى واحداً من أخطر ثلاثة كتب من وجهة نظره وقال عنه «وما أعلم أحداً بعده تعرض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمجسطى ولا تعاطى معارضته بل تناوله بعضهم بالشرح والتبيين كالفضل بن حاتم النيريزى وبعضهم بالاختصار والتقريب كمحمد بن جابر البتانى وأبى الريحان البيرونى وكذلك كوشيار بن لبان الجيلى».

ومن الكتب الأخرى لبطليموس والتى نقلها المسلمون إلى اللغة العربية عن اليونانية كتاب الجغرافيا والذى ترجمه الكندى مرة وثابت بن قرة مرة ثانية.

كذلك ذكر ابن النديم والمستشرق الإيطالى نالليno أن كتاب الأربعة لبطليموس أيضا قد ترجم مرتين مرة فى زمن المنصور العباس على يد البطريق وشرح هذه الترجمة عمر بن الفرخان. والمرة الثانية قام بها إبراهيم بن الصلت.

وتحدث ابن النديم بشئ من التفصيل عن الكتاب الأشهر لبطليموس وأعنى به: المجسطى فقال إنه يقع فى ثلاث عشرة مقالة وأول من عنى بتفسيره واخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك. وفسره جماعة فلم يتقنوه ولم يرض البرمكى بذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن احضرا النقلة المجودين فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه. وقد قيل أن الحجاج ابن مطر نقله أيضاً. وأصلح ثابت الكتاب كله بالنقل القديم. ونقل إسحق هذا الكتاب وأصلحه ثابت نقلاً غير مرض، لأن اصلاحه الأول أجود».

وإضافة إلى تلك المجالات التى ترجم المسلمون كثيرا فيها عن اليونانية هناك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجالات أخرى ترجم العرب فيها ولكن ليس بنفس الكثير السابقة. ومن تلك المجالات **الميكانيكا** وقد سرد ابن النديم أسماء خمسة من المؤلفين ترجم لكل منهم كتاب أو أكثر وهم:

أ - **إيرن**. وترجمت له: شيل الأثقال؛ الحيل الروحانية؛ الأشياء المتحركة لذاتها؛ آله الزمر البوقى؛ الزمر الريحى؛ الدواليب؛ عوازف الأرغن.

ب - **مورسطوس**. وترجم له: كتاب فى الآلات المصونه المسماه بالارغن البوقى والأغن الزمرى وكتاب آله مصوته تسمع على ستين ميلاً.

ج - **ساعاطس**. وترجم له: كتاب الجلجل الصياح.

د - **هرقل النجار**. وترجم له: كتاب الدوائر والدواليب.

و - **أرشميدس**. وترجم له: كتاب آلة ساعات الماء التى ترمى بالبندق.

وفى مجال **الزراعة والنبات** نصادف ثلاثة كتب: كتاب جيوبونيكا لباسوس وقد ترجمه إسطاث ليحيى البرمكى وعنوانه بالعربية كتاب الفلاحة الرومية، وأعاد سرجس ترجمته. والكتاب الثانى هو كتاب أسباب النبات لثاوفرسطس وقد نقله إبراهيم بن بكوس والموجود منه بعض المقالة الأولى. والكتاب الثالث كتاب النبات لنيقولا الدمشقى وقد نقله إلى العربية إسحق بن حنين بن إسحق. وقد ترجمت النسخة العربية إلى اللاتينية والعبرية وضاع الأصل اليونانى فيما يذكر سارتون فى تاريخ العلم.

وفى مجال **علم الحيوان** نجد كتابين لأرسطو أحدهما هو كتاب الحيوان فى تسع عشرة مقالة نقله إبن البطريق إلى العربية كما ترجم إلى السريانية والترجمة السريانية أجود من العربية كما يقول ابن النديم. وله جوامع قديمة. كذلك ترجمه أبو على بن زرعة عن السريانية. والكتاب الثانى هو منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوى.

وفى مجال **علم الجبر** ورد فى الفهرست ذكر لكتابين هما: كتاب صناعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجبر لإبرخس الزفنى من إصلاح أبى الوفاء محمد بن محمد الحاسب ولنفس المؤلف على هذا الكتاب: شرحه وعلله بالبراهين الهندسية. والكتاب الثانى بنفس العنوان كتاب صناعة الجبر لديوفنطس الإسكندرانى اليونانى. ويشير ابن النديم إلى أن أبا الوفا البوزجانى شرح الكتابين ووضع كتاب البراهين على القضايا التى استعملها ديوفنطس فى كتابه.

وفى مجال **علم المياه**. ترجم العرب كتاب إستخراج المياه. وهو ثلاثة أبواب الباب الأول فى ٣٩ قولاً والباب الثانى فى ٣٦ قولاً والباب الثالث فى ٣٠ قولاً.

وفى مجال **الموسيقى** (وبعض الميكانيكا تتصل بالآلات الموسيقية) نصادف أربعة كتب: كتاب: الديموس؛ وكتاب الإيقاع لأرسطاليس؛ كتاب النغم لإقليدس؛ كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخوس.

وفى مجال **علم المناظر** نصاف كتابا واحدا مترجما عن اليونانية وهو كتاب اختلاف المناظر لإقليدس.

الترجمة والنقل عن الفارسية

الحقيقة أنه لم تصلنا معلومات سليمة ودقيقة ويعتد بها عن بلاد فارس قبل الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٦٥٢م) وربما يرجع ذلك إلى السبب الذى ألمحت إليه فى الصفحات السابقة عندما قام الاسكندر الأكبر بعد فتح تلك المنطقة بجمع كتبهم ونقلها إلى اليونانية والقبطية ثم حرق الأصول التى كانت كتبت بلغاتهم. وربما يكون الإسكندر قد نقل وترجم العلوم التى يستفيد منها وأعدم ولم يترجم الكتب المتعلقة بتاريخ الفرس وأوضاعهم الإجتماعية. ومن هنا لم تصلنا سوى قلة من الكتب التى كتبت بالفارسية قبل الدولة الإسلامية.

لقد تعاقب - فى حدود معلوماتنا المشوشة - على بلاد الفرس أربع دول هى: **الفيشدادية والكيانية والأشفانية والساسانية**. ويذكر المؤرخون المسلمون أنفسهم أن ما وصلنا من معلومات عن تلك الدول غير صحيح وفاسد. يقول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حمزة الأصفهانى «وتواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة لأنها نقلت بعد مائة وخمسين سنة من لسان إلى لسان ومن خط متشابه رقوم الأعداد إلى خط متشابه رقوم العقود» ويقول أبو معشر فى نفس هذا الاتجاه «التواريخ أكثرها مدخول فاسد. . وكذلك سنو ملوك الفرس وتواريخهم مع اتصال أيام ملكهم من أول الدهر إلى أن زال ملكهم. وقد بان فيها تخليط كثير وفساد بين ذلك. . إنهم يزعمون أن الأرض مكثت سنين كثيرة مرة بعد مرة وليس لها ملك منهم ولا من غيرهم».

لقد كان للفرس يقينا حضارة ونهضة وعلوم وإلا لما توسعت دولتهم غربا كثيرا قبل أن يقهرهم اليونان. وبدليل أن الاسكندر نقل عنهم ذلك، حيث يقول حمزة الأصفهانى فى كتابه **تاريخ سنى ملوك الأرض** أن الاسكندر نقل عنهم علم النجوم والطب والفلسفة والحراثة أى الزراعة؛ معنى هذا أنهم برعوا فى تلك العلوم. ويستمر حمزة فى القول بأن ملوك الطوائف فى أيامهم وضعت الكتب التى فى أيدى الناس مثل كتاب مزدك وكتاب سندباد وكتاب سرسفاس وكتاب شيماس وما أشبهها من الكتب التى يبلغ عددها قريبا من سبعين كتاباً.

ويفسر لنا حمزة ندرة الكتب التى وصلتنا عنهم بأن الاسكندر «لما استولى على أرض بابل وقهر أهلها حسدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التى لم تجتمع قط لأمة من الأمم مثلها فأحرق من كتبهم ما نالته يده ثم قصد إلى قتل الموابذة والهرابذة والعلماء والحكماء ومن يحفظ عليهم علومهم وتواريخهم بعد أن نقل ما احتاج إليه من علومهم إلى لسان اليونانيين».

ومن هنا لم يصلنا إنتاج فكرى فارسى يعتد به قبل الدولة الساسانية التى وحدت لغة الفرس وجعلت الفارسية اللغة الرسمية للدولة سواء فى العقيدة أو الادارة.

وكلمة ساسان ترجع إلى إسم أحد كهنة الإلهة آناهينا وعرف أتباعه بالساسانيين ومذهبه بالساسانية. وهو مذهب تصوفى فيه دروشة وقد عبر عنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العرب بالشعوذة. وقد قامت الدولة الساسانية على أساس هذا المذهب. ويعتبر أردشير الأول هو مؤسس هذه الدولة، وقد استمرت هذه الدولة لأكثر من أربعة قرون تعاقب عليها خمسة وثلاثون ملكا برز منهم نحو عشرة ملوك كان لهم ذكرهم وخطرهم من بين هؤلاء العشرة كان أردشير الأول، سابور الأول، سابور الثانى، كسرى أنوشروان.

ومما لا شك فيه أن الدولة الساسانية استطاعت طوال أربعة قرون أن تصمد لما تعرضت له من غزوات خارجية وأن تصد تلك الهجمات وأن يبقى الحكم خالصا طوالها للساسانيين، كما طبقت نظاماً إدارياً قويا ضمن لها السيطرة على البلاد والعباد. وكانت الدولة مقسمة إلى سبعة بيوتات ولكل بيت من هذه البيوتات رئيس يحكم منطقة واسعة تحت مظلة الملك، وإن كان لكل بيت قواته الخاصة وسلطاته الإدارية. وكان المجتمع ينقسم إلى طبقات لكل طبقة وضعها الخاص الذى قد يعزلها عن الطبقات الأخرى وكان للطبقة المقربة من الملك نفوذ كبير فى الإدارة والجيش ورجال الدين. ويذكر المسعودى أن للفرس «كتابا يقال له كهنامة فيه مراتب مملكة فارس ولها ستمائة مرتبة على حسب ترتيبهم» وربما كان هذا الكتاب بمثابة الدستور فى أيامنا هذه.

كانت عقيدة الدولة الساسانية هى الزرادشتية وهى الدين الرسمى لها. وكما نعرف فإن الزرادشتية هى عقيدة تنسب إلى صاحبها زرادشت الذى بدأها فى القرن السادس قبل الميلاد وتبناها الملوك الأخامينيون. وعندما قضى عليهم الإسكندر الأكبر إضطهد الزرادشتية وقتل أتباعها وأحرق كتبها ولكن لما ولى الساسانيون اعتنقوها وأحيوها وحاولوا لم شعث كتابها المقدس (أفستا) ولكنه لم يصلنا كاملاً. ولأن العقيدة الزرادشتية شديدة التعقيد وتعاليمها قاسية صعبة التنفيذ فإنها لم تنتشر كثيرا خارج طبقة الحكم والمقربين منها. ولذلك ظلت أغلبية الشعب تعتنق أديانا أخرى مثل المانوية واليهودية والمسيحية.

ورغم أن الدولة الساسانية إتخذت من اللغة الفارسية لغة للدواوين ولغة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسمية للدولة إلا أنه كانت هناك لغات أخرى يتحدثها قطاع كبير من الشعب مثل: الفهلوية؛ الدرية؛ الخوزية؛ السريانية. والفهلوية نسبة إلى منطقة فهلة التى تضم أصفهان والرى وهمدان وماه نهاوند واذربيجان. والدرية هى لغات منطقة المدائن. والفارسية هى بطبيعة الحال لغة منطقة فارس. ويتكلم بها الموابذة والعلماء ومن نهج نهجهم. أما اللغة الخوزية فهى لغة طبقة أو لغة خاصة كان يتكلمها الملوك والأشراف. أما السريانية فكانت منتشرة بين أهل السواد.

ولا تختلف اللغات فى هذه البلاد فقط وإنما هناك إختلاف أيضا فى الكتابات. وقد ذكر ابن النديم سبعة خطوط أو كتابات فى الفهرست. وقد أكد على هذه السبعة كل من حمزة الأصفهانى والمسعودى.

ومن المؤكد أنه كان للساسانيين حضارة وعلوم مسجلة فى مدونات على الأقل باللغة الفارسية شهدت بها المصادر المختلفة. ومن قول المسعودى عنهم «كانوا أهل العز الشامخ والشرف الباذخ والرئاسة والسياسة، فرسانا فى الوغى؛ صبراً عند اللقاء، أدت إليهم الأمم الإتاوات، وانقادت إلى طاعاتهم خشية صولتهم وكثرة جنودهم». ويقول المستشرق الإيطالى نالينو عنهم أنهم: «أدركوا من مدارج التقدم فى المعرفة منزلة عالية جديرة بالذكر فى أيام كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨م) أعظم ملوك بنى ساسان، سار ذكره بالقوافل والركبان، فزها عندهم ماتوارثوه عن أسلافهم وأهل بابل واليونان من العلوم العقلية أو نقلوه من الأمم المجاورين لهم من الروم والسريان والهند، وفى مدينة جنديسابور من أعمال خوزستان أنشأ ذلك الملك الخطير، المدارس العليا لاسيما لتعليم الطب، ذاع صيتها فى كل النواحى والآفاق وأحضر لها أشهر الأساتذة من السريان وغيرهم، ثم أمر بنقل كتب علمية من اللغات السريانية واليونانية والسنسكريتية إلى البهلوية التى كانت فى ذلك العصر لغة الفرس، فلما جبل لهم من الذكاء والتعقل والميل إلى أسباب التمدن، أجادت الفرس فى تلقى العلوم الدخيلة، وظلوا كثيرى العناية بها، مبرزين فيها، إلى أن غزاهم العرب غزوا رهيباً وهزموا جنودهم هزماً مهيباً، فانقرضت دولة الأكاسرة الكبار وفاض الإسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ما كان لهم من المدن والديار فاندرس شيئا فشيئاً إستعمال لغتهم البهلوية، وأخذت تبرق فى أقاليمهم العربية. وبعدما فتحت ممالكهم وكثر الإحتكاك والمخالطة بين الأمتين أصبحت العجم بين العرب فى ديار الخلافة الشرقية مثل الخميرة فى عجين الدقيق فعملوا فى الرقى عملاً يذكر. وأثروا فى أحوال التمدن الإسلامى تأثيراً لا ينكر، وعلمّوا غالبيتهم كثيرا من الفنون مما كانت العرب أبعد الناس عنه، وأظهروا العناية بصيانة العلوم والحرص على إتقانها وبرزوا فى أصناف المعارف والصنائع حتى وضع الحديث النبوى [لئن تعلق العلم بأكتاف السماء لكان له قدم من أهل فارس]».

وفى نفس هذا الاتجاه يقول الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام «كان للفرس من قديم علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فلما جاءت الدولة العباسية وكثير من رعيتها فرس لهم نزعة وطنية وميول قومية، أخذ المثقفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم وما حفظت العصور إلى عهدهم: كانت لهم كتب فى التنجيم والهندسة والجغرافية. وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم، ولكن كانت مدنيتهم فى حياة وعظمة، فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم، وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الإسكندر لبلادهم وقد تلف فى هذا العهد كثير من خزائن كتبهم فلما جاءت الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٦٥٢م) استعادوا أدبهم وعلمهم وأظهر ملوكهم من الميل إلى العلم وتشجيع الترجمة والتأليف: أردشير بن بابك (٢٢٦ - ٢٤١م) فقد بعث فى طلب الكتب من الهند والروم والصين. وكذلك الشأن فى عهد إبنه سابور وعهد كسرى أنوشروان. وقد دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون خلّفت فيها علماً كثيرا وأدبا وفيرا، وأكثر ما نقل إلينا فى العصر العباسى من الأدب والعلم والأساطير والتاريخ، انما يرجع إلى هذه الأسرة. فلما نشطت الحركة العلمية فى العصر العباسى أخذت طائفة يجيدون اللسانين الفارسى والعربى ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية».

إذن هناك إجماع من المصادر على أن الفرس قبل دخول العرب كانت لهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حضارة وكانت لهم علوم وكانت عندهم مؤلفات أيا كانت الحضارات التى استقوا منها تلك العلوم ومادة تلك المؤلفات. وبالتالى وجد العرب ووجد المسلمون ما يمكن أن ينقلوه ويترجموه إلى اللغة العربية بصريح النص الذى كتبه نالليتو والذى كتبه أستاذنا أحمد أمين. كذلك يؤكد ابن النديم على أن الفرس فى القديم نقلت شيئا من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية فنقل ذلك إلى العربى عبد الله بن المقفع وغيره.

* * *

أشرت فى صفحة سابقة نقلاً عن ابن النديم أنه كان هناك نحو خمسةعشر مترجماً ينقلون من اللسان الفارسى إلى اللسان العربى. وربما كان معظمهم من الفرس الذين تفصحوا فى العربية ومن ثم أصبحت لديهم القدرة على نقل الكتب الفارسية إلى اللغة العربية فيما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين. وقد عقد ابن النديم فصلاً فى كتابه الفهرست عن أسماء النقلة من الفارسى إلى العربى؛ وهذه الأسماء هى:

١ - عبد الله بن المقفع

٢ - موسى بن خالد
٣ - يوسف بن خالد
} عملا فى خدمة داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة.

٤ - على بن زياد التميمى (أبو الحسن).

٥ - الحسن بن سهل.

٦ - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى.

٧ - جبلة بن سالم (كاتب هشام)

٨ - إسحاق بن يزيد

٩ - محمد بن الجهم البرمكى

١٠ - هشام بن القاسم

١١ - موسى بن عيسى الكروى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢ - زادويه بن شاهويه الأصفهانى

١٣ - محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى

١٤ - بهرام بن مروان شاه

١٥ - عمر بن الفرخان

ولم يعط ابن النديم تفاصيل عنهم جميعا وإنما أعطى لمحات سريعة عن بعضهم فقط فقال عن عبد الله بن المقفع «إنه من بلغاء الناس العشرة وأنه أخذ الفصاحة عن أبى الجاموس الأعرابى الذى كان يفد إلى البصرة على آل سليمان بن على وأنه من الكتاب الشعراء» وفى موضع آخر يقول عنه «كان أحد النقلة من اللسان الفارسى إلى العربى مضطلعا باللغتين، فصيحاً بهما وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها:

- كتاب خداينامه فى السير
- كتاب آيين نامه فى الآيين
- كتاب كليلة ودمنة
- كتاب مزدك
- كتاب التاج فى سيرة أنوشروان
- كتاب الآداب الكبير (يعرف باسم ماقراجنس)
- كتاب الآداب الصغير
- كتاب اليتيمة فى الرسائل
- كتاب رسائله
- كتاب جوامع كليلة ودمنة
- كتاب رسالته فى الصحابة

وفى موضع آخر يذكر أن أحسن كتبه المنقولة: عهد أردشير؛ كليلة ودمنة؛ اليتيمة وأنه كان يعمل فى الأسمار. وأن لكتاب بارى أرميناس مختصرات منها واحد لابن المقفع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو أن عبد الله بن المقفع هو الذى قال هذه التفاصيل، بينما ذكر عن البلاذرى أنه كان أحد النقلة من الفارسى إلى العربى وأنه ترجم عهد أردشير شعراً. وذكر عن جبلة بن سالم أنه ترجم من الفارسية إلى العربية كتب: كتاب رستم واسفنديار؛ كتاب بهرام شوش. وذكر عبد الله بن يحيى **ومحمد بن الجهم** البرمكيين وفضلهما فى العلم.

وعن عمر بن الفرخان الطبرى قال إنه ممن فسر المجسطى وفسر كتب ذوروثيوس، كما فسَّر كتاب الأربعة لبطليموس التى نقلها له البطريق أبو يحيى إبن البطريق وأن له كتاب المحاسن وكتاب إتفاق الفلاسفة واختلافهم فى خطوط الكواكب.

ولانجد فى الفهرست عن باقى المترجمين معلومات كتلك التى ذكرت عن الأسماء السابقة.

لقد بدأ النقل عن الفارسية فى فترة مبكرة من حياة الدولة الإسلامية يدلنا على ذلك نص المسعودى الذى أورده فى كتابه التنبيه والإشراف «وجدت عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم لم أجدها فى شئ من كتب الفرس كخداى نامه وآيين نامه وكهنامه وكان تاريخ هذا الكتاب أنه مما وجد فى خزائن ملوك للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣هـ ونقل **لهشام بن عبد الملك بن مروان** من الفارسية إلى العربية» ولم يذكر المسعودى اسم المؤلف أو المترجم.

كذلك يظهر من تاريخ وفاة بعض المترجمين مثل عبد الله بن المقفع (ت ١٤٠هـ) وعمر بن الفرخان وجبلة بن سالم (مولى هشام وكاتبه) فى أوائل العصر العباسى، أن النقل من الفارسية بدأ مبكراً.

أما عن المجالات التى تناولتها الكتب المنقولة عن الفارسية فهى متنوعة وإن كانت محدودة قياساً إلى ما ترجم عن اليونانية ويأتى على رأس هذه المجالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ الفارسى نفسه. ومن أهم الكتب التى نقلت فى هذا الصدد كتاب خداينامه وهو المسمى بالعربية تاريخ أو سير ملوك الفرس ولم تصلنا من هذا الكتاب نسخة كاملة وإن كان قد وصلنا منه نصوص كثيرة طويلة ضمن كتب المؤرخين العرب الذى كتبوا عن تاريخ بلاد فارس مثل: تاريخ الأمم والملوك للطبرى وغرر سير ملوك الفرس والعجم للثعالبى. وقد ذكر ابن النديم أن سبعة من النقلة الذين أوردنا أسماءهم من قبل إشتركوا فى ترجمة هذا الكتاب بمعنى أن كلاً منهم ترجمه على حدة وأن هناك سبعة ترجمات لهذا الكتاب. وهؤلاء الأشخاص هم: اسحق بن يزيد؛ جبلة بن سالم؛ عبد الله بن المقفع؛ محمد بن الجهم البرمكى؛ محمد بن بهرام بن مطيار؛ بهرام بن مردنشاه؛ زادويه بن شاهويه. وقال ابن النديم أن ترجماتهم متباينة ربما لاعتمادهم على أصول مختلفة وربما لدرجة سيطرة كل منهم على اللغتين.

ويدخل فى عداد كتب التاريخ الفارسى الكتاب الذى ذكر المسعودى أنه وجده عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس والذى يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم والذى أشرنا إليه من قبل. ويعتبر كتاب التاج فى سيرة انوشروان الذى ترجمه عبد الله بن المقفع من بين الأعمال التى تدخل فى هذه الفئة من الكتب المنقولة عن الفارسية؛ وكذلك كتاب عهد أردشير الذى قال عنه ابن النديم أنه من بين الكتب المجمع على جودتها والتى نقلها ابن المقفع. ويقول المسعودى أن عمر المعروف بالكسروى الذى اشتهر بمعرفته الواسعة بعلوم فارس وأخبارها له كتاب فى أخبار الفرس يصف طبقات ملوكهم من سلف وخلف وأخبارهم. وقد نقل المسعودى عن هذا الكسروى نقولاً من رواية أبى عبيدة تتعلق بنظم الفرس الإدارية والإجتماعية ولا نعرف إن كان كتاب الكسروى هذا تأليفا أم ترجمة وربما يكون الكسروى قد عاش فى منتصف القرن الثانى الهجرى قبل عصر التدوين بدليل رواية أبى عبيدة له.

وربما تدخل كتب **الأزياج** (التقاويم) فى عداد كتب التواريخ أو تمت لها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنسب وقد برع الفرس فى تأليفها وعول المسلمون على ترجمتها. ومن أشهر الأزياج التى نقلت زيج يسمى (زيج الشهريار) وقد يسمى كذلك (زيج الشاه) وقد ذكر ابن النديم أن الذى نقله إلى العربية هو على بن زياد التميمى (أبو الحسن). ويقول نالليو عن هذا الزيج أنه ألف فى زمن يزدجرد الثالث ٥١١م وأنه مبنى على قواعد وأصول أغلبها هندية. وقد وردت تفاصيل هذا الزيج فى كثير من المصادر مثل أخبار الحكماء للقفطى، وتحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى. وقد اعتمد عليه أبو معشر جعفر بن محمد البلخى المعروف بأبى معشر الفلكى فى (الزيج الكبير).

ومن المجالات الخصبة التى ترجم فيها المسلمون كتب الفرس **علم النجوم** حيث يقول صاعد ابن أحمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم أن للفرس عناية بالغة ومعرفة ثاقبة بأحكام النجوم وتأثيرها فى العالم السفلى وكانت لهم مراصد للكواكب قديمة، ومذاهب فى حركاتها مختلفة. وليس صاعد بن أحمد الأندلسى وحده هو الذى أشار إلى ذلك وإنما كثير من المؤلفين الذى كتبوا عن الدولة الساسانية ومن أهمها كتاب محمد المحمدى المعنون (الترجمة والنقل من الفارسية). يضاف إلى ذلك أن المسلمين هم أيضا قد بالغوا فى الإهتمام بعلم النجوم فقد كان المنصور «أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختيه؛ وإبراهيم الفزارى صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك؛ وعلى بن عيسى الأسطرلابى، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند. . . وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وأخرجت للناس. فيما يذكر نالليو فى تاريخ علم الفلك عند العرب.

وقد أشرت من قبل إلى ولع المأمون بن هارون الرشيد بعلم النجوم ودراسته له وبراعته فيه حيث قال المسعودى أن المأمون «كان فى بدء أمره، لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك وغيره واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمضى فى درسها وواظب على قراءتها فافتن فى فهمها وبلغ درايتها».

وربما كان ذلك دافعاً لترجمة كثير من كتب النجوم إلى العربية من الفارسية وقد عدد ابن النديم ما وصل إليه منها: زجر الفرس؛ الفأل لأهل فارس؛ الإختلاج على ثلاثة أوجه لفارس؛ والمواعظ للفرس. ولكنه لم يذكر مؤلفيها ولا مترجميها ولانبذات عن محتوياتها.

وفى موضع آخر حدد ابن النديم أسماء بعض النقلة الذين ترجموا فى هذا الموضوع ومن بينهم عمر بن الفرُّخان، وأبو سهل الفضل النوبختى وعلى بن زياد التميمى.

ويذكر ابن النديم كما سبق وأسلفت أن **عمر بن الفرخان** كان أحد المنجمين الذين اشتركوا فى تحديد وقت بناء بغداد، وأنه قد فسر كتاب الأربعة لبطليموس وكان البطريق قد نقله له، ومن مؤلفاته كتاب المحاسن وكتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم فى السنين وفسر كتاب المجسطى وكتب دوروثيوس.

وعن محمد بن عمر الفرُّخان يذكر ابن النديم أنه كان أحد «أفاضل المنجمين وله من الكتب: كتاب المقاييس؛ كتاب المواليد؛ كتاب العمل بالإصطرلاب، كتاب المسائل؛ كتاب المدخل؛ كتاب الاختيارات؛ كتاب المسائل الكبير؛ كتاب تحويل سنى المواليد؛ كتاب التيسيرات، كتاب الميالات؛ كتاب تحويل سنى العالم؛ كتاب التيسيرات فى المواليد. ولم يذكر ابن النديم إن كانت مترجمة أو مؤلفة أم بعضها مترجم وبعضها مؤلف.

أما أبو سهل الفضل النوبختى فقد كان أبوه من المنجمين الذى شاركوا مع عمر بن الفرُّخان فى تحديد وقت بناء بغداد. ويذكر ابن النديم أنه كان من بين المشرفين على خزانة الحكمة لهارون الرشيد وله نقل من الفارسى إلى العربى معول فى علمه على كتب الفرس له من الكتب: كتاب النهطمان فى المواليد؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفأل النجومى؛ والمواليد؛ تحويل سنى المواليد؛ المدخل؛ التشبيه والتمثيل؛ المنتحل من أقاويل المنجمين فى الأخبار والمسائل والمواليد.

وقد ذكر صاعد بن أحمد الأندلسى أن للفرس كتباً جليلة فى أحكام النجوم منها كتاب فى صور درجات الفلك ينسب إلى زرادشت وكتاب جاماسب.

وجاماسب هذا يصفه طاشكبرى زاده بأنه الحكيم ويعتبر كتابه (القرانات) واحداً من أهم كتابين فى موضوع التنجيم. ومن المصادر ما يذكر أنه مستمد من أصول إغريقية وهندية. بيد أن نالينو يشكك فى أن يكون جاماسب هذا شخصية حقيقية ويقول بأنه من الشخصيات الوهمية التى لا وجود لها والتى اختلقت فى كتب تاريخ الفرس القدماء فقيل انه كان وزير الملك كشتاسب من الدولة الكيانية التى كان لها الملك قبل دارا ويستطرد نالينو فيقول: ولكن إذا اطلعنا على تلك الكتب المنسوبة إلى جاماسب وجدنا أنها بأسرها من أقبح المختلقات، وضعها الكذابون من المنجمين بعد ظهور الإسلام بأجيال عديدة. ولم يصلنا فى الواقع اسم ناقل كتاب القرانات ولا زمن نقله. وفى مكتبة الامبروزيانا مخطوطة بعنوان: «طراز الدهر فى أسرار الخلق والأمر فى أحكام جاماسب على القرانات العلوية» لمحمد بن بكر الفارسى.

ويدخل كتاب الابريدج (البزيدج فى كتابة أخرى) ومعناه بالعربية المختار، فى عداد كتب النجوم الهامة والتى لها مكانة عند المسلمين. هذا الكتاب من تأليف بزرجمهر وزير كسرى أنوشروان. وقد ذكر ابن النديم أن أصل هذا الكتاب ليس فارسيا وأن مؤلفه هو فاليس وأن بزرجمهر ترجمه إلى البهلوية. ولا نعرف اسم المترجم أو زمن ترجمته إلى العربية.

ومن الكتب الهامة فى هذا المجال كتاب (المدخل إلى صناعة النجوم) الذى ألفه الاندرزغر بن زادا نفروخ والمعلومات عنه متضاربة متناقضة ولكن من الثابت أن هذا الكتاب نقل إلى العربية مرتين نقله ابن الحاسب، وعمران بن أحمد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى ميدان **الطب** نقل المسلمون قليلاً من الكتب الفارسية إلى العربية رغم أن صاعد بن أحمد الأندلسى يذكر أن «من خواص الفرس عناية بالغة بصناعة الطب. وقد ذكر ابن النديم أن من بين الأطباء الأعاجم المشهورين بالطب أيام ملوك الأعاجم ثيودوروس وكان نصرانيا وبنى له سابور ذو الاكتاف البيع فى بلده. ولقد ترجم له إلى اللغة العربية كتاب (كناش ثيودوروس) ولا نعرف من ترجمه ولا فى أى زمن ترجم. ويذكر الإصطخرى أن برزويه - وهو من أهل مرو - كان مقدما على سائر أطباء العجم ولكن لم يصلنا له كتب مترجمة.

وعن **العقائد الدينية** عند الساسانيين ظهر كتابان هما (أفستا أو أبستا) و(شابورقان). والأفستا يعزى إلى زرادشت الذى دعا إلى هذا الدين منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد والذى اعتنقه دارا ملك الأخامينيين. وقد قام زرادشت نفسه بوضع شرح للأفستا بعنوان (الزند) وترجمه زرادشت من الفهلوية إلى الفارسية ثم عمل زرادشت شرحاً آخر على الزند نفسه سماه (بازند) شرحه الموابذة والهرابذة تحت عنوان (بارده). وعندما فتح الإسكندر الأكبر بلاد فارس وقتل دارا بن دارا، أحرق هذه الكتب جميعاً. ولكن الساسانيين عندما تولوا الحكم تبنوا الزرادشتية دينا لهم ودينا رسمياً للدولة كما شرحت سابقاً وأمر أردشير الأول رئيس الهرابذة بجمع ما يمكن جمعه من نصوص الأفستا المبعثرة وتوحيدها فى كتاب واحد ولكن شابور الأول بن أردشير أدخل فيه معلومات علمانية طبية وفلكية استقيت من أصول يونانية وهندية. وقد نقلت من الأفستا نصوص كثيرة إلى العربية، إلا أن النص الكامل حتى الذى جمعه شابور بن أردشير لم يترجم بطبيعة الحال ولم تصلنا نسخة مجمعة منه، وانما مجرد نصوص مبعثرة فى المصادر العربية الأولى.

أما الكتاب الثانى وهو شابورقان فهو أهم كتب المانوية وقد تحدث عنها ابن النديم فى الفهرست حديثاً طويلاً. وهى من العقائد التى انتشرت بين الشعب الفارسى رغم إضطهاد الملوك والحاشية لأنصارها. ويقول ابن النديم عن شابورقان أنه «من بين كتب الفرس معول» ويحتوى على ثلاثة أبواب. وفيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصول عن الأعياد ومواعيدها وكان مكتوبا بالخط السريانى ونقل ابن النديم منه صفحات طويلة. ولا نعرف إن كان قد ترجم بالكامل إلى اللغة العربية أو من ترجمه.

* * *

وهكذا فإن الترجمة من الفارسية إلى العربية كانت محدودة سواء فى عدد الكتب التى نقلت أو فى المجالات التى تناولتها الترجمة. ولم تكن بنفس التنوع والاتساع الذى كان عليه الحال بالنسبة للغة اليونانية التى نقل عنها عدد كبير من الكتب وفى مجالات متعددة وخصوصاً ما يمكن أن نطلق عليه العلوم البحتة والتطبيقية. وقد يكشف ذلك عن أن نكبة البرامكة كان لها أثرها فى الإتجاه نحو الغرب أكثر فى الترجمة من الإتجاه نحو الشرق.

الترجمة والنقل عن الهندية

ليس ثمة شك فى أنه كانت للهند قبل الإسلام حضارة وعلوم مزدهرة وأنه كانت لهم صناعات وفنون. وقد أشارت المصادر إلى شئ من هذا. وقد تحدث الجاحظ فى عدد من كتبه عن ذلك فقال: «وأما الهند فوجدناهم يقدمون فى النجوم والحساب ولهم الخط الهندى خاصة، ويقدمون فى الطب ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور والأصباغ تتخذ فى المحاريب وأشباه ذلك. ولهم الشطرنج وهو أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة. ولهم السيوف القلعية وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها. ولهم الرقى النافذة فى السموم وفى الأوجاع. ولهم غناء معجب ولهم الكنكلة، وهى وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة، ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة، ولهم السحر والتدخين والدماركة. ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضا كثيرة، ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب فى الفلسفة والأدب وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة ومن عندهم خرج الفكر وما إذا تكلم به على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السم لم يضر، وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة. وقال فى موضع آخر من نفس كتاب فخر السودان على البيضان «وقد تعلمون ما فى الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والبخر والصناعات الكثيرة العجيبة».

وقد أفاض صاعد بن أحمد الأندلسى فى مكانة الهند العلمية وأثرها فى علم العرب وذلك فى كتابه طبقات الأمم ولأهمية هذا النص فإننا نسجله هنا بلفظه:

«الهند أمة كثيرة القدر، عظيمة العدد، فخمة الممالك وقد اعترف لها بالحكمة وأقر لها بالتبرز فى فنون المعارف، جميع الملوك السالفة والقرون الماضية. فكانت الهند عند جميع الأمم على ممر الدهور وتقادم الأزمان، معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة والأمثال السائرة والنتائج الغريبة واللطائف العجيبة: فلهذا التحقوا بعلم العدد والأحكام بصناعة الهندسة ونالوا الحظ الأوفى والقدح المعلى فى معرفة حركات النجوم، وأسرار الفلك، وسائر العلوم الرياضية.

«وبعد هذا فإنهم أعلم الناس بصناعة الطب وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات، وللوكهم السير الفاضلة والملكات المحمودة والسياسات الكاملة.

«ولبعد الهند من بلادنا واعتراض الممالك بيننا وبينهم قلت عندنا تآليفهم فلم تصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا وردت علينا إلا نبذ من مذاهبهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم.

«إن مذاهب الهند فى علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم وهى: مذهب السندهند ومذهب الأرجير (أو الأرجبهذ) ومذهب الأركند. ولم يصل إلينا منهم على التحصيل إلا مذهب السندهند الذى تقلده جماعة الإسلام والفوا فيه الأزياج كمحمد بن إبراهيم الفزارى، وحبش بن عبد الله البغدادى، ومحمد إبن موسى الخوارزمى، والحسين بن الآدمى فى زيجه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ومما وصل إلينا من علومهم فى الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية (تاخر) وتفسيره ثمار الحكمة، فيه أصول اللحون وجوامع تأليف النغم.

«ومما وصل إلينا من علومهم من إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس (كليلة ودمنة) الذى جلبه برزويه الحكيم الفارسى من الهند إلى انوشروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس وترجمه له من الهندية إلى الفارسية ثم ترجمه فى الإسلام عبد الله بن المقفع من الفارسية إلى العربية، وهو كتاب عظيم الفائدة، شريف الغرض، جليل المنفعة.

«ومما وصل إلينا من علومهم فى العدد حساب الغبار الذى بسّطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى، وهو أوجز حساب وأخصره وأقربه تناولاً وأسهله مأخذا وأبدعة تركيباً، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التواليد وبراعة الإختراع.

«ومما وصل إلينا من نتائج فكرهم الصحيحة ومولدات عقولهم السليمة وغرائب صنائعهم الفاضلة الشطرنج».

لقد صور صاعد بن أحمد الأندلسى الموقف بدقة فى الهند قبل الإسلام وأثر علوم الهند بعد الإسلام فى العرب.

* * *

وكما أشرت سابقاً حصر ابن النديم فى الفهرست خمسة وستين ناقلاً من اللغات المختلفة إلى العربية وليس من بينهم سوى خمسة فقط ينقلون من الهندية إلى العربية. ولعل أول إتصال فكرى بين العرب والهنود كان فى منتصف القرن الثانى الهجرى فى عهد الخليفة العباسى الثانى وهو المنصور الذى كان ممعودا ويبدو أنه طلب بعض أطباء الهند فأرسل إليه وفد يضم مجموعة من العلماء. جاء هذا الوفد إلى بغداد سنة ٧٣٣م الموافقة لسنة ١٥٦هـ؛ وكان بين أفراد الوفد فلكى هندى يسمى (كانكا) وكان قدومه يعتبر حدثا عظيما لأنه كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالما فى الحساب الهندى أيضاً. ويقال أنه كان يحمل كتاب (سندهند). ولشغف المنصور بعلم الفلك فإنه أمر بترجمة هذا الكتاب إلى العربية وتأليف كتاب عربى أصيل على غراره. وقد عهد بهاتين المهمتين إلى محمد بن ابراهيم الفزارى الذى كان يعتبر أول فلكى فى الإسلام. وقد قام الفزارى بترجمة الكتاب الهندى (سند هند) ووضع آخر على غراره باسم (سند هند كبير) الذى بقى معمولاً به حتى عصر الخليفة المأمون حين قام محمد بن موسى الخوارزمى عالم الرياضيات الشهير بإعادة كتابته وإضافة معلومات أخرى إليه اشتهرت فى الدولة الإسلامية وانتشرت.

وتتكرر نفس قصة المرض مع هارون الرشيد الذى ينصحه الناصحون باستقدام أطباء هنود لمعالجته ويبدو أن يحيى بن خالد البرمكى هو الذى نفذ ذلك الأمر فجاء إلى بغداد أطباء ذكر منهم الجاحظ: منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباد كما ذكر ابن النديم إسم طبيب آخر هو إبن دهن «الذى كان إليه بيمارستان البرامكة نقل إلى العربى من اللسان الهندى». هذا وقد ذكر الجاحظ أن أحد هؤلاء الأطباء جلب معه كتابا فى البلاغة الهندية ترجم فى بغداد إلى العربية وقد نقل الجاحظ عن هذا الكتاب نصوصاً طويلة فى البلاغة على نحو ما قرره نفسه فى البيان والتبيين.

وقد تنوعت مجالات الترجمة عن الهنود وإن حظى الطب بالضرورة بالجزء الأكبر للأسباب التى أتيت عليها. وقد خصص ابن النديم فى الفهرست باباً سرد فيه أسماء كتب الطب التى ترجمها المسلمون عن الهنود هذا بيانها:

١ - كتاب سسرد: عشر مقالات، أمر يحيى بن خالد بتفسيره لمنكه الهندى فى البيمارستان ويجرى مجرى الكناش.

٢ - كتاب سندستان: معناه صفوة النجح، تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان.

٣ - كتاب أسماء عقاقير الهند: فسره منكه لإسحق بن سليمان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ - كتاب سيركث: فسره عبد الله بن على من الفارسى إلى العربى لأنه أولاً نقل من الهندى إلى الفارسى.

٥ - كتاب استانكر الجامع: تفسير إبن دهن.

٦ - كتاب مختصر الهند فى العقاقير.

٧ - كتاب علاجات الحبالى: للهند.

٨ - كتاب نوقشتل: فيه مائة داء ومائة دواء.

٩ - كتاب دوينى (روسا) الهندية فى علاجات النساء.

١٠ - كتاب السكر للهند.

١١ - كتاب التوهم فى الأمراض والعلل: ليوقشتل الهندى.

١٢ - كتاب رأس الهندى فى أجناس الحيات وسمومها.

١٣ - كتاب السمومات: للهند.

١٤ - كتاب الأشربة.

والكتابان الأخيران إضافة من عندى من مواضع أخرى فى الفهرست.

وقد ذكر اليعقوبى فى فردوس الحكمة بعض الكتب الطبية الهندية وهى أقل كثيرا مما ذكره ابن النديم حيث سجل فى قائمته.

١ - الكتاب الذى يسمى سسرد: فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها.

٢ - كتاب شرك. [ذكره ابن النديم تحت عنوان: سركث وفى مصادر أخرى جاء اسمه جرك].

٣ - كتاب ندان فى علامات أربعمائة وأربعة أدواء: معرفتها بغير علاج.

٤ - كتاب سندهشار وتفسيره صورة النجح [ذكره ابن النديم تحت عنوان سندستان].

٥ - كتاب فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ - كتاب أسماء العقار: كل عقار بأسماء عشرة.

وأردف اليعقوبى بأن للهند «غير ذلك من كتب الطب».

ويبدو أن كتاب شرك أو سركث أو جرك حسبما ورد فى المصادر قد حظى باهتمام خاص. وقد قدم البيرونى بعض تفاصيل عنه فقال للهند «كتاب يعرف بصاحبه وهو جرك، يقدمونه على كتبهم فى الطب... وجرك أى العاقل لما حصل من الطب من الأوائل». وربما كان اسم جرك هو الاسم العربى الذى اطلق على الطبيب الهندى الشهير كاركا سامنا الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى وربما تم نقل كتابه إلى الفارسية فى ظل الدول الساسانية. وقد استفاد من هذا الكتاب واعتمد عليه كثير من الأطباء المسلمين من بينهم على بن ربن وأبو بكر الرازى حيث نقلا كثيرا من نصوصه.

وجلى أن كتب الطب الهندية كان لها القدح المعلى حتى القرن الثالث الهجرى حين حلت محلها كتب الطب اليونانية التى اتسعت عملية نقلها إلى العربية فى النصف الثانى من القرن الثالث خاصة.

* * *

ومن المجالات التى اهتم المسلمون بالنقل فيها عن الهنود كذلك **علم الحساب والأرقام**. وقد عالجت قضية الأرقام عند العرب فى صفحات سابقة من هذا البحث؛ والآراء المختلفة حولها. يقول صاعد بن أحمد الأندلسى فى كلامه عن علوم الهند التى وصلت إلى العربى «ومما وصل إلينا من علومهم حساب الغبار الذى بسّطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى، أوجز حساب وأخصره وأقربه تناولاً وأسهله مأخذا وأبرعه تركيباً، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التواليف وبراعة الاختيار».

وقد أشار ساويروس سيبخت اسقف ماردين (٦٢٢م - ١هـ) أن للهنود تسعة أرقام فقط يستطيعون أن يكتبوا بها أى عدد كائنا ما كان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أكد كثير من المصادر العربية أن أصل الأرقام التى استعملها العرب بدءاً من القرن الثالث الهجرى، هندى ولكن علماء الغرب ومن بينهم وبكه؛ سميث؛ كاربنسكى؛ كارادى فو؛ جاندز، لهم آراء أخرى فى هذا الصدد. وأقدم مخطوط عربى يحمل الأرقام الهندية يرجع تاريخ نسخه إلى ٣٦١هـ. وأيا كان الحال فقد كان للهند مكانة عالية فى مجال علم الحساب والأرقام وقد ذكر ابن النديم عدداً من الكتب الخاصة بالحساب الهندى وترجع إلى القرنين الثالث والرابع وأغلب الظن أنها تعتمد على أصول هندية ومن ثم تدخل فى عداد المترجمات إلى العربية:

١ - الحساب الهندى: لسند بن على.

٢ - حساب الهند: لأحمد بن عمر الكرابيسى.

٣ - إستعمال الحساب الهندى.

٤ - التخت من حساب الهندى: لسنان بن الفتح.

٥ - التخت: ليعقوب الرازى.

٦ - التخت الكبير فى الحساب الهندى: لعلى أحمد الأنطاكى.

٧ - التخت فى حساب الهند: لأبى حنيفة الدينورى.

وذكر البيرونى فى فهرست كتبه الذى نشره سخاو فى مقدمة كتاب الآثار الباقية، الكتب التالية والتى تعتمد أيضا على مصادر هندية:

أ - تذكرة فى الحساب والعد بأرقام السند هند.

ب - كيفية رسوم الهند من علم الحساب.

ج - فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها.

د - من سيكلف الأعداد.

هـ - ترجمة ما فى براهم سد هاند من طرق الحساب.

ومن بين الكتب التى وصلنا ذكرها كتاب علل حساب الهند للحسن بن الهيثم، وأصول حساب الهند لكوشيار بن لبان الجيلى. وأقدم الكتب المؤلفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى وصلتنا فى الحساب الهندى هو كتاب «الفصول فى الحساب الهندى» لأحمد بن إبراهيم الإقليدسى المتوفى سنة ٣٣٢هـ. وقد طبع فى زماننا هذا بتحقيق الدكتور أحمد سعيدان سنة ١٩٧٣م. كما وصلنا ذكر كتاب المقنع فى الحساب الهندى لأحمد بن على النسوى. وكذلك كتاب الهندى المنتزع من الكافى وكتاب التعليق على الهندى.

ومن المجالات التى نقل فيها العرب أيضا عن الهند **الفلك والنجوم**. وقد أشار البيرونى إلى اهتمام الهند بهذا المجال وكثرة تآليفهم فيه حيث قال «علم النجوم فيهم أشهر من الطب لتعلق أمور الملة به. . . وقد ألف عدد من علمائهم كتبا فى أحكام النجوم فإن لكل واحد من: ماندب وبراشر وكرك وبراهم وبلبهدر ودبيانت وبراهمهر كتاب (سنكهت) وتفسيره المجموع؛ يشتمل على نيف من كل شرع: التذكرة السفرية وأحداث الجو وأمور الدول والاختيارات ثم الفراسة والتعبير والزجر وعلماؤهم به مؤمنون». كذلك أشار اليعقوبى إلى مكانة الهند فى هذا المضمار حين قال «والهند أصحاب حكمة ونظر وهم يفوقون الناس فى كل حكمة فقولهم فى النجوم أصح التقاويل وكتابهم فيه السندهند الذى اشتق كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم». وقد ألمحت قبلاً إلى ما قاله صاعد بن أحمد الأندلسى عن مذاهب الهند فى علم النجوم من أن لهم ثلاثة مذاهب مشهورة عنهم هى: السند هند؛ الأرجير (الأرجبهذ)؛ الأركند.

وقد أشرت منذ صفحات قليلة إلى أنه فى سنة ١٥٦هـ (٧٧٣م) وفد على المنصور الخليفة العباسى الثانى جماعة من علماء الهنود كان من بينهم عالم فلكى هو (كانكا) وهو يحمل كتاب (السند هند) ومعناه فيما يذكر المسعودى الكتاب الجامع لعلم الأفلاك والنجوم والحساب وغير ذلك من أمر العالم. وإن كان صاعد يقول بأن معناه الدهر الداهر. وقد أمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً لحركات النجوم والكواكب وقام بالعملين محمد بن إبراهيم الفزارى. وظل العمل بكتابه حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زمن المأمون حين اختصره أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الإسلام وقد عدل فيه معلومات كثيرة.

وقد اعتمد على السندهند كثير من العلماء العرب فى إعداد أزياج عربية منهم: محمد بن إبراهيم الفزارى كما قدمت؛ حبش بن عبد الله البغدادى؛ محمد بن موسى الخوارزمى؛ الحسين بن محمد بن الأدمى؛ يعقوب بن طارق.

وعن الفزارى يقول ابن النديم إنه: محمد بن إبراهيم بن حبيب بن سليمان ابن سمرة بن حبيب كان جده سمرة من كبار رجال البصرة فى الدولة الأموية وقد شارك فى تخطيط مدينة بغداد وهو أول من عمل الاصطرلاب فى الإسلام كما عمل مبطحاً ومسطحاً وعدد كتبه:

١ - القصيدة فى علم النجوم.

٢ - كتاب المقياس للزوال.

٣ - كتاب الزيج على سنى العرب.

٤ - كتاب العمل بالاصطرلاب: وهو ذات الحلق.

٥ - كتاب العمل بالاصطرلاب المسطح.

كما تحدث ابن النديم عن يعقوب بن طارق وقال عنه انه من أفاضل المنجمين وعدد كتبه:

١ - كتاب تقطيع كردجات الجيب.

٢ - كتاب ما ارتفع من قوس النهار.

٣ - كتاب الزيج: محلول فى السند هند لدرجة درجة.

٤ - كتاب علم الفلك.

٥ - كتاب علم الدولة.

وذكر له صاعد بن أحمد الأندلسى كتاب المقالات فى مواليد الخلفاء والملوك وقال عنه إنه من المشتهرين بالنجوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الكتب الهندية أيضا فى علم الفلك والتى كان لها أثرها فى الفلك العربى والتى ترجمت فى فترة مبكرة كتاب الأركند وهو زيج وضعه برهمكوبث بعد تأليف السند هند واعتمد فيه على أصول مختلفة ويبدو أن يعقوب بن طارق كان قد ترجمه ترجمة رديئة حيث ذكر البيرونى «أنه كان بالعربية بنقل فاسد. . . وهذبت زيج الأركند وجعلته بألفاظى إذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها لحالها متروكة». وترجم البيرونى كذلك بعض كتب المواليد من تأليف برهمر الهندى.

ومن المؤلفين الهنود البارزين فى المجال (كنكه الهندى) الذى ذكر ابن النديم أن من كتبه:

١ - أسرار المواليد.

٢ - القرانات الكبير.

٣ - القرانات الصغير.

٤ - النمودار.

وقد قال عنه أبو معشر الفلكى أن كنكه المقدم فى علم النجوم عند جميع العلماء من الهند فى سالف الدهر، لم يبلغنا تاريخ عصره ولا شئ من أخباره. بيد أن البيرونى يذكر أن كنكه كان منجماً للرشيد وأنه هو الذى تنبأ بزوال الدولة العباسية على يد رجل يخرج من أصفهان.

وفى هذا الصدد أيضا يذكر ابن النديم من الكتب التى ترجمت فى المواليد والفراسة والتطير كتاب الجفر الهندى لعطارد؛ زجر الهند؛ خط الكف والنظر فى اليد للهند؛ ولم يصلنا أى منها.

ترجم العرب عن الهنود كتبا أخرى فى موضوعات متناثرة من بينها:

- كتاب شاناق فى التدبير.

- شاناق الهندى فى أمر تدبير الحرب وما ينبغى للملك أن يتخذ من الرجال من أمر الأساورة والطعام والسم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكلا الكتابين فى الحرب والأمور العسكرية. وفى مجال السياسة والحكم لابد وأن نتوقف أمام كليلة ودمنة التى نقلها ابن المقفع عن الفارسية وهى فى الأصل هندية من تأليف بيدبا الهندى. وفى مجال المنطق هناك كتاب طوفا المعنون علم حدود المنطق. وفى مجال الأدب نجد الأدب الكبير لعبد الله بن المقفع وكتاب «الهند بين الجواد والبخيل والاحتجاج بهما، وقضاء ملك الهند بذلك» وكتاب شاناق الهندى فى الآداب: خمسة أبواب». وفى مجال الصناعات ترجم العرب كتاب «فى فراسات السيوف ونصها وصفاتها ورسومها وعلاقاتها» الذى ألفه باجهر الهندى.

* * *

ويجب أن نختم هذه الدراسة من الترجمة والنقل عند المسلمين بأمرين: الأول عن ملحوظة تتعلق بالنقل عن اللغة السريانية وعدم قدرتنا على دراسته كما حدث بالنسبة لليونانية والفارسية والهندية ذلك أن اللغة السريانية كانت فى معظم الأحيان لغة وسيطة تنقل إليها الكتب اليونانية وربما الفارسية أيضا لتمكين نقلها إلى اللغة العربية ولم يكن فيها مؤلفات علمية تغرى العرب بنقلها إلى العربية وإن كانت هناك نقولات من السريانية إلى العربية فهى عموماً قليلة وضاعت وسط الزحام. أما الأمر الثانى الذى أريد أن اختم به هذه الدراسة، فإنه يتعلق ببعض الأرقام والنسب المئوية عن حركة الترجمة والنقل استقيتها من دراستى المستفيضة لفهرست ابن النديم ومن ثم فإن تلك الأرقام تتعلق بالقرون الأربعة الأولى للهجرة.

حصر ابن النديم فى الفهرست أسماء خمسة وستين مترجما منهم ٤٥ ينقلون من لغات مختلفة وإن كان جلهم ينقل عن اليونانية، ١٥ ينقلون عن الفارسية وخمسة ينقلون عن الهندية. وقد بلغ عدد الكتب التى حصرها ابن النديم كنقولات ومترجمات ٦٣٢ كتاباً وذلك من أصل ٢٠٨٠ كتابا نشرت فى الموضوعات غير العربية التى سجلها ابن النديم فى فهرسته؛ بما يمثل ٣٠٪ من مجموع هذه الكتب. والجدول الآتى فى موضوعات مختارة فقط يعطى العدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإجمالى للكتب المنشورة فى الموضوع وعدد الكتب المترجمة واللغة المترجم منها والنسب المئوية. والدراسة التفصيلية فى المقدمة التى أعددناها لطبعتنا المحققة من فهرست ابن النديم:

الموضوع	الانتاج الكلى	المترجمات	اللغة	النسبة المئوية
الفلسفة	٤٣١	١١٨	اليونانية	٪ ٢٦,٣٨
الرياضيات والفلك والهندسة الميكانيكية	٤٧٦	١١٥	اليونانية	٪ ٢٤,٢٥
		١٦	الهندية	٪ ٣,٣٦
الطب	٤٢٦	١٥٧	اليونانية والقبطية	٪ ٣٦,٨٥
		١٣	الهندية والفارسية	٪ ٣,٠٥
		٢٠	الفارسية	٪ ١٠,٦٣
قصص وأساطير	١٨٨	١٧	الهندية	٪ ٩,٠٤
		١١	الرومية (اللاتينية)	٪ ٥,٨٥
شعوذة وسحر	٩	٦	الهندية والفارسية والرومية	٪ ٦٦,٦٧
المانوية	٨٢	٨٢	الفارسية والهندية	٪ ١٠٠,٠٠
الكيمياء	٣٧٠	١٥	اليونانية	٪ ٠,٠٤
الباه (الجنس)	١٣	١٠	الفارسية والهندية والرومية	٪ ٨,٨٤
التفاؤل والتشاوم	٢٢	١٦	الفارسية والهندية والرومية	٪ ٧٢,٧٢
الحكم والمواعظ والأمثال	٤٤	٣٠	الفارسية والهندية والرومية	٪ ٦٨,١٨
تفسير الأحلام	١٠	٤	الفارسية والرومية	٪ ٤٠,٠٠
السموم والترياق	٩	٢	الهندية	٪ ٢٢,٢٢
المجموع	٢٠٨٠	٦٣٢	٥	٪ ٣٠,٣٨

جدول المترجمات إلى العربية فى القرون الأربعة الأولى الهجرية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

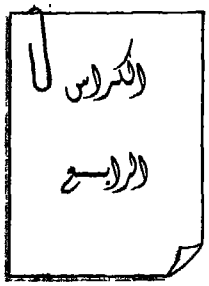

الإنتحال والنحلة في الكتاب الإسلامى

الإنتحال هو أن يسطو شخص على كتاب شخص آخر وينهبه وينسبه لنفسه كله أو جله أو بعضه دون وجه حق وهو ما يسمى أحيانا بالسرقة الأدبية أو السرقة الفكرية. أما النحلة فهى الطريق العكسى أى أن يقوم شخص ما بتأليف عمل فكرى وينسبه إلى آخر، برضائه أو بدون رضائه. ومن يدرس الإنتاج الفكرى العام عبر مسيرة البشرية الفكرية، سوف يدرك أن الأمرين قد عرفا منذ أقدم العصور وجدناهما فى مصر القديمة وفى العراق القديم وعند اليونان والرومان على النحو الذى أشرت إليه فى كتاب «الكتب والمكتبات فى العصور القديمة».

لم يسلم تاريخ الكتاب الإسلامى كذلك من وجود الأمرين معاً، وشكرًا لابن النديم على أنه أمدنا بنماذج على الأمرين، أعمال انتحلت وأعمال نحلت، كما أمدتنا المصادر الأخرى بنماذج إضافية. وهناك أمر ثالث بين الانتحال والنحلة لابد من التنبيه إليه والوقوف عنده ذلك أن الظروف السيئة للضبط الببليوجرافى للإنتاج الفكرى آنذاك وصعوبة الاتصال ومشاكله أدت إلى الخلط بين الكتب والمؤلفين عن غير قصد وعن غير عمد، وإنما فقط بسبب عدم الفهم وقصور المعرفة وأكثر من هذا تشابه عناوين الكتب مما يؤدى إلى نسبة كتاب ما إلى غير مؤلفه ووضع إسم مؤلف على غير كتابه.

ولن نهدف فى عملنا هنا إلى حصر حالات الإنتحال والنحلة وانما فقط سوف نتتبع بعض الأمثلة لنؤكد على أنها كانت ظاهرة. وسوف أبدأ بالانتحال ثم النحلة ثم العزو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن واقع كتاب الفهرست نجد أن ابن النديم يقول تحت سعيد بن حميد «كاتب، شاعر مترسل، عذب الألفاظ، مقدم فى صناعته جيد التناول للسرقة كثير الإغارة». وتحت المرثدى (أبو أحمد بن بشر): «له كتاب أشعار قريش وعليه عوَّل الصولى فى الأوراق وله انتحل». وتحت الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى العباسى) يقول: «له من الكتب أخبار سديف ومختار شعره. وهذا الكتاب عوَّل فى تأليفه على كتاب المرثدى فى الشعر والشعراء ثم نقله نقلاً وانتحله وقد رأيت دستور الرجل خرج من خزانة الصولى فافتضح به» وتحت ابن الفقيه الهمذانى نجد عبارة لاذعة لابن النديم تقول «له كتاب البلدان نحو ألف ورقة أخذه من كتب الناس وسلخ كتاب الجيهانى». وتحت حكاية من خط ابن المكتفى قال ابن النديم «قرأت فى كتاب بخط ابن الجهم ما هذه حكايته: كتاب المدخل لسند بن على وهبة (فى علم النجوم)، وقع فى يد أبى معشر فانتحله أبو معشر لأن أبا معشر تعلم النجوم على كبر ولم يبلغ عقل أبى معشر صنعة هذا الكتاب ولا التسع المقالات فى المواليد ولا الكتاب فى القرانات المنسوب إلى ابن البازيار. هذا كله لسند بن على».

ومن المؤلفين الذين عرف عنهم السطو على كتب الآخرين محمد بن حبيب الذى قال عنه المرزبانى «كان يغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط أسماءهم فمن ذلك الكتاب الذى ألفه اسماعيل بن أبى عبيد وكنيته فى الغالب على اسمه فلم يذكرها لئلا يعرف وابتدأ فساق كتاب الرجل من أوله إلى آخره ولم يغير فيه حرفاً ولا زاد فيه».

كما يذكر أن كتب الخطيب البغدادى سوى التاريخ «مستفادة من كتب الصورى. كان الصورى بدأ بها ولم يتمها، وكانت للصورى أخت بصور مات، وخلف عندها اثنى عشر عدلاً مخروما من الكتب، فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف منها كتبه.

وقد ذكر ياقوت الرومى فى معجم البلدان أن العلامة الحازمى مؤلف كتاب (المتفق والمختلف من أسماء البلدان) قد أخذ هذا الكتاب كله من كتاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للإسكندرى. فيقول: «أوقفنى صديقنا محمد بن محمود النجار على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهانى من كتاب ألفه أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى فيما أئتلف واختلف من أسماء البقاع فوجدته رجلاً ضابطاً، وقد أنفذ فى تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثراً ووجدت الحازمى رحمه الله قد اختلس هذا الكتاب واستجهل الرواة فرواه. ولقد كنت عند وقوفى على كتابه أرفع قدره من علمه وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه إلى أن كشف الله جبنته وتمخض المخض عن زبدته. فأما أنا فكل ما نقلته من نصر فقد نسبته إليه واحلت عليه ولم أنصبه ولا أجهلت ذكره ونصبه».

ويقول خليل بن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات: اتضح للكثير من العلماء أن كتاب فصيح لثعلب، ليس له وإنما هو من تصنيف الحسن بن داود الرقى وادعاه ثعلب وقيل إنه ليعقوب بن السكيت.

كذلك أورد السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع نماذج من السرقات الفكرية منها ما ورد تحت ترجمة ابن الكركى يقول عن كتابه النجوم الزاهرة فى أخبار قضاة مصر والقاهرة: «رأيت هذا الكتاب خاصة وهو مختصر لخص فيه رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى من نسختين وكتب من هوامشها ما أثبته من تراجم من تأخر وزاد أشياء منكرة.

كما يقول فى ترجمة محمد عبد الدائم النعيمى «له شرح العمدة لخصه من شرحها لشيخه ابن الملقن من غير إفصاح بذلك مع زيادات يسيرة وعابه شيخنا ابن حجر العسقلانى بذلك».

يقول ياقوت الرومى عن أحمد بن أبى طاهر المعروف بطيفور «كان مؤدب كتاب عاميا ثم تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى. ولم أر ممن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفا منه ولا أبلد علماً ولا ألحن... وكان أسرق الناس لنصف بيت وثلث... وكان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان جلال الدين السيوطى يلفق بين الكتب المنشورة فى موضوع معين ويضع منها كتاباً واحداً ينسبه لنفسه وربما اختصر وأضاف إلى كتاب معين وبدل عنوانه ونسبه لنفسه.

ويقول ابن النديم أيضا فى الفهرست أن الأخفش أخذ كتاب أبى عبيدة فى معانى القرآن فاسقط منه أشياءً، أو أبدل منه أشياء وقد اكتشف ذلك أبو حاتم السجستانى فقال له أى شئ هذا الذى تصنع من هذا، من أعرف بالعربية أنت أو أبو عبيدة؟ فقال الكتاب لمن أصلحه وليس لمن أفسده فلن يلتفت إلى كتابه وصار مطرحًا.

وكان ابن حجر العسقلانى يعيب على بعض المؤلفين النقل الأعمى بدون حتى أى تصرف من كتب الآخرين دون أن يسندوا إليهم كلامهم فيقول فى الضوء اللامع عن ابن سيد الناس كان صحيح العقيدة جيد الذهن يفهم النكت الفعلية ويسارع إليها ولكنه جمد ذهنه لاقتصاره على النقل» ويقول فى ترجمته لبدر الدين العينى عند حديثه عن كتابه شرح البخارى «استمد فيه من شرح شيخنا ابن حجر العسقلانى بحيث **ينقل منه الورقة بكاملها** وربما اعترض لكن قد تعقبه شيخنا فى مجلد حافل».. ويقول عن ابن سبط العجمى «مؤلفاته ممتعة ومحررة دالة على تتبع زائد وإتقان وهو قليل المباحث فيها كثير النقل».

هذه مجرد نماذج قليلة من ظاهرة الانتحال الكلى والجزئى التى بها حفل تاريخ الكتاب الإسلامى المبكر ولكن من النماذج المتأخرة نتوقف أما اسمين يحتاجان إلى بحث دقيق وتأن وروية فى الحكم عليهما **أولهما** طاش كوبرى زادة فى كتابه مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم فقد قيل بأن هذا الكتاب الضخم بأكمله قد انتحله المؤلف ونسبه لنفسه. يقول الأستاذ أحمد زكى فى كتابه موسوعات العلوم العربية: «وللأرنيقى كتاب إسمه مدينة العلوم اعتمد عليه صاحب أبجد العلوم [محمد صديق خان وسأعود إليه] اعتمادا كبيرا فى أغلب مواضيعه وأبوابه وأورد من مقدمته طُرفا خيلت لى أنه هو ومصباح السعادة شئ واحد أو أن أحدهما نقل عن الآخر من غير أن ينسب إليه. ولقد ازداد عجبى لما خالجنى هذا الخاطر، خصوصاً عندما رأيت صاحب الأبجد يسرد فهرس مدينة العلوم وكيفية ربطه للعلوم مع بعضها فإنها أشبهت عندى تمام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المشابهة فهرس مفتاح السعادة، إذ كنت توجهت أثناء اشتغالى [أحمد زكى] بجمع هذه الرسالة إلى الكتبخانة الخديوية واطلعت عليه قبل اطلاعى على الأبجد ثم رأيت صاحب الأبجد قد أورد العبارة الآتية على هامش صحيفة ٢٨٩ من كتابه وهى من الغرابة بمكان (ولم نقف من كتاب مفتاح السعادة إلا على ما نقله ملاكاتب الجلبى فى كشف الظنون ووقفنا على كتاب مدينة العلوم فوجدناه كأنه هو لا وكس فى العبارة ولا شطط فى الإشارة لكن لم يتعرض لذكره صاحب الكشف كما تعرض لذكر المفتاح مع أنه مقدم التأليف، فلم يحصل الفرق لنا بين هذين الكتابين فى المبنى والمعنى غير أنهما يتفاوتان اسماً ومتحدان مسمى). فلما رأيت ذلك [أحمد زكى] لم أتمالك أن توجهت إلى الكتبخانة الخديوية العامرة ثانية وقابلت بين مقدمة مدينة العلوم وفهرسه على ما فى أبجد العلوم وبين مقدمة مفتاح السعادة وفهرسه فإذا الكتابان لا يكادان يختلفان إلا فى بعض ألفاظ قليلة وزيادات طفيفة جداً وتقديم وتأخير لا يشعر به الانسان. هذا وربما كان كتاب مدينة العلوم مجهولاً فانتحله المولى طاشكبرى زاده وغير اسمه فإنا لم نسمع به قط وغاية ما علمته أثناء بحثى فى موضوع هذه الرسالة أن لأحد الفضلاء صديقاً عنده كتاب اسمه مفتاح مدينة العلوم ولم يتح لى الاطلاع عليه ولكن عالمية طاشكبرى زادة وشهرته وتداول كتبه المفيدة المتعددة مما لا يختلف فيه اثنان فليت شعرى ما هى الحقيقة فى هذا المشكل العظيم. وهل سرق الرجل هذا التأليف الجسيم وغير اسمه ليدلس على العلماء؛ لا أقدر أن أقول بذلك ولكنى أترك هذا البحث للأيام فهى تتكفل ببيان الحقيقة وإماطة النقاب عن هذا الأمر العجاب.

والاسم الثانى كنموذج متأخر هو محمد صديق خان القنوجى المتوفى سنة ١٣٠٧هـ، الذى قال عنه الأستاذ أحمد زكى فى النص السابق بصريح العبارة أنه فى كتاب أبجد العلوم اعتمد اعتماداً كبيرا على كتاب الأرنيقى مدينة العلوم. كما ذكرت مصادر أخرى عديدة عنه أنه انتحل كتبا كاملة من مؤلفات العلامة الشوكانى وابن الأمير الصنعانى ونسبها إلى نفسه.

* * *

هذا على جانب الإنتحال، أما على جانب النحلة فإن الأمثلة أيضاً كثيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأسبابها متعددة، قد تكون مادية مالية، كأن يؤلف مؤلف ما كتابا وينحله لشخص طمعا فى مال يتفق عليه وقد تكون الأسباب دينية مذهبية كأن يؤلف أعضاء المذهب كتباً وينحلونها زعيم المذهب تبركاً أو سطوة؛ وقد تكون الأسباب سياسية فقد يتقرب بعض المؤلفين إلى الحاكم فينحلونه كتبا يؤلفونها له ليلطع عليها اسمه. وقد تكون الأسباب إجتماعية كأن يخاف المؤلف من المجتمع فينسب كتابه إلي شخص آخر وهو الأمر الذى استعضنا عنه فى الوقت الحاضر بالإسم المستعار والعبارة المتخذة. وقد تكون الأسباب نفسية كأن يريد شخص مغمور أن يشتهر فيؤلف كتبا وربما قصائد وينسبها إلى مؤلف راسخ أو شاعر ذى مكانة وعندما يتداول الناس عمله على هذا الوضع يشعر بسعادة نفسية غامرة. والأمثلة التى نسوقها من ابن النديم وغيره تكشف عن هذه الجوانب.

تحت أخبار جابر بن حيان وأسماء كتبه يقول ابن النديم «قال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين، أن هذا الرجل يعنى جابراً، لا أصل له ولا حقيقة وبعضهم قال إنه ما صنف؛ وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها».

كما يقول فى الفن الثانى من المقالة السابعة أن من سعادات حنين أن ما نقله حبيش بن الحسن الأعسم وعيسى بن يحيى وغيرهما إلى العربى ينحل إلى حنين. وإذا رجعنا إلى فهرست كتب جالينوس الذى عمله حنين إلى على ابن يحيى علمنا أن الذى نقله حنين أكثره إلى السريانى وربما أصلح العربى من نقل غيره أو تصفحه».

وتحت أخبار خشكنانجة الكاتب (أبو الحسن على بن وصيف) كان من البلغاء فى معناه وألف عدة كتب ونحلها عبدان صاحب الإسماعيلية». وتحت عنوان: بنو حماد «... وقد ألفوا كتبا وأضافوها إلى عبدان. وتحت اسماء المصنفين لكتب الإسماعيلية وأسماء الكتب «عبدان وقد تقدم ذكره وهو أكثر الجماعة كتبا وتصنيفا. وكل من عمل كتاباً نحله إياه ولعبدان فهرست يحتوى على ما صنفه من الكتب».

ومن المؤلفين الذين نحلوا كتبا ليست لهم الشيخ الغزالى حجة الإسلام فقد نسبت إليه عمداً كتب (المظنون به على غير أهله)؛ (سر العالمين)؛ (التبر المسبوك).

وفى فهرست ابن النديم أيضاً يقول حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن أن كتاب الأغانى الكبير لم يؤلفه أبوه وانما نسب إليه عمداً، «وقد وضعه وراق كان لأبى بعد وفاته.. وليس فى الكتاب سوى الرخصة التى هى أول الكتاب فإن أبى ألفها».

أما عن الإغراء بالمال لنسبة الأعمال إلى حاكم أو سلطان أو صاحب جاه فقد قيل أن الملك الأشرف الرسولى باليمن المتوفى سنة ٨٠٣هـ كان مغرماً بنسبة الكتب إليه فربما أمر جماعة من العلماء أن يؤلفوا كتباً باسمه فيما يقول السخاوى فى الضوء اللامع. كما يقال أن الملك الأفضل الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨هـ كانت أكثر الكتب المنسوبة إليه من وضع القاضى رضى الدين أبو بكر ابن محمد النزارى الصبرى.

ولعل اغراء المال والسلطان الذى يدفع ببعض المؤلفين إلى نحل كتبهم لغيرهم هو الذى جعل ياقوت الرومى فى مقدمة معجم الأدباء يشدد على أنه لو جمع له مال قارون للتنازل عن نسبة كتبه ونحلها إلى غيره ما فعل فهو يقول فى عبارة بليغة «واعلم لو أنى أعطيت حمر النعم وسودها ومقانب الملوك وبنودها لما سرنى أن ينسب هذا الكتاب إلى سواى وأن يفوز بقصب السبق إلاَّى لما قاسيت فى تحصيله من المشقة وطويت فى تكميله الشقة».

وكذلك فعل أبو غالب الأندلسى عندما ألَّف كتابا فى اللغة فبذل له الملك مجاهد العامرى ملك دانية ألف دينار ومركوبا وكساءً على أن يجعل الكتاب باسمه فلم يقبل ذلك أبو غالب وقال قولته الشهيرة «كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى، أجعل فى صدره إسم غيرى وأصرف الفخر له، لا أفعل ذلك».

* * *

وكما ألمحت سابقاً كان من السهل نسبة كتاب إلى مؤلف ما خطأً وعن غير قصد وذلك بسبب سوء عملية الضبط الببليوجرافى وضعف الإتصال فى إمبراطورية مترامية الأطراف مما سبب لهم ولنا إرباكاً شديداً فى بعض الأحيان. والأمثلة على النسبة الخطأ بدون عمد نستقيها أيضا من ابن النديم فقد ذكر تحت عوانة فى كتاب سيرة معاوية وبنى أمية «أن هذا الكتاب ينسب إلى منجاب بن الحارث ولكن الصحيح أنه لعوانة». وتحت الفتح بن خاقان «له كتاب البستان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منسوب إليه والذى ألفه رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل». كذلك الحال عندما تحدث الفهرست عن الكسروى تحت كتاب «مناقضات من زعم أنه لا ينبغى أن يقتدى القضاة فى مطامعهم بالأئمة والخلفاء» يعزى إلى الكسروى الكاتب. وتحت الجاحظ «كتاب الهدايا منحول»؛ وتحت ثاوفرسطس «ومما ينحل إليه تفسير كتاب قاطيغورياس» هذه الأمثلة ومئات غيرها يغص بها فهرست ابن النديم تكشف عن النحلة بدون قصد ونتيجة للجهل بالمؤلف الحقيقى وقصور الضبط الببليوجرافى.

* * *

وعلى الجانب الآخر وربما بسبب الغيرة والحسد كان من الممكن أن يتهم بعض المؤلفين زوراً وبهتاناً بأنهم إنتحلوا أعمالاً ليست لهم وهم من هذه التهمة أبرياء. كما حدث مع العلامة أحمد بن عمار المهدوى المغربى المتوفى سنة ٤٤٠هـ فقد قيل أنه «ألف كتبا كثيرة النفع مثل كتاب التفصيل وهو كتاب كبير فى التفسير ولما ظهر هذا الكتاب فى الأندلس قيل لمتولى الجهة التى نزل بها من الأندلس ليس الكتاب من تأليفه وإذا أردت البينة على ذلك فخذ الكتاب إليك واطلب منه تأليف غيره ففعل ذلك وطلب غيره فألف له التحصيل وهو كالمختصر منه».

وربما كان الانتحال الكلى أو الجزئى وكذلك النحلة والعزو سبباً رئيسيا فى أن بعض المؤلفين كان يصب لعناته على من يفعل ذلك على النحو الذى قام به المسعودى فى ختام كتاب مروج الذهب والذى أشرت إليه سابقاً واكرره هنا حيث المقام ملائم: -

«فمن حرف شيئًا من مبناه أو طمس واضحة من معانيه أو بدله أو انتحله أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا أو أسقط منه ذكرنا فعليه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله مثلة للعاملين».

وبنفس الطريقة حذر ياقوت الرومى فى معجميه البلدان والأدباء من نفس السلوك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

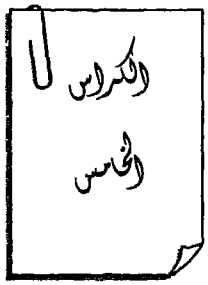

الوراقة والوراقون عند المسلمين

ظهر مصطلح الورّاق والوراقة بعد معرفة المسلمين للورق وانتشار صناعته فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى. وقد كان مصطلح وراق فى بدايته يعنى الناسخ الذى ينسخ الكتب بخط يده ثم تطور بعد ذلك ليعنى دوراً أكبر يرادف مصطلح الناشر فى عصرنا الحالى. ومن نفس هذا المنطلق فإن مصطلح الوراقة هو الآخر فى بداية أمره كان يعنى النسخ إمتداداً لما كان عليه الحال قبل ظهور الورق ولكنه تطور بعد ذلك ليعنى سلسلة العمليات الداخلة فى إنتاج الكتاب وهو ما يقابل فى مفهومنا الحالى مصطلح النشر بحلقاته الثلاث وأطرافه الأربعة. وغدا الناسخ طرفاً واحداً فى عملية الوراقة وغدت النساخة حلقة واحدة فى حلقات الوراقة. وكان الناسخ يطلق عليه أحيانا وخاصة فى القرنين الأول والثانى للهجرة اسم الكاتب. يؤكد المعنى الواسع للوراقة أى بمعنى النشر ثلاثى العمليات أو الحلقات، النص الذى أورده ياقوت الرومى فى معجم الأدباء والذى يقول «وحدّث أبو مسحل عبد الوهاب قال كان إسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة فى أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الأثرم وهو يومئذ وراق وجعله فى دار من دوره وأغلق عليه الباب ودفع إليه كتب أبى عبيدة وأمره بنسخها فكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم فيدفع إلينا الكتاب والورق الأبيض من عنده ويسألنا نسخه وتعجيله ويوافقنا على الوقت الذى نرده إليه فكنا نفعل ذلك وكان الأثرم يقرأ على أبى عبيدة وكان أبو عبيدة من أضن الناس ولو علم ما فعله الأثرم لمنعه من ذلك».

ويذهب عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا المعنى الشامل فى كتابه: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذوى السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون «. . . فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما فى الآفاق والأمصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصليح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران».

عندما تحول معنى الوراقة من النسخ إلى النشر وتحول مصطلح الوراق من الناسخ إلى الناشر، لم يختف المصطلح بمعناه الضيق فجأة ولكن المعنى الضيق عاش فترة طويلة من الزمن إلى جانب المعنى الواسع فهذا هو السمعانى فى كتاب الأنساب يعرف الوراق بأنه اسم من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها. ويقال لمن يبيع الورق، الوراق.

ويمكننا أن نصور الأعمال التى يقوم بها الوراق فى ذلك الوقت بمعناه الواسع (الناشر) على النحو التالى:

١ - أن ينشئ محلاً للوراقة (حانوتا أو دكانا بلغة ذلك العصر) يكون مقراً للقرطاسية من ورق وحبر وأقلام، ويكون مقراً لاجتماع النساخين لنسخ الكتب؛ يوزع عليهم العمل لنسخه تحت اشرافه. وربما يحدد من يملى الكتاب إذا كان الهدف إنتاج أكثر من نسخة فى وقت واحد ويحدد طريقة مراجعة النسخ.

٢ - يقوم بشراء القرطاسية من مصانع الورق والأحبار والأقلام والدوى. . . وربما يصنع بعضها فى دكانه مثل الحبر والأقلام مما لايحتاج إلى مجهود خاص أو آلات خاصة. كما يقوم باختيار الورق المناسب من حيث النوع والحجم والجودة.

٣ - يستأذن المؤلفين فى نسخ وتوزيع كتبهم ويتفق معهم. وفى بعض الأحيان كان يتم الأمر دون إذن من المؤلفين. وكان الوراق يحدد ما قد يروج لديه من الكتب.

٤ - الاتفاق مع الزبائن من مشترى الكتب على النسخ التى يريدونها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسعر الذى يدفعونه فيها. وترتيب تجليد الكتب وتصويرها ووضع رسومها وزخرفتها إن كان ذلك مطلوبا من قبل الزبائن.

٥ - فى القليل النادر كان بعض الوراقين يملكون ورش تجليد لتجليد الكتب لأن التجليد والتصوير كانا عملين منفصلين عن النسخ وإن كانا يدخلان فى الوراقة بمعناها الواسع.

٦ - يقوم ببيع الكتب وتوزيعها سواء تم ذلك فى دكانه أو خارج الدكان فى الأسواق وعلى البيوت فتذكر المصادر أن ياقوت الرومى كان يحمل الكتب على أتانه ويذهب بها إلى الأسواق لبيعها.

وقد انتشرت دكاكين الوراقين وحوانيتهم فى الدولة العباسية منذ أيامها الأولى فيما نستشف من معجم الأدباء لياقوت الرومى. بل وكان من الظواهر الطريفة أن تكون لهم أحياء خاصة بهم فى المدن الكبرى على نحو ما كان للصناعات الأخرى وكانت لهم أيضا أسواق خاصة. وتذكر المصادر أن عدد حوانيت الوراقين فى ربض وضاح وهو من ضواحى بغداد بلغ أكثر من مائة دكان فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) كما كانت هناك أسواق للكتب فى القاهرة ودمشق ومعظم المدن الإسلامية فقد ذكر الدكتور أحمد شلبى فى كتاب تاريخ التربية الإسلامية أنه كان فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات. كما يذكر المقريزى فى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) سوق الوراقين بالقاهرة فى أكثر من موضع وفى أكثر من مناسبة، كما يشير إلى سوق الوراقين القديمة التى حل محلها سوق لصبغ الجلود. ويشير ابن النديم إلى مكان آخر فى بغداد تباع فيه الكتب وهو طاق الحرانى عند حديثه عن جعفر بن أحمد المروزى الذى توفى بالأهواز وحملت كتبه إلى بغداد وبيعت فى طاق الحرانى هذا سنة ٢٧٤هـ. وقد سبقت الاشارة إلى ماقاله ياقوت الرومى وما قاله ابن النديم فى أخبار أحمد بن أبى طاهر المعروف بابن طيفور وهو من أبناء خراسان الذى كان مؤدب كتاب عامياً ثم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى من بغداد. هذا النص يؤكد على أن سوق الكتب فى بغداد كانت فى الناحية الشرقية من المدينة فى القرن الرابع والخامس الهجرى وربما بعدهما.

وكانت الوراقة عموما مهنة محترمة اشتغلت بها طائفة من العلماء المؤلفين المحترمين من بينهم محمد بن إسحاق ابن النديم وأبوه إسحق النديم على نحو ما شرحنا تفصيلاً فى دراستنا للفهرست. ومنهم ياقوت الرومى الحموى نفسه. ومنهم سعد بن على بن القاسم أبو المعالى الأنصارى الخطيري الذى يصفه ياقوت فى معجم الأدباء بأنه كان «أديبا فاضلاً شاعراً رقيق الشعر وله مصنفات كان معروفا باسم الوراق دلال الكتب». كما كان أبو الفتوح ناصر بن أبى الحسن المعروف بابن صورة سمساراً فى الكتب فى مصر. وهناك أيضا من الدلائل ما يدل على أن أبا حيان التوحيدى كان وراقا بالمعنى الشامل للوراقة، وغير هؤلاء كثيرون.

وهناك من الشواهد ما يؤكد على أن دور الوراقة - دور النشر فى مفهومنا - كانت أماكن لالتقاء المثقفين والعلماء ومنتدى للجدل والمساجلة والنقاش والتواصل الفكرى وتبادل المعلومات والأحداث وإلقاء الأشعار. ومن المعروف المشهود أن الجاحظ كان يبيت فى حوانيت الوراقين للقراءة وكانت نهايته فيها عندما انهارت عليه رفوف الكتب بأحمالها وأثقالها. كما أن أبا الفرج الأصفهانى كان دائم التردد على أسواق الوراقين فى بغداد لنفس الغرض ويقال إنه كان يجلس طويلاً عند وراق معين. كما اعتاد الشاعر أبو الحسن على بن يوسف بن البقال الجلوس عند الوراق أبى الفتح بن الجزار فى نفس السوق.

ويشير ابن خلكان إلى سمسار الكتب الذى ألمحت إليه سابقاً وهو أبو الفتوح ناصر بن أبى الحسن على بن خلف الأنصارى المعروف بابن صورة، الذى كانت دكانته دار ندوة أدبية كبرى وكان له فى ذلك حظ كبير إذ كان يجلس فى دهليز داره ويجتمع عنده فى يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التى تباع ولا يزالون عنده إلى وقت إنقضاء السوق. وقد توفى ابن صورة سنة ٦٠٧هـ.

وكما هو الحال فى كل مهنة وجد من بين الوراقين من أساءوا إلى مهنة الوراقة اساءة بالغة وذلك عن طريق:

١ - دس معلومات لم يقل بها مؤلف العمل الأصلى فيما ينسخون من كتب مما سنرى نماذج له فيما بعد.

٢ - تزوير بعض الحقائق عن طريق تغيير ما يجدونه فى الكتاب الذى ينسخون.

٣ - نسبة كتاب إلى غير مؤلفه أو انتحال إسم مؤلف كبير رغبة فى ترويج كتاب من وضع مؤلف مغمور.

٤ - رداءة الخط وسوء إخراج الكتاب باستخدام نساخ منخفض الأجرة.

وبسبب ذلك ضرب عنهم المثل القائل «تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين» إشارة إلى أن المعلومات غير دقيقة وغير موثقة أو كما نقول فى أيامنا «كلام جرايد».

الناسخون والنساخة

وعندما نترك الوراقة والوراق بالمعنى الواسع (النشر والناشر) إلى المعنى الضيق أى النسخ والناسخ؛ سوف نجد أن المصادر القديمة قد جادت علينا بكثير من المعلومات التى يمكن مع تبعثرها وشتاتها أن نكون منها قطعة من الفسيفساء المعبرة عن النسخ والناسخين فى العصر الإسلامى.

كان هناك ثلاث فئات من الناسخين فى ذلك العصر: أ - ناسخ يعمل فى خدمة وراق معين. ب - ناسخ يعمل فى خدمة مؤلف معين. ج - ناسخ مستقل يعمل لحسابه الشخصى.

ذلك أن الوراقة عندما اتسعت رقعتها وعلا شأنها وأصبح هناك العديد من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دكاكين الوراقين على النحو الذى أشرت إليه كان لابد للوراق الواحد لكى ينجز أعماله بسرعة من أن يستخدم عدداً من النساخين ينسخون له كتبه بالجملة عندما يكون المطلوب عدداً من النسخ من كتاب معين فى وقت واحد. حيث كان يملى أحد النساخ الكتاب على عدد من زملائه الناسخين بعدد النسخ المطلوبة ويقوم كل واحد منهم بمراجعة نسخة زميله للتأكد من سلامتها أو يقوم رئيسهم بالمراجعة حسب مقتضيات الأحوال، وربما قام الوراق صاحب العمل بهذا العبء. وربما كان الوراق صاحب العمل يؤجر النساخين الأفراد العاملين عنده باليوم وليس بالورقة أو الملزمة كما سنرى فى حالة الأفراد المستقلين. فيذكر ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان على لسان محمد بن خلف المرزبانى المتوفى سنة ٣٠٩هـ يقول «مضيت إلى الحارث بن أبى ساسة فوجدت فى دهليز بيته قوما من الوراقين وهو يكتب أسماءهم على كل واحد درهمين فقلت له أكتب إسمى فكتب» فالنساخ هنا يتقاضون أجورهم بالمياومة وليس بالورقة أو النسخة.

وقد جرت العادة منذ القرن الثانى الهجرى أن يكون لبعض المؤلفين الناسخ الخصوصى الذى ينسخ للمؤلف كتبه حسب مواصفاته فابن النديم يسرد علينا نماذج من هؤلاء النساخ فلقد كان للجاحظ وراقه الخاص واسمه زكريا بن يحيى وقد ذكر ابن النديم أنه رأى بعض كتب الحاجظ بخط هذا الناسخ مثل كتاب النساء وكتاب النعل، كما كان على بن أحمد الدريدى وراقا لابن دريد وإليه صارت كتب ابن دريد بعد موته. وكان للمبرد أكثر من وراق واحد حيث قال ابن النديم «ومن وراقى المبرد: ابن الزجاجى واسمه إسماعيل بن أحمد؛ والساسى وإسمه إبراهيم بن محمد» ومن تلاميذ الكندى ووراقيه، حسنويه وسلمويه ونفطويه.

أما الفئة الثالثة من الناسخين وهى فئة الوراقين المستقلين الذين كانوا يكسبون عيشهم من وراء النسخ فأغلب الظن أنهم كانوا ينسخون الكتب ويبيعونها لحسابهم أو يؤجرهم شخص ما يريد اقتناء الكتاب لنسخه له مقابل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مال يتفق عليه سلفاً وهم يشبهون الكتبة الذين يجلسون أمام المحاكم فى أيامنا ليكتبوا للمتقاضين شكاواهم التى يتقدمون بها إلى المحاكم أو أقسام البوليس والنيابات. وهؤلاء ربما احترفوا النسخ لحاجتهم إلى المال وتمدنا المصادر بفيض من أسماء هؤلاء النساخين من بينهم بعض الإناث، ومن بينهم علماء أجلاء دفعتهم الحاجة إلى إحتراف هذه المهنة وربما دفعهم الفقر والفاقة دفعاً إلى ذلك.

من الشخصيات التى توقفت عندها المصادر أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد الذى صار خليفة فيما بعد وسمى «المستعين بالله» عام ٢٤٨هـ، دفعته الفاقة - فيما يقول الدكتور على الخطيب - إلى أن يرتزق بالوراقة. ومنهم أبو حيان التوحيدى الذى أشرنا إليه من قبل وقد دفعته الفاقة هو الآخر لأن يعمل بالنسخ ليتكسب من ورائه. ومن الوراقين الأفراد أبو على بن شهاب العكبرى المتوفى سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٨م) وأبو عبيد على بن الحسين بن حرب البغدادى الفقيه الشافعى قاضى مصر عاش فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى. ومنهم أيضا السرى الرفاء الشاعر الأشهر المتوفى سنة ٣٦٠هـ. ويقول ابن النديم أن أقدم النساخ هو مالك بن دينار مولى أسامة بن لؤى بن غالب الذى كان ينسخ المصاحف وقد توفى سنة ١٣١هـ (٧٤٨م).

ومن الناسخين العلماء أيضا أبو سعيد السيرافى، والحسن بن عبد الله المرزبانى المتوفى سنة ٣٦٧هـ والفقيه أبو بكر على بن الحداد المتوفى سنة ٨٠٠هـ الذى كان عنده أولاد كثيرون وأصابه الفقر فاشتغل بالنسخ ورفض عطايا سلطان اليمن. وهناك خبر طريف ذكره القفطى عن الحسن بن الهيثم وهو ما هو عليه من شهرة وعلم والمتوفى سنة ٤٣٠هـ يقول الخبر عنه إنه «كان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب ضمن اشتغاله بالعلم وهى كتاب إقليدس والمتوسطات والمجسطى ويستكملها فى مدة السنة فإذا شرع فى نسخها جاء من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية. وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه إلى مماكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤونته لسنة كاملة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات أن الفقيه أحمد بن على الحطيئة الفاسى قد دخل مصر مع أولاده وصادف دخوله مجاعة كبيرة فاشتغل بالنسخ وعلم زوجته وابنته النسخ فكانتا تكتبان مثل خطه ونسخ الكثير بالأجرة فإذا شرعوا فى نسخ كتاب أخذ كل واحد جزءا وكتبوه فلا يفرق بين خطوطهم إلا حاذق.

وقد أمدتنا المصادر باسم ناسخة مغربية هى عائشة بنت الفقيه عمارة بن يحيى عمارة، يقول الغبرينى عنها فى كتاب الدراية «كانت أديبة أريبة فصيحة وكان لها خط حسن رأيت كتاب يتيمة الدهر للثعالبى بخطها فى ثمانية عشر جزءا وهى نسخة خطية ثمينة ما رأيت أحسن منها ولا أصح وقد رأيت من هذا الكتاب نسخاً كثيرة منتقدة إلا هذه النسخة ولهذا يجب أن تكون هذه النسخة أصلاً لهذا الكتاب حيث كان».

* * *

ومن الطريف أن بعض المؤلفين كان ينسخ كتبه ويبيعها كما يقوم بعض المؤلفين فى زماننا بالنشر على حسابهم لكتبهم. ومن بينهم أبو الفتح سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ الذى كان يتكسب من نسخ كتابه (عيون الأثر) الذى يعالج السيرة النبوية، ومنهم علان الشعوبى مؤلف كتاب المثالب وغيرهما. ولسنا نعرف السبب وراء ذلك هل كان الهدف تحقيق الربح من وراء كتب رائجة ومنع الآخرين من نسخها والاتجار فيها وتفويت الفرصة عليهم، أم كان الهدف هو حماية الكتاب من النسخ الردئ المليئ بالأخطاء؟ ذلك أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا لينسخوا غير كتبهم ويتربحوا من ورائها.

* * *

لقد كان عدد الناسخين فى هذه الفئة كبيراً وكانت هناك منافسة شديدة فيما بينهم على عملية نسخ الكتب. وظهر من بينهم الناسخ الخطاط، الذى يسعى الناس وراء الكتب التى ينسخها، ليس حبا فى الكتب أو موضوعاتها وإنما رغبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الخط نفسه وصاحب الخط، كما هو الحال مع الوزير ابن مقلة (أبو على محمد بن على بن مقلة) الخطاط الشهير (٢٧٢هـ - ٣٢٨هـ) وهو أول من هندس الحروف وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطا محكماً. وكما حدث أيضا مع محمد بن السمسمانى ومحمد بن أسد. وكان محمد بن على بن عبد الله السمسمانى متفوقا فى الخط لايماثله أحد فى زمانه. وقد توفى سنة ٤١٥هـ. أما محمد بن على بن سعيد بن أسد القارى فكان أيضا من المبرزين أصحاب المدارس فى الخط وقد توفى سنة ٤١٦هـ.

ولعل الناسخ الخطاط الذى ضربت شهرته الآفاق وتهافت الناس على النسخ التى ينسخها ودفعوا فيها مبالغ كبيرة هو أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب وقد قال عنه محمد بن حسن الطيبى فى كتابه (جامع محاسن كتابة الكتاب) «لم يوجد فى المتقدمين ولا فى المتأخرين من كتب مثله أو قاربه... فالكل معترفون لأبى الحسن بالتفرد وعلى منواله ينسجون وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعى ذلك مع أن فى الخلق من يدعى ماليس فيه فما رأينا ولا سمعنا أن أحداً ادعى ذلك، بل الجميع أقروا له بالسابقة وعدم المشاركة». ومن حسن حظنا أن قام الطيبى هذا (توفى ٩٠٨هـ: أى بعد خمسة قرون تقريباً من وفاة ابن البواب الذى توفى ٤٢٣ أو ٤١٣هـ) بوضع الكتاب المذكور وجمع فيه طرق ابن البواب فى جميع الخطوط وأتحفنا بنماذج من خطه، وهو أشمل كتاب عن خط ابن البواب وحياته وقد حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد ونشر فى بيروت ١٩٦٢. وكانت لابن البواب حيل طريفة ذكر جانبا منها ابن النديم سوف نأتى على بعضها فيما بعد.

وكان من الطبيعى أن يفضل مشترو الكتب نسخ بعض النساخ عن الآخر ربما بسبب جمال الخط والإخراج، وربما لأنهم يثقون فى صحة ما يكتبون وخلو نسخهم من أخطاء النسخ وربما لانهم اعتادوا على قراءة خطوطهم، وربما لغير ذلك من الأسباب التى لم تصلنا.

على الجانب الآخر كان هناك ناسخون ينسخون الكتب لأنفسهم لتكوين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكتباتهم الشخصية أو ينسخون كتبهم هم خشية التحريف والتصحيف فيها كما أسلفت وكانوا يشترون الورق والحبر والأقلام من مالهم وربما كان ذلك أكثر توفيرا لهم وإن كان مجهداً لهم مستهلكا لوقتهم فقد قال ابن الجوزى يصف ما فعله فى هذا الصدد قال «كتبت بإصبعى هاتين ألفى مجلدة». وقال محمد بن عمر سمعت ابن شاهين يقول حسبت ما اشتريت به الحبر إلى ذلك الوقت لمدة شهر فكان سبعمائة درهم.

أجرة النسخ والوقت المستغرق

أما فيما يتعلق بأجرة النسخ والوقت المستغرق فى هذه العملية فلم يكن لهما قاعدة محددة وهذا أمر طبيعى لأنهما يتفاوتان طبقا لعدد من المتغيرات من بينها:

١ - مكانة الناسخ وشهرته وجودة الخط.

٢ - طبيعة الوراق وحجم العمل عنده وعدد الناسخين الذين يعملون فى دار وراقته.

٣ - طبيعة الكتاب الذى ينسخه.

٤ - مكانة الشخص الذى ينسخ له الكتاب.

٥ - الزمن الذى عاش فيه الناسخ وأسعار الكتب فى ذلك الزمن.

٦ - الوقت المستغرق وحجم الجهد المبذول فى نسخ الكتاب.

٧ - أسلوب تحديد أجرة النسخ؛ ومدى حاجة الناسخ إلى المال.

ومن الطبيعى فى كل زمان أن يتقاضى الناسخ الخطاط - كما رأينا فى حالة ابن مقلة وابن البواب - أجرة عالية على ما ينسخون أعلى بكثير مما يتقاضاه الناسخ العادى. وتعتمد هذه الأجرة على درجة الشهرة وجودة الخط. كما أن مكانة الوراق (الناشر) وحجم ما لديه من عمل وحاجته إلى سرعة الإنجاز، أو عدم السرعة وتوافر النساخ الذين يحتاجهم العمل وعدم توافرهم يجعل الأجور تتذبذب إرتفاعا وانخفاضا حسب مقتضيات الأمور. كما كانت طبيعة الكتاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى ينسخه أيضا تتدخل فى تقدير قيمة أجرة النسخ فالمصاحف كان يدفع فيها مبالغ كبيرة وكذلك كتب الحديث النبوى على عكس الكتب العلمانية. إن الكتب التى عليها إقبال شديد مثل كتب الأدب والتواريخ كانت هى الأخرى من الكتب التى تدفع فيها أجور عالية للنساخ. وعندما يكون طالب النسخ خليفة أو أميراً أو وجيها فإنه يقينا كان يدفع مكافأة عالية ليس كأجرة على النسخ وانما كعطية ينفحها للناسخ، على عكس عامة الناس عندما يؤجرون الناسخ عن نسخ كتاب فإنهم قد يبخسون الناسخ ويساومونه. فى بعض الأزمنة يرتفع شأن الكتب ويقبل عليها الناس أيما إقبال ومن ثم يرتفع شأن الناسخين وترتفع أجورهم وفى أحيان أخرى قد ينفق سوق الفكر والكتب وبالتالى ينحط شأن الناسخين وتنخفض أجورهم. ولعله من نافلة القول التأكيد على أن حجم الكتاب المنتسخ وعدد أوراقه والجهد المبذول فى نسخه والدقة فى هذا النسخ كلها عوامل تتدخل فى تحديد أجرة الناسخ. وكما سنرى فيما بعد اختلف أسلوب تقدير الأجرة ليس فقط من وراق إلى وراق ومن زمن إلى زمن بل أيضا لدى الوراق الواحد فى الزمن الواحد فقد كانت الأجرة تحدد أحيانا على أساس «اليومية» بصرف النظر عن كمية المنتج من الكتب وأحيانا تحسب على أساس عدد الأوراق أو الملازم التى تنسخ بصرف النظر عن الوقت المستغرق فيها. وفى بعض الأحيان كانت الأجرة يتم تقديرها على أساس جزافى بالكتاب كله وحاجة الناسخ إلى المال الذى يكسبه فيه.

وفى حدود الحالات التى توصلنا إليها سوف نستعرض أجرة النسخ والوقت المستغرق فيها والملابسات التى تؤدى إليها.

وبداية لابد من التفريق بين ناسخ مهنته وأكل عيشه من عملية النسخ ومن ثم فإن يعمل بها كل أو جل حياته، وناسخ قعدت به ظروفه واضطرته حاله أن يعمل بالنسخ لفترة وبعد أن تحسنت ظروفه وزالت غمته ترك هذه العملية التى دخلها مضطراً؛ وهذه الفترة التى يعمل فيها بالنسخ قد تكون مجرد كتاب واحد أو بضعة أشهر أو سنة أو عدة سنوات حسب مقتضيات الأحوال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قال ابن رجب الحنبلى فى الآداب الشرعية «لقد وصلنا إلى زمان تقطعت فيه الأسباب، حتى لو احتاج العالم فى هذا الزمان المظلم أن يجتهد فى كسب إن قدر عليه وإن أمكنه **نسخ بالأجرة** ويدبر ما يحصل له ويدخر الشئ لحاجة تعرض لئلا يحتاج إلى نذل». كما يقول آدم متز فى كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع «إذا لم يكن العالم صاحب منصب ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب».

وقد مر بنا خبر فقيه اليمن أبى بكر بن على الحداد المتوفى سنة ٨٠٠هـ والذى كان له عدد كبير من الأولاد واضطر لإعالتهم أن يعمل بالنسخ ولم يقبل الاحسان حتى من السلطان الذى كان يرفده بالعطايا فيرفضها.

كذلك مر بنا خبر الحسن بن عبد الله المرزبانى المتوفى سنة ٣٦٧هـ وكان لا يأكل إلا من عمل يده فى النسخ وكان ينسخ قبل أن يجلس للقضاء والاشتغال، **كل كراس بعشرة دراهم يتقوت بها**. والكراس فى ذلك الوقت ملزمة من عشر ورقات ومن ثم تكون الورقة لهذا الشخص وأؤكد لهذا الشخص بدرهم.

وفى أحيان أخرى كان الناسخ ينسخ **كل خمس أوراق بدرهم** وفى أحيان ثالثة كان الناسخ العادى ينسخ الكتب العادية **كل عشر ورقات بدرهم**. على نحو ما ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد. وهو نفسه الذى قال بأن العلامة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨هـ كان يتقاضى **درهما واحدا على نسخ الورقة** على نفس مستوى الحسن بن عبد الله المرزبانى المعاصر له. حيث يقول «فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس فى كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشر دراهم تكون قدر مؤنته ثم يخرج إلى مجلسه».

وقد مر بنا خبر العلامة محمد بن خلف المرزبانى المتوفى سنة ٣٠٩هـ الذى كان يتقاضى وزملاؤه من النساخين لدى الحارث بن أبى ساسة الوراق **درهمين** عن اليوم الواحد بصرف النظر عن كمية ما ينسخون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات أن حنين بن إسحاق المترجم المشهور الذى مر بنا ذكره فى فصل سابق كان يعطى وراقه محمد بن الحسن الأحول عشرين درهما على كل مائة ورقة وهذا يعنى أن كل خمس ورقات بدرهم.

وكما أشرت من قبل كان نسخ الكتب للسلاطين والملوك والأمراء والأعيان لا يدفع عنه أجر وإنما يدفع عنه مكافأة شاملة بآلاف الدنانير والمثال على ذلك يأتينا من الصفدى الذى ذكر بأن الفقيه محمد بن شريف بن الوحيد نسخ ختمة للسلطان بيبرس الجاشنكيرى سلطان مصر، فى سبعة أجزاء، كتبها بماء الذهب فأعطاه السلطان ألفا وستمائة دينار مقابل ماء الذهب وألفا وأربعمائة دينار مقابل النسخ.

ولابد فى هذا المقام من أن نفرق بين النسخ كعمل يؤجر عليه الناسخ على النحو الذى مر بنا والنسخ للبيع، حيث كان بعض النساخين يقوم بنسخ كتاب بنفسه ثم يتولى بيعه بنفسه فهو هنا قام بدور الناسخ ودور البائع ومن ثم لا يمكن أن نعتبر ثمن بيع الكتاب بمثابة أجرة على النسخ فالثمن هنا هو ثمن المنتج النهائى ككل بما فيه قيمة المواد وثمن الفكر والربح ومجهود النسخ... وهو أمر سوف نعالجه فى حينه عند الحديث عن بيع وتداول الكتب عند المسلمين والأمثلة عليها كثيرة.

إذن فالأسعار التى سادت فى عملية نسخ الكتب كما صورتها الأمثلة السابقة تسير على النحو الآتى:

الكراس (عشرة ورقات) بعشر دراهم أى أن **الورقة بدرهم**.

كل خمس ورقات بدرهم أى أن **الورقة بخمس درهم**.

كل عشر ورقات بدرهم أى أن **الورقة بعشر درهم**.

كل يوم بصرف النظر عن كمية ما ينسخ **بدرهمين**.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما عن الوقت المستهلك فى النسخ فكان هو الآخر يتفاوت حسب درجة التأنى والدقة فى النسخ، كما كان يتفاوت أيضا طبقا لخبرة الناسخ وسيطرته وسرعته فى النسخ مع الدقة ويتوقف كذلك على الظروف الصحية وظروف الإملاء نفسها. وقد وضعنا أيدينا على بعض الحالات التى تصور الوقت المستهلك إلى حد ما. ويذكر الصفدى أن العلامة أحمد بن عبد الدائم الفندقى المتوفى سنة ٦٦٨هـ كان يكتب إذا تفرغ للنسخ تسع كراريس أو أكثر فى الليلة واليوم (أى ما بين ٩٠ - ١٠٠ ورقة) ويكتب الكراسين والثلاث مع اشتغاله فى يوم وليلة (أى فى حالة عدم التفرغ) ما بين ٢٠ - ٣٠ ورقة، حتى قيل إنه كان يكتب كتاب القدورى فى الفقه الحنفى فى ليلة واحدة ويعلق الصفدى على ذلك بأنه مستحيل. كما قيل بأنه كان ينظر فى الصفحة نظرة واحدة وينقلها ويستمر الصفدى فى التعليق على هذه الطريقة فى النسخ بقوله «ولذلك يوجد له الغلط فيما يكتبه كثيرا ولازم النساخة خمسين سنة وخطه لانقط فيه ولا ضبط».

ويذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن المؤرخ محمود بن أحمد العينى المشهور ببدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ يقال أنه كتب كتاب القدورى فى ليلة واحدة وكذلك كتب كتاب الحاوى فى ليلة أيضاً.

ويجب أن نتوقف طويلاً ومليا أمام ما ذكره الصفدى عن القاضى شرف الدين القناوى المتوفى سنة ٦٩٢هـ من أنه «كتب بَمدَّة واحدة مائة وعشرين سطراً وقيل إلى ثلثمائة سطر أو ما يقرب منها».

والحقيقة أن بعض الناسخين كان لديه صبر وجلد وقوة تحمل ودأب على عملية النسخ وهذا موجود فى كل الحرف والمهن ومن هنا كان إنتاجهم غزيراً وسليماً كذلك، ومن هؤلاء كان يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤هـ وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست أنه كان نصرانيا ومع ذلك كان ينسخ كتب تفسير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحديث وكتب علم الكلام (التوحيد). وقد لامه البعض على كثرة النسخ والصبر عليه والقعود له فترات طويلة فقال له «من أى شئ تتعجب؟ أمن صبرى وقعودى. . . لقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يحصى، وأنا أكتب فى اليوم مائة ورقة وأقل» كأن ما يكتبه قليل!!

ويؤكد ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة أن ابن الفوطى، مع حسن خطه كان يكتب أربع كراريس فى اليوم الواحد وينقل عن الصفدى أن هناك من أخبره بأن إبن الفوطى كان ينام ويضع ظهره على الأرض ويكتب ويديه إلى وجهة السقف.

وقد عرف عن محمد بن إبراهيم الطاهرى وهو من الناسخين المحترفين أنه كان يؤثر الإنفراد والوحدة مع الجلد على النسخ والسرعة مع الإتقان بحيث كان يكتب فى اليوم الواحد خمس كراريس وأكثر وربما تعب فيضطجع على جنبه ويكتب. وقد كتب لنفسه ولغيره كثيرا من الكتب الكبيرة والصغيرة وخاصة كتب التاريخ والتفسير وقد وجد فى نهاية إحدى نسخ كتاب النهر لأبى حيان التوحيدى أنها النسخة الثانية والعشرين بعد المائة مما كتبه بخطه. ويستطرد السخاوى فى القول عنه فى الضوء اللامع: ولسرعة كتابته وملازمته لها كان موسعاً عليه أى يكسب من وراء ذلك المال الوفير.

ومن بين الناسخين المكثرين أيضا نجد العلامة أحمد بن عبد الدائم المقدسى المتوفى سنة ٦٦٨هـ الذى كان سريعا فى الكتابة، كتب مالا يوصف من الكتب الكبار حتى أنه كان يكتب فى اليوم إذا تفرغ تسع كراريس وأكثر ويكتب مع إشتغاله بمصالح الناس الكراسين والثلاثة وكتب كتاب الخرقى فى الفقه الحنبلى فى ليلة واحدة.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخلاقيات النسخ وقواعده عند المسلمين

كما فى كل مهنة أو حرفة كان هناك الوراقون الأخيار الذين دعموا مهنة الوراقة وحافظوا على تقاليدها الشريفة وحققوا رسالتها السامية وهم الكثرة الغالبة. وكان هناك على الجانب الآخر الوراقون الأشرار الذين إنحرفوا عن الطريق السوى والتقاليد المرعية وأساؤوا إلى المهنة بقصد تحقيق مكاسب مادية وربما لأسباب نفسية أو عقلية معتلة. وكانت هناك طائفة ثالثة من الوراقين الظرفاء لاهم بالأخيار ولا هم بالأشرار ولكنهم كانوا ظرفاء يعمدون إلى بعض «المقالب» الطريفة. وقد تصدى بعض المؤلفين ممن لهم خبرة طويلة بمجال الوراقة بمعناها الشامل وبمعناها الضيق بوضع دستور أو قواعد وإرساء تقاليد يجب أن يتحلى بها الوراق. وكما هو حال الدنيا هناك من احتفل بمهنة الوراقة وهناك من تبرم بها ربما بسبب تجربة أليمة ألمت به من ورائها أو ربما لعلاقته السيئة بأحد الوراقين.

ولعل أسوأ تجاوز فى مهنة الوراقة وأبلغ إساءة تحدث فيها هى التصرف العمدى فى نص المؤلف بشكل من الأشكال الآتية:

- دس معلومات إلى نص المؤلف بما لم يقل به.

- اختصار المعلومات وتلخيصها دون التنبيه إلى ذلك وكما لو كان المؤلف تركه على هذا النحو.

- التقديم والتأخير على غير النحو الذى عرض به المؤلف مادته العلمية.

ومن التجاوزات الصغيرة غير المتعمدة السهو والخطأ النسخى والتصحيف ووضع كلمة مكان كلمة. كذلك فإن رداءة الخط نتيجة السرعة تسئ إلى مهنة الوراقة.

وقد أورد الدكتور على الخطيب فى كتابه «تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة» مثالاً على دس معلومات إلى نص المؤلف بما لم يقل به وذلك فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إحدى نسخ (الكامل فى التاريخ لابن الأثير) والذى أقحم فيه حواراً اختلق على لسان عمرو بن عباس ونحن نذكره هنا على سبيل المثال أيضاً. ففى هذا النص المدسوس أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس: «يا ابن عباس، أتدرى ما منع قومكم منكم بعد محمد ﷺ، فكرهت أن أجيبه. فقلت لم أكن أدرى فإن أمير المؤمنين يدرينى.

فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا (تتباهوا وتتفاخروا) على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت فقلت يا أمير المؤمنين إن تأذن لى فى الكلام وتمط عنى الغضب تكلمت. قال تكلم. قال: أما قولك يا أمير المؤمنين، إختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشاً إختارت لأنفسها حيث اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأما قولك: أنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله عز وجل وصف قوما بالكراهة فقال: ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾.

فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس فقد كانت تبلغنى عنك أشياء كنت أكره أن أترك عليها لتزيل منزلتك منى، فقلت ما هى يا أمير المؤمنين: فإن كانت حقاً فما ينبغى أن تزيل منزلتى منك، وإن كانت باطلاً فمثلى أماط الباطل عن نفسه. فقال عمر: بلغنى أنك تقول: انما صرفوها عنك حسداً وبغياً وظلماً فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين ظلماً فقد تبين للجاهل والحليم. وأما قولك حسداً، فإن آدم حسد ونحن ولده المحسودون فقال عمر هيهات هيهات: أبت والله قلوبكم يا بنى هاشم إلا حسداً ما يحول، وضغنا وغشاً لايزول: فقلت مهلاً يا أمير المؤمنين لا تصف قوماً أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا بالحسد والغش، فإن قلب رسول الله - ﷺ - من قلوب بنى هاشم فقال عمر: إليك عنى يا ابن عباس؛ فقلت أفعل فلما ذهبت أقوم استحيا منى فقال يا ابن عباس: مكانك فوالله إنى لراع لحقك محب لما سرك. فقلت يا أمير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤمنين إن لى عليك حقاً وعلى كل مسلم فمن حفظه أصاب، ومن أضاعه فحظه أخطأ ثم قام فمضى.

والقصة برمتها ليست من الأصل الذى وضعه ابن الأثير (أبو الحسن على ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى بن الأثير) فى كتابه الكامل فى التاريخ، وإنما هى مدسوسة، دسها ناسخ تلك النسخة ووضعها زيادة فى النص. وكما سبق أن رأينا فإن بعض المؤلفين يرمى فاعلها باللعنة كذلك يفعل بعض المحققين فى أيامنا. ذلك أن ابن عباس رضى الله عنه كان بعيداً عن تيارات السياسة قريبا من عمر محباً له وهو واحد من القلة التى لازمت عمر حتى مات ثم ما كان من هو عمر فى دينه وورعه وعدله ليصدر عنه مثل هذا الكلام. وواضح أن واضعها ممن يكرهون عمر ويريد أن ينال منه فى دينه.

وكما أن الإضافة مذمومة تسئ للوراقة فإن الإختصار أيضا مذموم يسئ إليها والأمثلة عليه كثيرة ومن الباحثين من يدخلها فى باب خيانة الأمانة ولعنها كما لعن الدساس. وقد ذكر أن أبا العباس المصرى وراق أبى عبد الله محمد بن عبدالله الصفار خانه واختزل عيون كتبه وأكثر من خمسمائة جزء من أصوله فكان أبو عبد الله يجامله فى إسترجاعها منه فلم ينجع فيه شئ فيما قال السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى.

وبعض الوراقين كان يكتب وهو مرهق فينسى أشياء فى الأصل لا يكتبها فى النسخة وقد تكون الأشياء المنسية كلمات أو سطوراً وربما فقرات وربما يخل بترتيب الفقرات ومن ذلك ما قيل عن الفقيه محمد بن مملاذ المتوفى سنة ٦٤٣هـ الذى قال عنه الصفدى إنه كان يكتب فى يوم واحد ست عشرة كراسة من قطع الثمن وكان ينشئ الرسالة معكوسة يبتدئ بالحمد ويختم بالبسملة لفرط السرعة. وبسبب أخطاء السرعة والعجلة كان بعض المؤلفين وربما الوراقين الناشرين يحرصون على الإشراف على عملية النسخ بأنفسهم وأن يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناسخون تحت مراقبتهم طول الوقت. وقد قيل فى هذا الصدد أن العلامة يعقوب ابن شيبة المتوفى سنة ٢٦٢هـ كان يخصص فى بيته أربعين لحافاً لمن يبيت عنده من النساخ، كما كان العلامة ابن المرزبان له «خمسون لحافاً وكيساً لمن يبيت عنده من النساخ للإشراف عليهم فيما يكتبون» فيما يذكر ياقوت الرومى فى معجم الأدباء.

وقد قيل عن الناسخ الفقيه عبد الله بن أسعد الدهان المتوفى سنة ٥٨١هـ أنه «كان ضيق العطن ما كتب تصنيفا إلا اختصره برأيه ولا يذكر فيه أنه اختصره».

وكان أبو عبيدة يتجنب بقدر الإمكان أن يعطى كتبه للناسخين حتى لا يعبثوا بها إلا أنه إضطر ذات مرة إلى استئجار الناسخ على بن المغيرة بن الأثرم وحبسه فى دار من دوره وأغلق عليه الباب وعهد إليه بنسخ بعض كتبه، إلا أنه مر به زميله الناسخ أبو مسحل وبعض الناسخين فكان يدفع إليهم بالكتاب تلو الكتاب من تحت الباب ويفرق عليهم الورق لينسخوا عليه الكتب وكان يلح عليهم فى الإسراع بنسخه ويتفق معهم على الموعد الذى يريده فكانوا يفعلون ذلك دون علم أبى عبيدة، على نحو ما أسلفت.

وكان بعض الناسخين يعتذرون عن الأخطاء التى توجد فى النسخ التى ينسخونها بحجة أن ما نقلوه كان طبق الأصل وأن تلك الأخطاء موجودة فى الأصل وهم لا يريدون التصرف فى الأصل أو تصحيحه فليس هذا شأنهم. والنص الآتى حول العلامة أحمد بن محمد البشتى وكتابه التكملة يكشف عن هذا الاتجاه فهو يقول: وأخبارنا عنهم أخبار عن صحف ولا يزرى ذلك على من عرف الغث من السمين وميز بين الصحيح والسقيم...» وقد عاب عليه بعض الكتاب الاعتماد المطلق على النقل دون تصحيح وأنه فى حالة الشك لابد من الرجوع إلى شيخ ثقة لتأكيد المعلومات المشكوك فيها وهناك عبارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مأثورة فى هذا الصدد تقول «من كان شيخه كتابه كان خطأه أكثر من صوابه». وقالوا عن البشتى انه قد اعترف بأنه لا سماع له فى شئ من هذه الكتب وأنه نقل ما نقل إلى كتابه من صحفهم واعتل بأنه لا يزرى ذلك بمن عرف الغث من السمين وليس كما قال لأنه إعترف بأنه صحفى والصحفى إذا كان رأس ماله صحفاً قرأها فإنه يصحف... وأن أكثر ما قرأنا من الصحف التى لم تضبط بالنقط الصحيح ولم يتول تصحيحها أهل المعرفة لسقيمة لايعتمد عليها إلا جاهل».

وكانت رداءة الخطوط من عيوب النسخ أيضاً ومن الإساءات للوراقة وقد قال ابن خلدون عن الخطوط المستعملة فى نسخ الكتب على أيامه «صارت الخطوط مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة. وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا المشقة والعناء لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ووقع فيه ما وقع فى سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدولة».

وقد قال أحد النساخ يعتذر عن سوء الحظ ورداءة ما يكتب:

أعذر أخاك عن رداءة خطه ** واغفر رداءته لجودة ضبطه

والخط ليس من تعظيمه ونظامه ** إلا إقامة سمطه

فإذا أبان عن المعانى خطه ** كانت ملاحته زيادة شرطه

* * *

ومن الإساءات الظريفة إلى مهنة الوراقة تزوير الخطوط وتقليدها ونسبة بعض النسخ إلى كبار الخطاطين وما هى من نسخهم أبداً بلها من وضع شخص آخر قد يكون مغموراً كما يحدث الآن بالنسبة للوحات كبار الفنانين. والهدف من وراء التزوير ربما كان تحقيق مكسب كبير فى الكتاب وربما كان لاستكمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجموعة مجلدات ناقصة بنفس الخط وربما رغبة فى إظهار مهارة التقليد فى ذاتها. وسوف نذكر هنا بعض أمثلة التقليد البرئ والتزوير غير البرئ فى عمليات النسخ. ونحن لا نعرف فى الواقع من بدأ تلك الحوادث التى لم يسلم منها خطاط شهير أو ناسخ مغمور أو وراق غنى أو آخر فقير.

مما ورد فى فهرست ابن النديم، كما ورد فى معجم أدباء ياقوت الرومى ما ذكره على بن هلال ابن البواب الذى مر بنا من قبل وهو من هو من شهرة فى الخط حيث قال: «كنت أتصرف فى خزانة الكتب لبهاء الدولة عضد الدولة بشيراز على إختيارى وأراعيها له وأمرها مردود إلى. فرأيت يوما فى جملة أجزاء منبوذة مجلدة بأسود ففتحته وإذا هو جزء من ثلاثين جزءا من القرآن الكريم بخط أبى على بن مقلة فأعجبنى وأفردته فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط فى جملة الكتب إلى أن اجتمع لدى تسعة وعشرون جزءاً وبقى جزء واحد إستغرقت تفتيش الخزانة فى مدة طويلة فلم أظفر به فعلمت أن المصحف ناقص فأفردته ودخلت إلى بهاء الدولة وقلت يامولانا ها هنا رجل يسأل حاجة قريبة لا كلفة وهى مخاطبة أبى على الموفق الوزير على معونتة فى منازعة بينه وبين خصم له ومعه هدية ظريفة تصلح لمولانا. قال أى شئ هى قلت مصحف بخط أبى على بن مقلة فقال هاته، وأنا اتقدم بما يريد فأحضرت الأجزاء فأخذ منها واحداً وقال أذكر أنه كان فى الخزانة ما يشبه هذا وقد ذهب عنى. قلت هذا مصحفك وقصصت عليه القصة فى طلبتى له جمعه. وقلت هكذا يطرح مصحف بخط أبى على بن مقلة إلا أنه ينقص جزءا فقال فتممه لى. قلت السمع والطاعة ولكن على شريطة أنك إذا أبصرت الجزء الناقص منها لا تعرفه تعطينى خلعة ومائة دينار، قال أفعل.

«وأخذت المصحف بين يدى وانصرفت إلى دارى ودخلت الخزانة أقلب الكاغد العتيق وما شابه كاغد المصحف وكان فيها من أنواع الكاغد السمرقندى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والصينى والعتيق وكل ظريف وعجيب، فأخذت من الكاغد ما واقفنى وكتبت الجزء ودهنته وعتقت داخله وقلعت جلداً من الأجزاء فجلدته به وجلدت الذى قلعت منه الجلد وعتقته ونسى بهاء الدولة المصحف ومضى على ذلك نحو السنة فلما كان ذات يوم جرى ذكر أبى على بن مقلة فقال ما كتبت ذلك، قلت بلى قال فأعطيته فأحضرت المصحف كاملاً فلم يزل يقلبه جزءا جزءا وهو لا يقف على الجزء الذى بخطى، ثم قال لى أيما الجزء الذى بخطك. قلت له لم لا تعرفه فيفتر فى عينك؛ هذا المصحف كامل بخط أبى على بن مقلة ونكتم سرنا قال فافعل وتركته فى ربعة عند رأسه ولم يعد إلى الخزانة. وأقمت مطالباً بالخلعة والدنانير وهو يمطلنى ويعدنى فلما كان يوماً قلت يامولانا. فى الخزانة بياض صينى وعتيق مقطوع وصحيح فتعطينى المقطوع منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير قال خذه فأخذت جميع ما كان فيها من ذلك النوع فكتبت فيه سنين».

ومن هذا النص نرى أن تزوير ابن البواب كان متقنا كالأصل ليس فى الخط فقط وإنما أيضا من حيث الورق المناسب والجلد المناسب.

ومن طريف ما ذكر بخصوص التقليد أن الناسخ جمال الدين الشيرازى عرف أن ثمة ربعة بخط ابن البواب كتبها بخط عجيب غير تقليدى وكانت موجودة فى مكتبة بغداد فذهب إلى المكتبة ومعه ورق شفاف وأخذ تلك الربعة جزءا جزءا وكان يضع الورق الشفاف على خط ابن البواب ويشف السطور «فكتب عليها لا يخلُّ بذرة منها» فيما يقول الصفدى فى الوافى بالوفيات.

وكان الفقيه على بن يحيى بن فضل الله العدوى المتوفى سنة ٧٦٩هـ يحسن فن تزوير النسخ وتقليده كالأصل تماما فى كل شئ فقال عنه ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة أنه «كان يعتق الورق والحبر وينقل القطع بخط العجمى وابن البواب وغيرهما ممن تقدم وتأخر فلا يشك من ينظر ذلك من كتاب المنسوب أنه خط من نقله إلا الفرد النادر».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع أن وراقا يدعى محمد بن محمد الجزيرى المتوفى سنة ٨٦٤هـ كان قد تعاطى التجارة بالكتب حتى صارت له براعة فى معرفتها وخبرة زائدة بخطوط العلماء والمصنفين بحيث أنه يشترى الكتاب بثمن يسير ممن لا يعمله ثم يكتب عليه بخطه أنه خط فلان فيروج وقد يكون ذلك غلط لمشابهته لذلك الخط، وربما يتعمد ذلك **التزوير** لأنه لم يكن بحجة، حتى أنه ربما يقع له الكتاب المخروم فيوالى بين أوراقه أو كراريسه بكلام يزيده من عنده أو بتكرير تلك الكلمة بحيث يتوهم الواقف عليه التأمل تاماً وقد يكون الخرم من آخر الكتاب فيلحق ما يوهم به تمامه».

ويبدو أن سلوكيات الوراقين السلبية هذه قد انعكست على بعض الناس وضايقهم أيما مضايقة فنفروا منها.

ولم يكن لبعض الوراقين الشرفاء حظ من وراء ممارستهم لهذه المهنة فلم يصيبوا مالاً منها فصبوا جام حنقهم وغضبهم عليها فقال أحدهم:

إن الوراقـــة حرفـة مذمومـــة ** مخرومـة يمشى بهـا زمـن

إن عشت عشت وليس لى أكل ** أو مت مت وليس لى كفن

ولكن على الجانب الآخر كان هناك من الوراقين من حقق ثروة من وراء هذه المهنة وكان سعيدا بها؛ فهذا هو الحسن بن شهاب العكبرى الناسخ النشيط يقول عن نفسه كسبت من الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية... كنت اشترى كاغداً بخمسة دراهم فاكتب فيه ديوان المتنبى فى ثلاث ليال وأبيعه بمائتى درهم وأقله بمائة وخمسين درهما وكذلك كتب الأدب المطولة».

كان الوراقون المنحرفون فى سياق الوراقة الإسلامية هم الإستثناء. أما القاعدة العريضة فقد كانت سليمة محبة لمهنة الوراقة سعيدة بعملها مراعية لأخلاقيات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمل وقواعده ولذلك إزدهرت هذه الحرفة أيما ازدهار وقدمت للبشرية رصيداً كبيراً من المخطوطات.

لقد جاءت القواعد سلوكا عاماً فى البداية وتبعثرت فى العديد من المصادر إلى أن جاء عالمان جليلان وجمعا ما أمكنهما جمعه فى كتابين لهما. هذان العالمان هما أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله **بن جماعة** (عاش القرن السابع الهجرى) الذى ألف كتابا جامعاً فى الموضوع هو: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم» والعالم الثانى هو عبد الباسط بن موسى بن محمد **العلموى** (عاش القرن العاشر الهجرى) المتوفى فى دمشق سنة ٩٨١هـ. وله أيضا كتاب جامع فى الموضوع اعتمد فيه على كتاب ابن جماعة بعنوان: المعيد فى أدب المفيد والمستفيد. ولقد أشاد بهما أيما إشادة فرانتز روزنتال فى كتابه مناهج البحث عند علماء المسلمين فقال «إنه لا مجال للشك فى قيمة هذين المؤلفين لمن ينشد الدقة والأمانة». وقد وردت فى هذين العملين الكثير من قواعد النسخ وأخلاقياته. وقد كتب فى نفس هذا الموضوع مؤلفون آخرون ولكن ما كتبوه جاء عرضاً منهم **البدر الغزى** فى كتاب الدرة النقية والحسين ابن القاسم **المنصور اليمنى** وله «كتاب فى آداب العلماء والمتعلمين». وهناك كذلك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل **النحاس** وله كتاب «صناعة الكتّاب» وقد عاش النحاس فى القرن الثالث وغير هؤلاء كثيرون. ونحن هنا ننقل طرفا مما قال به هؤلاء فى آداب الوراقة وقواعدها ومدح الكتابة. وقد تناولت القواعد تفاصيل دقيقة مثل: نسخ الكتاب وتصحيحه واستعارته وترتيب وضعه مع غيره؛ كيفية النسخ، جودة الخط، وجوب المقابلة والمقارنة بين أكثر من نسخة، أدوات الكتابة.

* * *

وهناك إجماع على أن النسخ (كتابة الكتب) فضيلة والإشتغال بها عمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمود ولم نجد من بين المصادر مصدراً واحداً ذم النسخ أو قدح فيه من حيث المبدأ فالله سبحانه وتعالى شرف الكتابة والقلم فى كتابه العزيز كما أشار الرسول الكريم ﷺ فى أحيان كثيرة إلى هذا الفضل الذى للكتابة. وعندما تمتدح الكتابة وتشرَّف فإن هذا المديح والتشريف ينصرفان بالتبعية إلى الكتَّاب الذين يبدعون تلك الكتابة. حين يتمسكون بتقاليدها ويطبقون آدابها وأخلاقياتها. ولم أجد بين المصادر الكثيرة التى أفاضت فى الحديث عن الكتابة وفضلها أعمق ولا أبلغ من الرسالة التى كتبها أبو جعفر الفضل بن أحمد بن حداد إلى أبى معشر المنجم (أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى) المتوفى سنة ٢٧٢هـ. وأنا أنقل هنا هذه الرسالة بنصها كما وردت فى صبح الأعشى للقلقشندى وكما وردت أيضا فى صناعة الكتاب لأبى جعفر النحاس لأن هذه الرسالة فى رأيى هى درس فى علم الاتصال المكتوب قال أبو جعفر:

«الكتابة - أعزَّك الله - نسب وقرابة، ورَحِمٌ ماسَّة ووسيلة. وهى أس الملك، وعماد المملكة، وأغصان متفرعة من شجرة واحدة. وهى قُطْبُ الأدب، وفَلَك الحكمة، ولسان ناطق، وهى نور العلم، وتذكية العقول، وميدان الفضل والعدل. وهى زينة وحلية، ولَبُوس وجمال وهيئة، وروح جارٍ فى/ أحكام متفرقة»، وبها وُسِمَت التوراة والإنجيل والقرآن والكتب المنزلة. ولو أنَّ فضلاً ونبلاً تصوَّرا جسماً لتصورت الكتابة، ولولا ما نَزَل به الكتاب فى الفرض والمواريث لوُرِّثت الكتابة. ولو أن الصناعة مربوبة لكانت الكتابة سيداً لكل صناعة. وبالكتابة تُوضَع الموازين، وتُنْشَر الصحف يوم القيامة. والكتابة أفضل شئ عند الله عزَّ وجلَّ منزلةً ودرجة، ومن جهل حقها رُسِم برسم الغُوَاة والجهلة. وبها قامت السياسة والرياسة، وإليها ضَوَت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم ألقت الأعنة والأزِمَّة، وبهم اعتصموا فى النازلة والنكبة، وعليهم اتكلوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الأهل، والولد، والذخائر، والعُقَد، وولاة العهد، وتدبير الملك، وقِرَاع الأعداد، وتوفير الفيء، وحياطة الحُرَم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب بالميمنة والميسرة والقلب والكُمَنَاء والروادف والأجنحة. وعن الكتابة يحاسب عزَّ وجلَّ خلقه يوم القيامة بما أثبتت الملائكة والحَفَظة. وقد أجمعت العلماء أن أول ما خلق الله القلم (جاءت بذلك الآثار عن الصادق الناطق محمدﷺ). وأنه جلَّ وعزَّ قال له: اكتبْ. قال: يارب، وما أكتبُ؟ قال: اكتب علمى فى الخلق إلى أن تقوم الساعة. فكتب القلم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة. وقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾. وقال جلَّ وعزَّ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ن، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. وقال تقدَّس اسمه: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾. وذلك فى مواضع كثيرة من القرآن يطول شرحها وذكرها. وكان القلم أولَ من آمن، وأول من أسلم، وكَتَب. وأولُ من كتب بالعبرانية شيث بن آدم عليهما السلام، ثم كتب بعده إدريس. وخلف سبعين كتاباً من كتب الحكمة والنجوم، وقيل: إنه عُرِج به إلى السماء. وأما المنجمون فيزعمون أن البرجبيس وهو المشترى حدر إليه من الفلك يعلمه الحساب، ثم ترقى، وأنه نظر فرأى بوار ولده يكون باقتران الكواكب فى الحمل، وهو برج نارى، فيكون الهلاك بالنار أو السرطان، وهو برج مائى، وهو بيت حياة العلم، فيكون الهلاك بالماء، فعمد إلى الطين فصفَّاه، وجفَّفه، وأثبت فيه علم النجوم. وقال إن كان البوار بالنار وتخزف،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوجده من ينجو من العالم، ثم أثبته فى الصخر، فقال: إن كان البوار بالماء ثبت فيه العلم صيانة وإشفاقاً عليه، فشاء الله وقال جلَّ وعزَّ أن يكون بوار تلك الأمة بالطوفان، واقتران الكواكب فى السرطان، فأدرك من أدرك، وعلم من علم منه القليل من الكثير، فكان أول من كتبه بالسريانية يهوذا بن يعقوب، وكان أول من كتبه بالعبرانية ثلاثة نفر من طَيِّء يقال لهم: مرامر بن مروة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة. وكان لوط عليه السلام يكتب لإبراهيم عليه السلام الصحف المنزلة عليه. وكان يوسف عليه السلام يكتب للعزيز صاحب الرؤيا. ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى حفيظ بالكتاب، عليم بالحساب. وكان سليمان بن داود عليهما السلام كاتب أبيه يكتب عنه المزامير وغيرها. وكان آصف بن عيصا كاتب سليمان بن داود، وهو الذى كان عنده عِلْمٌ من الكتاب، فأتى سليمان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه. وكان ذو القرنين كاتب بطليموس. وكان هارون ويوشع بن نون يكتبان بين يدى موسى عليه السلام الألواح والتوراة. وكان يحيى بن زكريا كاتب عيسى عليه السلام كتب له الحكمة والإنجيل. وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يكتب للنبى ﷺ. وإذا أمعنا النظر وألطفنا القياس والفكر وجدنا الفلكين الدائرين الجامعين الضابطين لأمور الدنيا والأخرة. الفلك الأعلى الدوار المحيط بالأرض والسماء الهواء والماء وكل ما خلق عزَّ وجلَّ بين ذلك وفوقه وتحته من الجنة والنار. فالكتابة التى تضم كل شىء ولا يضمها شىء. وأنا يا أخى - جعلنى الله فداك - عاتب مُنْكِرٌ لإعراضك وصدودك، وازورارك وتجانفك عن سرورى بك إذا رأيتك، وإقبالى عليك إذ لقيتك، وانبساطى وانقباضك إذا خاطبتك، وكيف يا أخى - أسعدك الله -؟ ولمن وعلام؟ وفيم؟ وبم تفعل ذلك؟ وقد ضمَّنا التوحيدُ واليقين والدين، وجرينا فى ميدان هذه الصناعة الرئيسة العالية النفيسة الشامخة على كل صناعة، نرضع دِرَّتها، ونجتنى ثمرتها، ونتفيأ فى ظلال أغصانها، ونمرع فى رغد عيشها، ونضرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رياضها، وهى لنا كالأم اللطيفة بنا، الشفيقة علينا، ونحن لها كالأولاد البررة بها فيما يجب من إجلالها وإعظامها، وقضاء حقها بالسمع والطاعة لها، ولم نَرَ من حق تربيتها وتغذيتها إيَّانا أن نمتطىَ العقوق فنجعله ظهراً لنا وهى له منكرة، وأن نتساقى كأس الفرقة، وهى عنها ناهية. ثم هذه الناحية التى تكنفنا وتضمنا، ويؤلف فيما بيننا هذا الكريم المحامد أبو فلان أطال الله بقاءه، ووقاه وصانه، وتولاه وحرسه، وكفاه وصرف غِيرَ الليالى عنه، وأبعدها منه ومن محله وداره وقراره، ولا سلبنا إياه، ولا أحزننا بفقده، وأمتعنا بسبوغ النعمة عليه، وتكاملها لديه فى نفسه وولده وأعزته. وقد رَجَب أعزَّك الله وتولاك، وحاطك وأعانك أن نَقْفُوَ فى ذلك زثره، ونسلك مسلكه ورسمَه، وأن نكون أعواناً لصالح نيته، وطويل إرادته، فيما ألف بيننا، وجمع من شملنا، وأراد من اتفاق أهوائنا، ثم ما يجب أن يكون قد تأملته، ونظرت بعين فكرك وقلبك إليه من اتفاق أهل الصناعات فى السرَّاء والضرَّاء، والشدة والرخاء، وما هم عليه من التكاثر والتناصر فيما عَرَض لهم وعَرَاهم من هذه الدنيا الدنية الزائلة، المتقطعة الفانية، فنعلم أن أهل هذه الصناعة الكاملة الفاضلة الشاملة لكل ما وصفت وما لم أصف قصوراً عنه، وخيرة فيه، أولى وأحق وأحرى بأن يقنعوا من أنفسهم، ولا يرضوا لشرف صناعتهم بالتخاذل والتقاطع والتدابر والتنافر، وأن يكونوا يداً واحدة فيما نفع وضر، وساء وسر فى كل حال. ولما رأيتك قد نأيت بجانبك ومِلْتَ عنى بَشَقِّك، كان الأعز علىّ والأولى بى ردك إلىّ، واستجرارك نحوى، ولا يخرج مثلك عن يدى إلا بعد أن أعذر وأبلى فى قضاء حق نفسى، واستصلاح ما فسد علىّ بغاية جهدى ووسعى، فجعلت هذه الرقعة سفيرى إليك. وأودعتها من حسن عتابك، ولطف استمالتك، ما لعله سيثنى من عنانك، وَرُد من غرب جماحك، وأنا متوقع الجواب بما يكون منك، والله بالخيار لى ولك فيك. فرأيك - أعزك الله - بما أعمل عليه، فإنما سمحتُ بك على ضَنّ، وادخرتك على علم، موفقاً إن شاء الله».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول ابن جماعة والعلموى فى آداب النسخ وقواعده: ـ

* إذا نسخ الناسخ شيئا من العلوم الشرعية فينبغى أن يكون على طهارة، مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب والحبر والورق ويبتدئ كل كتاب بكتابه «بسم الله الرحمن الرحيم» وإن كان مصنفه تركها كتابة فليكتبها هو ثم ليكتب: قال الشيخ أو قال المصنف ثم يشرع فى كتابة ما صنفه المصنف وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء فليختم الكتابة بالحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ وليختم بقوله:

آخر الجزء الأول أو الثانى مثلا ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب فإن أكمله فليقل تم الكتاب الفلانى ففى ذلك فوائد كثيرة.

وكلما كتب اسم الله - تعالى - أتبعه بالتعظيم مثل تعالى، أو سبحانه أو عز وجل أو تقدس أو تبارك ويتلفظ بذلك.

وكلما كتب اسم النبى - ﷺ - كتب بعده الصلاة عليه والسلام ويصلى عليه هو بلسانه أيضا. وجرت عادة السلف والخلف بكتابة (ﷺ). ولعل ذلك لموافقة الأمر فى الكتاب العزيز فى قوله (صلوا عليه وسلموا تسليما) ولا يختصر الصلاة فى الكتابة، ولا يسأم من تكريرها كما يفعله بعض المحرومين من كتابة (صلعم) أو (صلم) أو (صم) أو طلسم) فإن ذلك مكروه كما قال العراقى ويقال أن أول من كتب (صلعم) قطعت يده. واعلم أن كتابة الصلاة بكاملها عظيم وهو أكبر الفوائد العاجلة.

وإذا مر بذكر أحد من الصحابة كتب: رضى الله عنه، أو رضوان الله عليه أو مر بذكر أحد من الأئمة كتب رحمه الله، أو رحمة الله عليه أو تغمده الله برحمته.

ولا يكتب الصلاة والسلام لغير الأنبياء والملائكة... تبعا لاختصاص ذلك عرفا وشرعا بالأنبياء والملائكة عليهم السلام، ومتى سقط من ذلك شئ فلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتقيد به بل يثبته مع النطق به. . . وإفراد الصلاة عن السلام مكروه وعكسه كذلك كما قال النووى.

* لا يهتم المشتغل [الناسخ] بالمبالغة فى حسن الخط وإنما يهتم بصحته وتصحيحه ويجتنب التعليق وهو خلط الحروف التى ينبغى تفرقتها والمشق وهو سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف قال عمر - رضى الله عنه - شر الكتابة المشق وشر القراءة الهدرمة [التصفح السريع بدون تدبر المعنى] وأجود الخط أبينه.

* ولا يكتب الكتابة الدقيقة لأنه ربما لم ينتفع به وقت حاجة الإنتفاع به من كبر وضعف بصر، ثم محله فيمن عجز عن ثمن ورق، أو حمله فى سفر فيكون معه خفيف المحمل فلا كراهة فى ذلك ولا منع للعذر والكتابة بالحبر أولى من المداد.

* وينبغى ألاَّ يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجرى ولا رخواً فيسرع إليه الحض. قال بعضهم: إذا أردت أن تجود خطكً فأطل جلفتك واسمتها وحرِّف قطتك وأيمنها. ولتكن السكين حادة جداً لبراية الأقلام وكشط الورق ولاتستعمل فى غير ذلك. وليكن ما يسقط عليه القلم صلبا وهم يحمدون القصب الفارسى جدا والأبنوس الصلب الصقيل.

* لا بأس بكتابة الأبواب بالحمرة فإنه أظهر فى البيان وفى فواصل الكلام وكذلك لا بأس به على أسماء أو مذاهب أو أقوال أو طرق أو أنواع أو لغات أو أعداد أو نحو ذلك ومتى فعل ذلك بيَّن اصطلاحه فى فاتحة الكتابة ليفهم الخائض فيه معانيها. وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم لقصد الاختصار».

* وقد كرهوا فى الكتابة فصل مضاف إسم الله تعالى منه: عبد الله، عبد الرحمن، رسول الله فلا يكتب عبد أو رسول فى نهاية السطر والله أو الرحمن فى بداية السطر التالى له لقبح صورة الكتابة.

* عليه [الناسخ] مقابلة كتابه [النسخة التى ينسخها] بأصل صحيح موثوق به

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمقابلة متعينة للكتاب الذى يرام النفع به. قال عدوة بن الزبير لابنه هشام رضى الله عنهما: كتبت؟ قال نعم. قال عرضت كتابك؟ [أى على أصل صحيح] قال: لا، قال: لم تكتب.

قال الإمام الشافعى، ويحيى بن كثير: من كتب ولم يعارض، أى يقابل كمن دخل الخلاء ولم يستنج.

وإذا صحح الكتاب بالمقابلة على أصل صحيح أو على شيخ فينبغى أن يعجم المعجم ويشكل المشكل ويضبط الملتبس ويتفقد مواضع التصحيف. أما ما يفهم بلا نقط ولا شكل فلا يعتنى به لعدم الفائدة... وقيل ينبغى الإعجام والشكل للمكتوب كله: الشكل وغيره لأجل المبتدئ فى ذلك الفن وصوبه القاضى عياض، لأن المبتدئ لا يميز ما يشكل مما لا يشكل، ولا صواب الإعراب من خطئه، ولأنه ربما يكون الشئ واضحاً عند قوم مشكلاً عند آخرين، بل يظن لبراعته المشكل واضحاً ثم قد يشكل عليه بعد.

وإذا احتاج إلى ضبط المشكل فى الكتاب وبيانه فى الحاشية قبالته فعل، لأن الجمع بينهما أبلغ فى الإبانة. وإذا كتب كلمة مشكلة من القلم لسواد كثير فيه ونحوه أوضحها فى الحاشية وكتب فوقها (بيان) أو (ن) وله أن يكتبها فى الحاشية بصورتها وله أن يكتبها مقطعة الأحرف بالضبط ليأمن اللبس والاشتباه وله أن يضبطها بالحروف كقوله: بالحاء المهملة والدال المهملة والتاء المثناة والثاء المثلثة ونحو ذلك.

* ينبغى أن يكتب على ما صححه وضبطه فى الكتاب - وهو فى محل شك عند مطالعته أو تطرق إحتمال شك - (صح) صغيرة. ويكتب فوق ما وقع فى التصنيف أو فى النسخ [أى فى الأصل الذى ينقل منه] وهو خطأ (كذا) صغيرة أى هكذا رأيته ويكتب فى الحاشية: (صوابه كذا) إن كان يتحققه أو (لعله كذا) إن غلب على ظنه أنه كذلك.

أو يكتب على ما أشكل عليه ولم يظهر له وجه [أى لم يتبين صحته]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ضبة) وهى صورة رأس (صاد) مهملة مختصرة من (صح) كذا (صـ) فإن صح بعد ذلك وتحققه فيصلها بحاء فتبقى (صح)؛ وإلا كتب الصواب فى الحاشية كما تقدم.

قيل: وأشاروا بكتابة الصاد أولا إلى أن الصحة لم تكمل وإلى تنبيه الناظر فيه [أى الناسخ] على أنه متثبت فى نقله غير غافل فلا يظن أنه غلط فيصلحه.

* * *

هذه بعض القواعد أو لنقل النصائح التى يقدمها نسّاخون ضالعون لمن يتصدى لعملية نسخ الكتب ولنرى بعضاً من تطبيقاتها على أرض الواقع. وسوف أركز فقط على شئ من أمثلة.

فقد رأينا من قبل أن ابن جماعة والعلموى يحبذان إستخدام اللون الأحمر لإبراز كلمات معينة مثل عناوين الفصول والأبواب وأسماء الأعلام على إتساعها والأرقام والأقوال المأثورة والأمثال، وقد بالغ بعض النساخ فى استخدام الألوان ولم يكتف بلون واحد إضافى إلى جانب اللون الأسود. فهذا هو الناسخ محمد ابن عبد الله بن غطوس المتوفى سنة ٤١٤هـ كان يضع لكل ضبط لونا من الألوان لا يخل به: فاللازود للشدّات والجزمات؛ واللك للضمات والفتحات والكسرات؛ والأخضر للهمزات المكسورة؛ والأصفر للهمزات المفتوحة لا يخل بشئ من ذلك فيما يقول الصفدى فى الوافى بالوفيات. ويعلق الصفدى على غراية هذه الطريقة فيقول بأن ذلك شئ غريب من حسن الوضع ورعاية المرسوم ويقال إنه كتب ألف مصحف ولم يزل الملوك الكبار يتنافسون فيها وقد آلى على نفسه ألا يكتب حرفا إلا من القرآن وكان له بيت فيه آلات النسخ والرقوق وغير ذلك لايدخله أحد من أهله. يدخله ويخلو بنفسه وكان مصحفه لا يهديه إلا بمائتى دينار. وإن إنساناً جاء إليه من بعيد مسافة وأخذ منه مصحفات ولما كان بعد مدّة فكر أنه وضع نقطاً أو خطاً على بعض الحروف فى غير موضعه، وأنه سافر إلى تلك البلد وأتى إلى ذلك الرجل وطلب المصحف منه فتوهم أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجع فى البيع، فقال: قبضت الثمن منى وتفاصلنا فقال: لابد أن أراه فلما أتى به حك ذلك الغلط وأصلحه وأعاده إلى صاحبه.

وذكر الجاحظ فى كتاب الحيوان أن الزنادقة قد عرفوا بزخرفة كتبهم فكانوا يختارون لها الحبر الأسود المزوق البراق والورق النقى البياض. وكانوا يبالغون فى استخدام الذهب والفضة فى تحليتها وعندما أحرقت كتبهم سنة ٣١١هـ سقط منها قدر كبير من الفضة والذهب. وقد قلدهم أتباع الحلاج من غلاة المتصوفة فى إستخدام هذين المعدنين وفى العناية بكتبهم التى كانوا يكتبونها على ورق صينى وبعضها بماء الذهب ويبطنونها بالديباج والحرير ويجلدونها بالجلد الممتاز.

ولقد أهديت إلى الوزير نظام.الملك نسخة من القرآن الكريم لا يعرف ناسخها، وقد كتبت هذه النسخة بألوان عديدة فقد كتبت اختلافات القراء بين السطور باللون الأحمر وتفسير غريب الألفاظ باللون الأخضر والإعراب باللون الأزرق وكتبت علامات الآيات بالذهب.

ويقول الصفدى عن إبراهيم بن أحمد الزرعى أنه كتب الخط المنسوب المليح إلى الغاية وكانت له قدرة على حكايات الخطوط ومناسباتها ويحمل إليه الناس الكتب ليكتب أسماءها بحسن خطه. أى أن بعض النساخين أو ربما مشترى الكتب حرصوا على أن يكون عنوان الكتاب بخط جيد محسّن لأنه المدخل إلى الكتاب كما نفعل الآن فى صفحة عنوان الكتاب.

ولقد نقلت منذ قليل نصاً من ابن جماعة والعلموى ينهى عن استخدام الخط الصغير الدقيق فى نسخ الكتب إلا فى حالة الضرورة القصوى حتى يقدر كبار السن وضعاف البصر على قراءتها. والضرورات التى تبيح استخدام الخط الدقيق كما أشار إليها العالمان الجليلان هى ضيق ذات يد الناسخ وعدم إستطاعته شراء ورق كثير فالخط الدقيق الصغير يوفر له الورق وثمنه، وكذلك الحال فى نسخ كتب الرحلات والسفر حتى يخف وزنها ويسهل حملها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن الجوزى «يكره تضييق السطور وتدقيق القلم فإن النظر إلى الخط الدقيق يؤذى النظر. وكان بعضهم يضيق السطور لعدم الكاغد».

ومع كل التحذير من تدقيق الخط فقد بالغ بعض الناسخين فى استخدام الخط الصغير جدا مثل عبد الله محمد بن عبد الله الصورى الذى كتب صحيح البخارى ومسلم فى مجلد لطيف بيع بعشرين ديناراً فى كاغد خراسانى ثمانين سطراً فى كل ورقة. وكان الفقيه محمد بن المسيبى الأرغيانى يمشى فى الطرقات وفى كمه مائة جزء صغير فى كل جزء ألف حديث. وقد سئل عبد الله بن أحمد بن روزبة الفارسى عن سبب دقة خطه فقال «لقلة الوَرَقْ والوَرِق وخفة الحمل على العنق».

وكان الخطاط إسماعيل الزمكحل المتوفى سنة ٧٨٨هـ قد انتهت إليه رئاسة الكتاب وأجاد كتابة الخط الدقيق إلى الغاية بحيث لا يطمس واواً ولا ميماً فلم يكن يدركه أحد فى ذلك حتى كان يكتب سورة الاخلاص على أرزة وكتب من المصاحف شيئاً كثيرا وخطه غاية فى الحسن فيما يذكر ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة.

أما فيما يتعلق بنسخ كلمات مشكوك فيها ووضع حروف فوقها تنبه القارئ إلى واقع تلك الكلمات على النحو الذى قال به ابن جماعة والعلموى فقد ذكر ياقوت الرومى فى معجم الأدباء أن الشيوخ من أهل الأدب يتعالمون أن الحرف إذا كتب عليه صح بُصاد وحاء فإن ذلك علامة لصحة الحرف لئلا يتوهم متوهم عليه خللا ولا نقصاً فوضع حرف كامل على حرف صحيح. وإذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة أن الحرف سيتم إذ وضع عليه حرف غير تام ليدل نقص الحرف على اختلاف الحرف ويسمى ذلك الحرف [العلامة] أيضا ضبَّة أى أن الحرف مقفل بها لم يفهم... ويستمر ياقوت فى القول بأن هذا كلام عليه طلاوة وإنما قصدوا بكتبهم على الحرف صح إن كان شاكاً فى صحة اللفظة فلما صحت له بالبحث خشى أن يعاوده الشك فكتب عليها صح شكه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد نصح ابن جماعة بضرورة الفصل بين الجمل بوضع دوائر أو أية علامة بين الجملة والجملة فى إشارة مبكرة إلى علامات الترقيم التى لم يعرفها الكتاب الإسلامى إلا فى القرن العشرين. فقد قال ابن جماعة «وينبغى أن يفصل بين كل كلامين بدائرة أو ترجمة أو قلم غليظ ولا يوصل الكلام كله على طريقة واحدة لما فيه من عسر إستخراج المقصود وضياع الوقت ولا يفعل ذلك إلا غبى جداً»/

وقد رأينا فى بداية بحثنا أن الكتابة العربية قد بدأت بدون نقط أو شكل ثم دخلها الشكل والنقط تباعاً لأسباب شرحتها تفصيلا فى ذلك الموضع من البحث وشرحت أن الكتاب والنساخ لم يلهثوا وراءها بمجرد دخولها إلى الكتابة وإنما ترددوا فيها ورأينا أن ابن جماعة والعلموى أشارا إلى ضرورتها فى حالة الحاجة. وقد وجد من الكتاب من حذر من الشكل والنقط إلا فى حالة الحروف المعضلة. وقد ذكر ابن المدبر فى الرسالة العذراء يقول «وإياك النقط والشكل فى كتابك إلا أن تمر بالحرف المعضل الذى يعلم أن المكتوب إليه يعجز فى استخراج معماه فلأن يشكل عليه الحرف أحب إلى من أن يعاب بالنقط والإعجام وقد قال المأمون اياكم والشونيز فى كتبكم يعنى النقط». وأهل الحديث يصرون على وجوب الشكل والإعجام فقال سفيان الثورى «الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة» وقال الأوزاعى «نور الكتاب العَجْم».

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

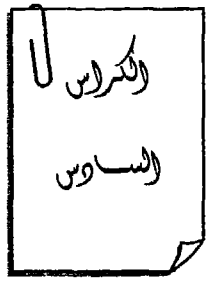

مـــواد الكتابـــة وأدواتها عند المسلمين

كتب العرب فى جاهليتهم على مواد وجدوها جاهزة فى بيئتهم ولم يسعوا إلى صناعتها أو استيرادها، شأنهم فى ذلك شأن كل البشرية إذ اخترعت البشرية الكتابة قبل أن تخترع وسيطا تكتب، عليه بل استعملت المواد الطبيعية التى وجدت فى البيئة لهذا الغرض. وعندما جاء الإسلام، إستخدم المسلمون أيضا فى عهد النبوة نفس المواد البيئية التى وجدوها فى تسجيل القرآن الكريم. أما عندما خرج الإسلام إلى الدول المجاورة وتمت الفتوحات فى الشام وشمالى إفريقيا وانتقلت الخلافة من شبه جزيرة العرب إلى خارجها فى الكوفة أولاً على يد على بن أبى طالب ثم إلى دمشق فى العصر الأموى وبعدها إلى بغداد فى العصر العباسى، كان لابد للمسلمين من أن يستفيدوا من المواد التى وجدوها فى الدول المفتوحة فى الشام ومصر، ويستخدموا تلك المواد فى الكتابة.

ونستعرض فيما يلى تطور المواد التى استخدمها المسلمون فى كتابة المعلومات وإنتاج الكتاب الإسلامى:-

١ - **العسب والكرانيف**. وكانت أكثر مواد الكتابة شيوعاً نظراً لتوافرها فى جزيرة العرب الصحراوية. والعسب جمع عسيب، وهو السعفة أو جريدة النخل حين تجف وينزع خوصها. ويكون القحف - الجزء العريض منها - هو الجزء المفضل فى الكتابة لاستيعابه كميات أكبر من الكلمات. ويسمى القحف «الكرنافة» وجمعه كرانيف وهو أصل السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - **عظام الأكتاف والضلوع**. وكانت متوافرة كذلك فى بيئة العرب توافر الغنم والإبل. حيث عظام الكتف على وجه الخصوص عريضة عرض قحف النخيل وهى للونها الأبيض تسهل الكتابة عليها بالحبر الأسود.

٣ - **اللخاف وقطع الفخار**. واللخاف هى قطع الحجارة الرقيقة البيضاء وكانت متوافرة فى البيئة العربية لتوافر الجبال الصخرية. وكانت قطع الحجارة هذه تتساقط من الجبال بحكم العوامل الطبيعية أو البشرية. أما الفخار فإنه كان يستمد من الأوانى الفخارية عندما تتكسر. وقد ذكرت المصادر أن عمر بن الخطاب كان يستعملها أثناء خلافته لكتابة الأمور العاجلة الوقتية.

٤ - **الرق والأديم والقضيم**. وهى جميعا أنواع من الجلود، أعتقد أنها وفدت إلى الجزيرة العربية قبل الإسلام من بلاد الفرس والشام وإن كان هناك من الدلائل ما يشير إلى أن العرب بحكم توافر هذه الجلود بعد ذبح الحيوانات صنعوا منها نوعاً بدائياً للكتابة عليه تقليدا على الأقل لما كان يفد إليهم من الخارج. يدلنا على ذلك الألفاظ العربية الأصيلة المستخدمة فى التعبير عن تلك المادة.

٥ - **المهارق**. وهى صحائف من القماش الأبيض. مفردها مهرق وهى كلمة فارسية الأصل. وهذا القماش يغلب عليه أن يكون من الحرير ثم يسقى بالصمغ ويصقل ويكتب عليه. وهذه المادة كما يبدو من إسمها وصناعتها وافدة على العرب من بلاد فارس فالعرب لم يصنعوا قماش الحرير وانما كانوا يستوردونه. وانما كانت صناعة القماش عندهم أساساً من صوف الغنم ووبر الإبل. وتذكر المصادر أن المعلقات ربما تكون قد كتبت على هذه المادة. سواء كانت تعلق على أستار الكعبة أو على صدور النساء.

هذه المواد الخمس من مواد الكتابة كانت موجودة فى العصر الجاهلى قبل الإسلام واستمرت فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الصحابة رضوان الله عليهم وقد استخدمت فى كتابة القرآن الكريم. ولكن بعد فتح الشام تدعم موقف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرقوق حيث أنها كانت السائدة هناك فى نهاية العصر الرومانى قبل فتح العرب للشام بفترة طويلة. إلا أنه بعد فتح مصر أضيفت مادة جديدة هى مادة البردى.

٦ - **البردى**. ومن المعروف أن البردى عبارة عن نبات كان ينمو فى مصر القديمة والوسيطة وربما ردحاً طويلا من العصور الحديثة، كان ينمو على ضفاف النيل والبرك والمستنقعات وكان طوله يصل فى بعض الأحيان إلى مترين أو ثلاثة أمتار. وكان ورق البردى يصنع من ساق النبات حيث تقسم الساق إلى شرائح طويلة ثم ترص عليها شرائح أخرى أفقية وتضغط بين لوحين من حديد أو خشب ثقيل فتساعد المادة الصمغية الموجودة بالنبات على الإلتصاق، ثم

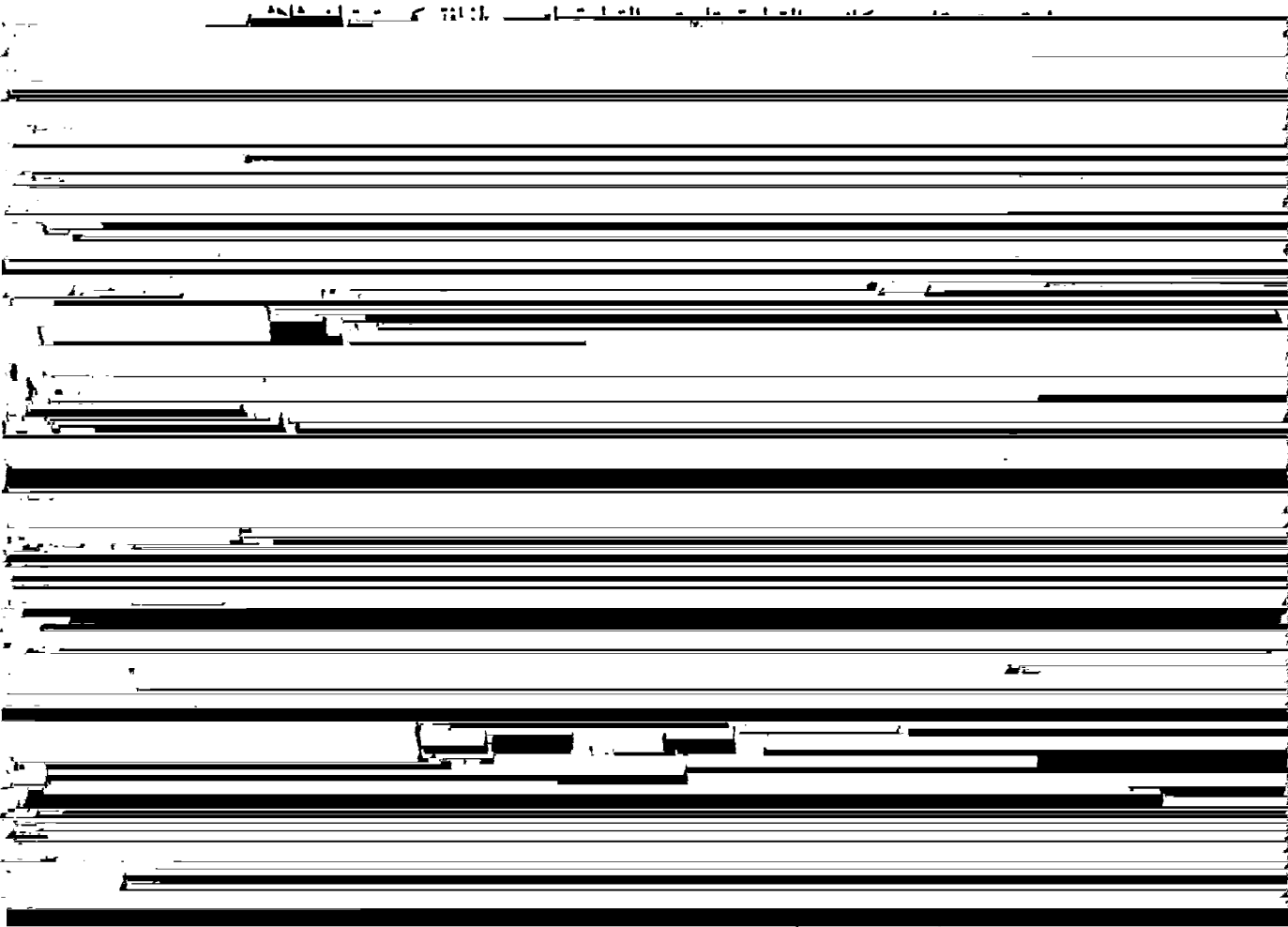

ومن بين العوامل التى أثرت فى نمو عدد المكتبات الكورية ونمو مجموعاتها وخدماتها لابد وأن نتوقف أمام **وزارة التعليم الكورية** التى وضعت معياراً يحتم وجود ثلاثين مجلداً فى مكتبة الجامعة لكل طالب، وأصرت أيضا على تنافس